قَوَاعِدُ نَبَوِيَّةٌ

خَمْسُونَ قَاعِدَةً

فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْأَخْلَاقِ وَالسُّلُوكِ

د. عُمَر بن عَبْدِ اللهِ بن مُحَمَّدٍ المُقْبِل

الأستاذ المشارك بكلية الشريعة

في جامعة القصيم

ⓗ دار الحضارة للنشر والتوزيع، ١٤٣٥هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

المقبل، عمر عبدالله محمد

قواعد نبوية: خمسون قاعدة نبوية في العلم والأخلاق والسلوك./

عمر عبدالله محمد المقبل – ط٢ – الرياض، ١٤٣٥هـ.

ص؛ ٠٠ × ٠٠ سم.

ردمك: ٥ -٣١٣ -٥٠٦ -٦٠٣ -٩٧٨

١ - الأخلاق الإسلامية ٢ - الحديث – مباحث عامة أ - العنوان

ديوي: ٢١٢ ١٤٣٥/٩٤٣٥

رقم الإيداع: ٩٤٣٥/ ١٤٣٥

ردمك: ٥ -٣١٣ -٥٠٦ -٦٠٣ -٩٧٨

الطبعة الثانية

١٤٣٦هـ -٢٠١٥م

دار الحضارة للنشر والتوزيع

ص. ب: ١٠٢٨٢٣ الرياض: ١١٦٨٥

هاتف: ٢٤٩٦٥٥٥ – ٢٧٨٧٣٣٣ فاكس: ٢٤٨٣٠٠٤

المستودع تلفون: ٢٤١٦١٣٩ فاكس: ٢٤٢٢٥٢٨

الرقم الموحد: ٩٢٠٠٠٠٩٠٨


بسم الله الرحمن الرحيم





مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله الهادي لأقوم سنن، والصلاة والسلام على من خصّه ربّه بجوامع الكلم، أما بعد:

فهذه هي الطبعة الثانية لكتابي **«قواعد نبوية»، بعد نفاد الطبعة الأولى منه، والفضل لله وحده.**

وهذا الكتاب جاء صِنواً لكتابي الآخر «قواعد قرآنية» ولتحقيق نفس الفكرة التي قصدتها من ذلك الكتاب، وهو تسليط الضوء على تلك الجملة الجامعة مما نطق به ج، دون التوسع في بقية ألفاظ الحديث إن كان للحديث بقيّة – كما صنع عامة من شرحوا الكتب التي اعتنت بجمع جوامع الكلم كالأربعين النووية وغيرها – كحديث: «من بطّا به عمله لم يسرع به نسبه»، فإن هذه الجملة الجامعة وردت ضمن سياق حديث، فاقتصرتُ عليها في التعليق، فإن كان الحديث برمته قصيراً في كلماته، كقوله ج: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ»، أو «لا تتغضب»، كان التعليق عليه كله.

إن من الأمور المتفق عليها بين المسلمين، أن نبينا محمداً ج قد أوتي من الفضائل ما لم يجمعه الله في بشر سواه، ومن جملة هذه الفضائل التي حلاّه الله بها: أنه أوتي جوامع الكلم؛ فاختصرت له المعاني العظيمة في كلمات قليلة.





وجوامع كلمه – التي جاءت بها الشريعة – نوعان:

«**أحدهما:** ما هو في القُرآن، كقوله لأ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ ﴾ قال الحسنُ: لم تترك هذه الآيةُ خيراً إلاَّ أمرت به، ولا شرّاً إلاَّ نَهَتْ عنه.

والثّاني: ما هو في كلامه ج، وهو موجودٌ منتشرٌ في السُّنن المأثورةِ عنه ج»ا.هـ.[1]

وهذه الجوامع المصطفوية لن يدرك الإنسان سرّ قوتها إلا إذا تذكر أنه ج أوتيها: «**وهو أمّي من أمةٍ أمية، لم يقرأ كتاباً ولا درس علماً، ولا صحب عالماً ولا معلماً، فأتى بما بهر العقول، وأذهل الفطن، من إتقان ما أبان، وإحكام ما أظهر، فلم يعثر فيه بزلل في قول أو عمل**»[2].

«**أفصح الناس لساناً، وأوضحهم بياناً، وأوجزهم كلاماً، وأجزلهم ألفاظاً، وأصحهم معاني، لا يظهر فيه هجنة [3] التكلف، ولا يتخلله فيهقة التعسف،... كلامه جامع لشروط البلاغة، ومُعْرِبٌ عن نهج الفصاحة، ولو مزج بغيره لتميز بأسلوبه، ولظهر فيه آثار التنافر، فلم**

---

(١) ينظر: جامع العلوم والحكم (١/ ٥٠).

(٢) باختصار من أعلام النبوة للماوردي: (ص: ٢٥٤).

(٣) الهُجْنَة: قُبْحُ الكلام.





يلتبس حقه من باطله، ولبان صدقه من كذبه، هذا ولم يكن متعاطياً للبلاغة، ولا مخالطاً لأهلها من خطباءَ، أو شعراء، أو فصحاء، و إنما هو من غرائز فطرته، و بداية جبلته، وما ذاك إلا لغاية تراد، وحادثة تشاد!»

ولأجل هذا كلّه، ولما جعل الله في كلامه من خاصية التشريع – كونه المبلّغ عن الله رسالاته – فقد اعتنى العُلماء كثيراً بهذا النوع من الأحاديث، فصنفوا فيه التصانيف، ومن ذلك:

١- **«الإيجاز وجوامع الكلم مِنَ السُّنَن المأثورة»** لأبي بكر ابن السُّنِّيِّ – رحمه الله.

٢- **«الشهاب في الحِكَم والآداب»** للقاضي أبي عبدِالله القُضاعي: جمع فيه مِنْ جوامع الكلم الوجيزة، وصنَّفَ على مِنوالِه قومٌ آخرون، فزادُوا على ما ذكره زيادةً كثيرةً.

٣- أَشارُ الخطَّابيُّ – رحمه الله – في أوَّل كتابه«غريب الحديث» إلى جملةٍ يسيرة من الأحاديث الجامعة.

٣- ومن ذلك: ما أملاه الإمامُ الحافظُ أبو عمرو بنُ الصَّلاحِ – رحمه الله – في مجلسٍ من مجالسه، وسمَّاه:**«الأحاديث الكلّيَّة»** جمع فيه الأحاديثَ الجوامعَ التي يُقال: إنَّ مدارَ الدِّين عليها، وما كان في معناها مِنَ الكلمات الجامعةِ الوجيزةِ، فاشتمل مجلسهُ هذا على ستَّةٍ وعشرين حديثاً.

٤- ثمَّ جاء بعده الإمام الفقيهُ الزَّاهِدُ القُدوةُ، أبو زكريا يحيى





النَّوويَّ – رحمةُ اللهِ عليهِ – فأخذَ هذه الأحاديثَ – التي أملاها ابنُ الصَّلاحِ – وزادَ عليها تمامَ اثنينِ وأربعينَ حديثاً، وسمى كتابه بـ«**الأربعين**»، وهي المعروفة بالأربعين النووية، التي اشتهرت، وكَثُرَ حفظُها، ونفع الله بها، ولعل ذلك ببركة نيَّة جامِعِها، وحُسْنِ قصدِه – رحمه الله»[(١)].

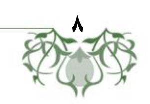
وفي عصرنا هذا وما قبله سمت همة بعض العلماء إلى التصنيف في هذا الباب – أيضاً – ولعل من أشهر الكتب في هذا، كتابُ العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي : «**بهجة قلوب الأبرار، وقرة عيون الأخيار، في شرح جوامع الأخبار**»، فإنه انتقى من هذا الباب **تسعةً وتسعين حديثاً**، ولم يكتف بهذا بل شرحها شرحاً موجزاً، سهل العبارة، مليئاً بالفوائد والقواعد – كما هي عادته في مصنفاته[(٢)].

ولم تكن العناية بجوامع كلمه ج - أو بما اصطلحنا عليه بـ«القواعد النبوية» - مقتصرةً على علماء الشريعة فحسب، بل كان لعلماء الإسلام قاطبةً اهتمامٌ ظاهر بهذا النوع من الأحاديث؛ يظهر ذلك جلياً في كتب البلاغة، والبيان، والأدب، والتي لا يكاد يخلو كتاب

---

(١) ينظر: "جامع العلوم والحكم" (٥٦/١).

(٢) طبع شرحه هذا عدة طبعات، منها ما حققه كاتب هذه الأسطر، وقد طبع ثلاث طبعات، عن مكتبة دار المنهاج بالرياض.





منها إلا وينوّه بما أوتيه نبينا ج من قدرة عظيمة على صياغة المعاني الكثيرة في جملٍ قصيرة، ويضمنون كتبهم نماذج من ذلك.

فهذا أبو منصور الثعالبي (ت: ٤٣٠هـ)[1] يصدر كتابه «الإعجاز والإيجاز» - بعد أن ذكر نماذج من الآيات القرآنية التي تشبه القواعد – بذكر نماذج من الكلام النبوي المعجز في بلاغته وبيانه، مع قصر ألفاظه وتراكيبه؛ فعقد لذلك ثلاثة فصول، منها قوله في الفصل الثالث: «**فصل في سائر أمثاله وروائع أقواله، وأحاسين حكمه في جوامع كلمه التي يلوح عليها نور النبوة، وتجمع فوائد الدين والدنيا**»[2]، ثم ذكر أكثر من ثلاثين نموذجاً.

وتأتي هذه «القواعد النبوية» رغبةً في الاندراج في مسالك هؤلاء العلماء، والسير على طريقتهم، وإن لم أبلغ منزلتهم في البذل والعلم، ولكن على حدّ قول الأول:

إن التشبّه بالكرام فلاح

اجتهدتُ في انتقاء كلماتٍ جوامع من حديثه الشريف، وحاولت أن أربط هدايتها بواقعنا المعاصر، إذْ لكل عصرٍ مستجداته وأحداثه التي

---

(١) له ترجمة في سير أعلام النبلاء : (١٧/٤٣٨) .

(٢) الإعجاز والإيجاز : (٢٢).





تحتاج إلى معالجة في ضوء الوحيين: الكتاب والسنّة، لتكون المعالجة وِفْقَ ذلك برهاناً عملياً على حيوية نصوص الوحيين، وقدرتهما على مواكبة أحوال الناس في كل زمان ومكان، ولتكون نبراساً نهتدي في مسيرنا إلى الله، فإنما يراد من العلم العمل.

اللهم اجعل هذا العمل خالصاً لوجهك، مقرّبا لمعاني سنة نبيك ج، وذخراً عندك أجده حين ألقاك، والحمد لله رب العالمين.

عمر بن عبدالله المقبل

Omar1427@gmail.com

تويتر : @dr_almuqbil

http://almuqbil.com

في يوم السبت ١٨/٤/١٤٣٦هـ





القاعدة الأولى:

إنما الأعمال بالنيات [1]

> «وددت أنه لو كان من الفقهاء من ليس له شغل إلا أن يعلم الناس مقاصدهم في أعمالهم، ويقعد إلى التدريس في أعمال النيات ليس إلا».
>
> [ابن أبي جمرة].

كان كثير من أهل العلم يفضّلون البدء بهذا الحديث العظيم – الذي يمثّل قاعدة من أعظم قواعد الإسلام – في مصنّفاتهم، كما فعل البخاري وغيره من الأئمة؛ لأن النبي ﷺ جعله ميزاناً للأعمال الباطنة، كما أنه أحد شرطي قبول العمل: الإخلاص والمتابعة.

وليس من قبيل المبالغة أن يقال: إن هذه القاعدة العظيمة تعيش مع الإنسان في حركاته وسكناته؛ لذا كان من فقه المؤمن أن يوليها عناية بالغة، كما كان الأئمة يفعلون، ويعبرون عن هذه الحفاوة البالغة بهذه القاعدة بكلمات مشهورة ستأتي الإشارة إلى بعضها.

ولما كان قبول العمل هو الغاية التي شمّر لها المشمرون، وكان الإخلاصُ أحد ركني قبول العمل؛ كانت العناية به من أهم المهمات، والحذر من ذهابها أو ضعفها من أوجب الواجبات، فلا شيء أعلى ولا أحلى من الإخلاص وثمراته، ولا شيء أخوف على المؤمن من حبوط العمل إما كلياً





أو جزئياً! وتأمل هاتين الصورتين اللتين ذكرهما القرآن عن المخلصين والمشركين؛ ليتبين لك الفرق، قال تعالى: ﴿ **بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾** ﴾ [البقرة: ١١٢]، وقال سبحانه: ﴿ **وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾** ﴾ [الفرقان: ٢٣].

إذا تبين هذا، فمن الجدير بنا أن نقف عند معنى النية التي ذكرها النبي ﷺ في هذا الحديث.

فيقال: أما النية – التي ذكرها النبي ﷺ في هذه القاعدة –: فهي **القصد للعمل تقرباً إلى الله**، وطلباً لمرضاته وثوابه، فيدخل في هذا: نية العمل نفسه – صلاة، صيام...الخ – ، ونية المعمول له، أي: لمن عمِل الإنسانُ عملَه هذا؟ أهو لله أم لغيره؟

واعلم – رزقني الله وإياك الإخلاص في القول والعمل – أن النية في كلام العلماء تقع بمعنيين:

أحدهما: تمييز العبادات بعضها عن بعض – كتمييز صلاة الظهر من صلاة العصر مثلاً، وتمييز رمضان من صيام غيره –، **أو تمييز العبادات من العادات** – كتمييز الغسل من الجنابة من غسل التبرد والتنظيف، وكمن يذبح شاة أضحيةً أو رغبةً في أكل لحمها، ونحو ذلك –، وهذه النية هي التي توجد كثيراً في كلام الفقهاء وكتبهم.

والمعنى الثاني: **تمييز المقصود بالعمل:** وهل هو لله وحده لا شريك له، أم لله وغيره؟ وهذه هي النية التي يتكلم عليها علماء التربية والسلوك، الذين





عنوا بالكلام على الإخلاص وتوابعه، وهي التي توجد كثيراً في كلام السلف المتقدمين رحمهم الله تعالى.

وهي التي يتكرر ذكرها في كلام النبي ﷺ، تارة بلفظ النية، وتارة بلفظ الإرادة، وتارة بلفظ مقارب لذلك، وقد جاء ذكرها كثيراً في كتاب الله عز وجل بغير لفظ النية أيضاً من الألفاظ المقاربة لها[1].

إن الحديث عن هذه القاعدة يستحق أن يفرد بمجلدات! كيف وقد قال بعض الأئمة: إن هذا الحديث – يعني حديث النية – هو نصف الدين؟! ذلك أن الأعمال: إما ظاهرةٌ أو باطنة، فالأعمال الظاهرة دليلها: حديث «من عمل عملاً...»[2]، ودليل الأعمال الباطنة هو هذه القاعدة النبوية المحكمة: «**إنما الأعمال بالنية**».

وقال الإمام عبدالرحمن بن مهدي: «ينبغي أن يجعل هذا الحديث رأس كل باب»[3].

فحريٌّ بالعبد – بعد معرفة منزلة هذا الحديث العظيم والقاعدة النبوية المحكمة – أن يستحضر هذا الحديث في أعماله كلها؛ بحيث ينوي نية شاملة لأموره كلها – ما يأتي منها وما يذر – فيجاهد نفسه على أن تكون لله وحده، وطلباً لمرضاته، واتقاء لسخطه.

وأن يروّض نفسه على عدم الالتفات للخلق، ولا يرجو نفعهم أو

---

(١) ينظر: جامع العلوم والحكم: (ص١١).

(٢) بهذا اللفظ أخرجه البخاري تعليقاً بصيغة الجزم: ٤/٢٩٨ في البيوع: باب النجش، ومسلم ح(١٧١٨).

(٣) فتح الباري لابن حجر: (١/ ١١).





مدحهم، فإن حصل شيء من ذلك – دون قصد – لم يضره، بل قد يكون من عاجل بشرى المؤمن(١).

وهذا كلّه يحتاج من المؤمن أن يتدبر النصوص من الوحيين – الكتاب والسنة – الواردة في فضل الإخلاص والمخلصين، وأن يتأمل في ثمرات الإخلاص في الدنيا والآخرة.

انظر كيف صرف الله الفاحشة عن نبيه يوسف عليه الصلاة والسلام بسبب إخلاصه!

وتأمل كيف غفر الله لامرأة بغيٍّ سقت كلباً(٢) لا ترجو إلا الله!

والعجيب أن الحيوان المسقي من أخبث الحيوانات! والأعجب أن النبي ﷺ لم يذكر عنها أنها عابدة ولا متصدقة، بل لم يذكر عنها إلا هذا الوصف الذي هو أقبح ما تعاب به المرأة .. لكنه الإخلاص الذي نقل هذا العمل اليسير إلى هذه المنزلة العالية من الثواب! وفي مقابل ذلك تأمل تلك الأفعال الكبيرة، ومنها: تطاير الرقاب عن أجسادها، كيف تنقلب بسوء النية إلى عملٍ يستحق صاحبه العقوبة عليه! ولذلك لما سُئل النبي ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، أو حمية، أو ليُرى مقامُه في صف القتال «أيّ ذلك في سبيل الله»؟ فقال: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»(٣).

قال ابن رجب: «والأعمال إنما تتفاضل ويعظم ثوابها بحسب ما يقوم

---

(١) بهجة قلوب الأبرار: ص٦.

(٢) صحيح مسلم ح(٢٢٤٥).

(٣) البخاري: (١٢٣)، مسلم: (١٩٠٤).





بقلب العامل من الإيمان والإخلاص، حتى إن صاحب النية الصادقة – وخصوصاً إذا اقترن بها ما يقدر عليه من العمل – يلتحق صاحبها بالعامل، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾[النساء: ١٠٠].

وفي الصحيح مرفوعاً: «إذا مرض العبد أو سافر كُتب له ما كان يعمل صحيحاً مقيماً»[(١)] ، «إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم – أي: في نياتهم وقلوبهم وثوابهم – حبسهم العُذْر»[(٢)] وإذا هَمَّ العبد بالخير، ثم لم يُقَدَّر له العمل؛ كُتِبت همتُه ونيتُه له حسنةً كاملة[(٣)]ا.هـ.

ومما يعين على تحقيق الإخلاص: قراءة سير المخلصين، فإن النفس – بلا ريب – تنشط لذكر الصالحين، مع الحذر من بعض الكلمات التي قد يقع فيها تنقير وتدقيق في بعض دقائق الإخلاص – توجد في بعض كتب السلوك– ليس عليها أثارة من علمٍ، ولا هدى الكتاب والسنة، وغالبها تصدر عن عُبّاد وزهّاد، لا عن علماء راسخين.

يقول مطرِّف بن عبدِالله رحمه الله: «صلاحُ القلب بصلاحِ العملِ، وصلاحُ العملِ بصلاحِ النيَّةِ»[(٤)].

وما أجمعَ ما قال داود الطَّائيّ رحمه الله: رأيتُ الخيرَ كلَّه إنَّما يجمعُه

---

(١) البخاري ح (٢٨٣٤).

(٢) البخاري ح (٤١٦١).

(٣) جامع العلوم والحكم: (ص١٣).

(٤) جامع العلوم والحكم: (ص١٣).






حُسْنُ النِّيَّة، وكفاك به خيراً وإنْ لم تَنْصَبْ.[1]

لا يوجد في حياتنا عمل – مهما كانت منزلته – إلا ويرتبط بهذه القاعدة العظيمة: «إنما الأعمال بالنيات»، ومن ذلك: الإحسان إلى الخلق بالمال أو القول أو الفعل؛ فإن ذلك كله جميل وعظيم، وإذا اقترنت به نية صالحة كان ثوابه أعظم، تأمل جيداً قوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤]، أي: فإنه خير، ثم قال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤] فرتّب الأجر العظيم على فعل ذلك ابتغاء مرضاته، وفي البخاري مرفوعاً: «**من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدّاها الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله**»[2] فانظر كيف جعل النية الصالحة سبباً قوياً للرزق وأداء الله عنه، وجعل النية السيئة سبباً للتلف والإتلاف!

وإذا كان هذا في الأمور المتعدية النفع؛ فإن قاعدتنا هذه «إنما الأعمال بالنيات» **تجري النية في الأمور المباحة، والأمور الدنيوية:**

«فمن قصدَ بكسبه وأعماله الدنيوية والعادية **الاستعانةَ بذلك على القيام** بحق الله وقيامه بالواجبات والمستحبات، واستصحَب هذه النية الصالحة في أكله وشربه، ونومه وراحته ومكاسبه؛ **انقلبت عاداته عبادات،**

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٧٠).

(٢) البخاري ح(٢٢٥٧).





وبارك الله للعبد في أعماله، وفتح له من أبواب الخير والرزق أموراً لا يحتسبها ولا تخطر له على بال، ومن فاتته هذه النية الصالحة – لجهله أو تهاونه – فقد فاته خير كثير جداً»[1].

وبعد: فحقيق بالمؤمن الذي يريد نجاة نفسه ونفعها: أن يفهم معنى هذه القاعدة، وأن يكون العمل بها نُصب عينيه في جميع أحواله وأوقاته، وليعلم أن بلوغ مراتب الصادقين ليست مستحيلة، ولكنها تحتاج إلى جهد ومجاهدة، لماذا؟ يجيب عن هذا سهلٌ بن عبدالله التُّستَري –رحمه الله– إذ يقول: «ليس على النَّفس شيءٌ أشقُّ مِنَ الإخلاص؛ لأنَّه ليس لها فيه نصيبٌ»[2].

خلاصة القاعدة:

- من أَخْلَصَ خُلّص في الدنيا والآخرة.
- الإخلاص سببٌ لقبول العمل وبركته، ونيل رضى الله وجنته.
- قَصْدُ وجهٍ واحد ـ وهو وجه الله تعالى ـ أهون من مصانعة ومُراءات وجوهٍ كثيرة، لا ينفعون ولا يضرون!



(١) ينظر: «بهجة قلوب الأبرار»: (ص: ٢٧).

(٢) جامع العلوم والحكم: (ص١٧).






القاعدة النبوية الثانية:

من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد [1]

> «اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم»
>
> (ابن مسعود)

هذه قاعدة عظيمة جامعة، وهي صنو القاعدة السابقة: «إنما الأعمال بالنيات» ولهذا قال أبو عبيد القاسم بن سلام: «جمع النبي ﷺ جميع أمر الآخرة في كلمة واحدة: «من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد» وجمع أمر الدنيا كله في كلمة واحدة: «إنما الأعمال بالنيات» يدخلان في كل باب» [2].

فهذا الحديث إذاً «قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام، وهو من جوامع كلمه ﷺ؛ فإنه صريح في رد كل البدع والمخترعات» [3] – أي في الدين – وهو كالميزان للأعمال في ظاهرها، كما أنّ حديث: «الأعمال بالنيَّات» – كما تقدم –: «ميزان للأعمال في باطِنها» [4].

ولعظيم ما اشتملت عليه هذه القاعدة من معاني جعلها الشاطبيُّ أحد الأصول التي بنى عليها كتابه المشهور «الاعتصام».

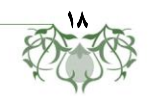
---

(١) البخاري ح(٢٥٥٠)، مسلم ح(١٧١٨).

(٢) جامع العلوم والحكم: (ص٩).

(٣) شرح النووي على مسلم: (١٢/ ١٦).

(٤) جامع العلوم والحكم: (ص٥٩).





وقوله: «فهو رد»: أي مردود عليه، ومؤدى ذلك: البطلان، وعدم الاعتداد به.[1]

وهذه القاعدة تدل بمنطوقها ومفهومها على معانٍ جليلة:

أما منطوقها: فإنها تدل على أن كل بدعة أُحدثت في الدين، ليس لها أصل في الكتاب والسنة، سواء كانت من البدع القولية الكلامية - كبدعة الرفض والاعتزال وغيرها - أو من البدع العملية - كالتعبد لله بعبادات لم يشرعها الله ولا رسوله - فإن ذلك كله مردود على أصحابه، وأهله مذمومون بحسب بدعهم وبُعدها عن الدين، فمن أخبر بغير ما أخبر الله به ورسوله، أو تعبد بشيء لم يأذن الله به ورسوله ولم يشرعه فهو مبتدع، ومن حرم المباحات، أو تعبد بغير الشرعيات فهو مبتدع[2].

وأما مفهوم هذه القاعدة: فإن من عمل عملاً عليه أمر الله ورسوله - وهو التعبد لله بالعقائد الصحيحة، والأعمال الصالحة: من واجب ومستحب - فعمله مقبول، وسعيه مشكور.

ويستدل بهذه القاعدة على أمور، منها:

أولاً: كل عبادة فُعلت على وجهٍ منهي عنه فإنها فاسدة؛ لأنه ليس

---

(١) ينظر: شرح النووي على مسلم: (١٢/ ١٦).

(٢) قال ابن حجر: «وقد أخرج أحمد بسند جيد عن غضيف بن الحارث قال: بعث إلي عبدالملك بن مروان فقال: إنا قد جمعنا الناس على رفع الأيدي على المنبر يوم الجمعة، وعلى القصص بعد الصبح والعصر! فقال: أما إنهما أمثل بدعكم عندي! ولست بمجيبكم إلى شيء منهما؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما أحدث قوم بدعة إلا رفع من السنة مثلها» فتمسك بسنة خير من إحداث بدعة. انتهى، وإذا كان هذا جواب هذا الصحابي في أمر له أصل في السنة؛ فما ظنك بما لا أصل له فيها»؟! فتح الباري: (١٣/ ٢٥٤).





عليها أمر الشارع، وأن النهي يقتضي الفساد، وكل معاملة نهى الشارع عنها فإنها لاغية لا يعتد بها.[1]

ثانياً: يدخل في قوله: «ما ليس منه» قسمان: العبادات، والمعاملات:

فأما العبادات: فما كان منها خارجاً عن حكم الله ورسوله بالكلية فهو مردود على عامله، وعامله يدخل تحت قوله: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [الشورى: ٢١].

فمن تقرَّب إلى الله بعمل لم يجعله الله ورسولُه قربة إلى الله؛ فعمله باطلٌ مردودٌ عليه، وهو شبيهٌ بحالِ الذين كانت صلاتُهم عندَ البيت مُكاء وتصدية، وهذا كمن تقرَّب إلى الله تعالى بسماع الملاهي، أو بالرَّقص، وما أشبه ذلك من المحدثات التي لم يشرع الله ورسولُه التقرُّب بها بالكلية.

وكذلك: من تقرَّب بعبادة نُهِيَ عنها بخصوصها، كمن صامَ يومَ العيد، أو صلَّى في وقت النهي.

وأمَّا من عمل عملاً أصلُه مشروعٌ وقربةٌ، ثم أدخلَ فيه ما ليس بمشروع، أو أخلَّ فيه بمشروع؛ فهذا مخالفٌ أيضاً للشريعة بقدر إخلاله بما أخلَّ به، أو إدخاله ما أدخلَ فيه، وهل يكونُ عملُه من أصله مردوداً عليه أم لا؟ فهذا لا يُطلق القولُ فيه بردٍّ ولا قَبولٍ، وفيه تفصيل ليس هذا موضعه.

وأمَّا المعاملات: كالعقود والفسوخ ونحوهما:

فما كان منها تغييراً للأوضاع الشرعية، كجعل حدِّ الزِّنى عقوبةً مالية،

---

(١) ينظر: بهجة قلوب الأبرار(ص: ١٧).





وما أشبه ذلك؛ فإنَّه مردودٌ من أصله، **وما كان منها** عقداً منهياً عنه في الشرع، إما لكون المعقود عليه ليس محلاً للعقد، أو لفوات شرطٍ فيه، أو لظلم يحصُلُ به للمعقود معه أو عليه؛ ففي ذلك تفاصيل تطلب في مظانها[(١)])[(٢)].

ثالثاً: عبّر عن «الدين» بـ«الأمر» تنبيهاً على أن هذا الدين هو أمرنا الذي نهتم له ونشتغل به، بحيث لا يخلو عنه شيء من أقوالنا وأفعالنا وأحوالنا[(٣)].

رابعاً: أن قوله: «في أمرنا» دليل على أن المحدثات في الأمور الدنيوية غير داخلةٍ في حدّ البدعة، بل هي من الأمور المباحة في أصلها، ولهذا قبل النبي ﷺ رأي سلمان الفارسي س في حفر الخندق، وأحدث الفاروق س ديوان الجند الذي تسجل فيه أسماؤهم، واتفق السلف على جواز كتابة الحديث – بعد اختلاف قديم ثم انقرض – من أجل حفظ السنة والشريعة بعامة، إلى غير ذلك من الوقائع التي لا تكاد تحصر.

ومن تأمل في الإحداث في الدين وجد أنه ينطوي على مفاسد كثيرة، منها:

---

(١) «وذلك أنَّه ورد في بعض الصور أنَّه مردودٌ لا يفيد الملك، وفي بعضها أنَّه يُفيده؛ فحصل الاضطرابُ فيه بسبب ذلك، والأقرب – إنْ شاء الله تعالى – أنَّه إنْ كان النهيُ عنه لحقِّ لله عز وجل؛ فإنَّه لا يفيدُ الملكَ بالكلية، ونعني بكون الحق لله: أنَّه لا يسقطُ برضا المتعاقدين عليه، وإنْ كان النهيُ عنه لحقِّ آدميٍّ معيّن، بحيث يسقط برضاه به، فإنَّه يقفُ على رضاه به، فإنْ رضي لزم العقدُ واستمر الملكُ، وإنْ لم يرض به فله الفسخُ، فإنْ كان الذي يلحقه الضررُ لا يعتبر رضاه بالكلية – كالزوجة والعبد في الطلاق والعَتاق – فلا عِبرة برضاه ولا بسخطه، وإنْ كان النهيُ رفقاً بالمنهيّ خاصةً لما يلحقه من المشقة، فخالف وارتكب المشقة؛ لم يبطل بذلك عملُه» جامع العلوم والحكم: (ص٦٢) بتصرف يسير. وقد ذكر ابن رجب صوراً لذلك؛ تركناها خشية الإطالة.

(٢) جامع العلوم والحكم: (ص٦٠-٦٢) بتصرف يسير.

(٣) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: (١/ ٢٣٦).





أولاً: أن في الابتداع في الدين نوعاً من الاستدراك على صاحب الشرع؛ فإن الله تعالى قضى وامتنّ على عباده بإكمال الدين بقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[المائدة: ٣]، وليس بعد الكمال إلا النقص، فمن أحدثَ في الدين واخترع للناس عبادةً جديدة، فكأنه يقول بلسان حاله: إن الدين غير كامل! وهذا وإن لم يَدُرْ بخلد مسلم، إلا أن هذا مؤداه في الحقيقة.

ولله در الإمام مالك يوم قال: ومن أحدث في هذه الأمة شيئاً لم يكن عليه سلفها فقد زعم أن رسول الله ﷺ خان الدين! لأن الله تعالى يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ فما لم يكن يومئذ ديناً لا يكون اليوم ديناً[1].

ولهذا قال عليه الصلاة والسلام قولاً قطع به كل استثناء يتوهمه أحدٌ في هذا الباب، كما في الصحيح من حديث جابر: «**كل بدعة ضلالة**»[2]، فلم يستثن شيئاً، و(كل) – كما هو مقرر في الأصول – من أقوى وأصرح صيغ العموم، وبه يتبين أن تقسيمَ بعضِ العلماء البدعَ إلى بدعة حسنة، أو مستحبة، أو مباحة...إلخ، أنه تقسيم مردود بهذا العموم الشامل، ويقال: ما دلت الأدلة على مشروعيته فهو مشروع بذاته، وتشرع – تبعاً لذلك – الوسائل التي تعين على تحقيقه، بشرط أن لا يكون في تلك الوسائل مخالفة شرعية؛ كمن يتوصل إلى الصدقة بسرقة أموال الناس!

ثانياً: لو فُتِحَ الباب لكل أحدٍ أعجبته عبادةٌ من العبادات أن يشرّعها للناس ويحثهم عليها؛ لم يصبح لبلاغ النبي ﷺ قيمة، ولصار التعبد لله تعالى

---

(١) أخرجه ابن حزم في «إحكام الأحكام» (٦/ ٢٢٥).

(٢) مسلم ح(٨٦٧).





ملفقاً من أقوال الرجال الذين يقع منهم الخطأ والغلط، ولحُمّل العباد آصاراً من العبادات لم يأذن بها الله، وللحقهم من الحرج شيء عظيم! وهذا مشاهد ومعلوم من أحوال المجتمعات التي فشت فيها البدع.

بل إن الناس بهذا سيُنْقَلون من باب التأسي بالنبي ﷺ إلى اتباع أهواء الناس؛ لأنه «ما من بدعة إلا وللهوى فيها مدخل؛ لأنها راجعة إلى نظر مخترعها لا إلى نظر الشارع»[1].

وبه نعلم أن **إغلاق باب الاجتهاد في العبادات رحمةٌ من الله تعالى بعباده؛** ليكون تعبدهم متصلاً بالسند الأعلى محمدٍ ﷺ.

ثالثاً: أن الملاحظ والمشاهد، أنه ما من بدعةٍ تفشو إلا صارت سبباً في طمس سنة من السنن أو خفائها؛ ذلك أن العبادة إما أن تكون وفق السنة وإلا خرجت عنها إلى حد البدعة، سواء بقصد أم بغير قصد.

يقول حسان بن عطية: «ما أحدث قوم بدعة في دينهم؛ إلا نزع الله من سنتهم مثلها، ثم لم يعدها إليهم إلى يوم القيامة»[2]، والآثار في هذا الباب كثيرة[3].

ومن تأمل في واقع بعض المجتمعات الإسلامية التي فشت فيها بعض البدع تيقن هذه الحقيقة، فحين يفشو التوسل المحرم أو الشركي يضعف التوحيد، وحين تنتشر الأذكار المبتدعة تختفي الأذكار الشرعية، وهكذا، والله المستعان.

---

(١) ينظر: الاعتصام للشاطبي (١/ ٢١٨).

(٢) الاعتصام للشاطبي (١/ ٣٤).

(٥) رواه الدارمي في سننه رقم (٩٨).

(٣) ينظر: الاعتصام للشاطبي (٣٢/١) وما بعدها.






والخلاصة: «أن **من أحدث** في الإسلام رأياً لم يكن له من الكتاب والسنة سندٌ ظاهر أو خفي، ملفوظ أو مستنبط؛ **فهو مردود عليه**، والمراد أن ذلك الأمر واجب الرد، يجب على الناس رده، ولا يجوز لأحد اتباعه والتقليد فيه» (١).

خلاصة القاعدة:

- الابتداع إنما هو في أمور الدين لا في الدنيا.
- المبتدع في حقيقته مستدرك على الشريعة التي كمّلها الله.
- إغلاق باب البدع من مظاهر الرحمة بالأمة حتى لا تشتت بين آراء الرجال.
- ظهور البدع مؤذن بخفاء السنن، وظهور السنن يخفي البدع.



(١) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: (١/ ٢٣٦).





القاعدة النبوية الثالثة:

الدين النصيحة [1]

> «ولا نعرف في أبواب العلم حديثاً أجمع في الأشياء كلها من هذا الحديث، ولا أحسن في أعمال البر كلها حُسْناً، ولا بطريق الصالحين أشد اتباعاً من هذا الحديث».
>
> (الحارث المحاسبي).

تأتي هذه القاعدة النبوية العظيمة في سياق ينبئ عن أهميتها، حين كررها النبي ﷺ ثلاث مرات فقال: «**الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة**» [2] وهو أسلوب يلقي في روع السامع أهميةً أكبر، وإلا فكل حديثه ﷺ مهم، إلا أن هذا التكرار يشي بمزيد من الاهتمام والتنبيه للأمة أن يعلموا حق العلم أن الدين كله – ظاهره وباطنه – منحصر في النصيحة! وهي القيام التام بهذه الحقوق الخمسة: «**لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**».

والنصيحة – كما يقول الخطابي: «كلمة جامعة، معناها حيازة الحظ للمنصوح له، وهي من وجيز الكلام، بل ليس في الكلام كلمة مفردة

---

(١) وممن نصّ على كونها من جوامع الكلم: الشاطبي في (الموافقات: ٢/٣١٧).

(٢) مسلم ح(٥٥)، وفي لفظ النسائي ح(٤١٩٧) وغيره: «**إنما الدين النصيحة**» بلفظ الحصر.





تستوفى بها العبارة عن معنى هذه الكلمة، وهذا الحديث من الأحاديث التي قيل فيها أنها أحد أرباع الدين، قال النووي: بل هو وحده محصل لغرض الدين كله! لأنه منحصر في الأمور التي ذكرها»[(١)].

وبعد هذا البيان لمعنى هذه الكلمة العظيمة، لننظر في تطبيق ذلك على الخمسة التي خصها النبي ﷺ بالذكر:

فالنصيحة لله: الاعتراف بوحدانية الله، وتفرده بصفات الكمال على وجه لا يشاركه فيها مشارك بوجه من الوجوه، والقيام بعبوديته ظاهراً وباطناً، والإنابة إليه كل وقت بالعبودية، والطلب رغبة ورهبة مع التوبة والاستغفار الدائم؛ لأن العبد لا بد له من التقصير في شيء من واجبات الله، أو التجرؤ على بعض المحرمات، وبالتوبة الملازمة والاستغفار التام ينجبر نقصه، ويتم عمله وقوله[(٢)].

وأما النصيحة لكتاب الله: فبحفظه وتدبره، وتعلم ألفاظه ومعانيه، والاجتهاد في العمل به في نفسه وفي غيره.

وأما النصيحة للرسول: فهي الإيمان به ومحبته، وتقديمه فيها على النفس والمال والولد، واتباعه في أصول الدين وفروعه، وتقديم قوله على قول كل أحد، والاجتهاد في الاهتداء بهديه، والنصر لدينه.

وأما النصيحة لأئمة المسلمين – وهم ولاتهم، من الإمام الأعظم إلى الأمراء والقضاة إلى جميع من لهم ولاية عامة أو خاصة –: فباعتقاد ولايتهم،

---

(١) فتح الباري: (١/ ١٣٨)بتصرف يسير.

(٢) قال عبدالعزيز بن رفيع: قال الحواريون لعيسى عليه الصلاة والسلام: ما النصح لله؟ قال: أن تبدأ بحق الله قبل حق الناس، وإن عرض لك أمران أحدهما لله تعالى والآخر للدنيا؛ بدأت بحق الله تعالى. جامع العلوم والحكم: (ص٧٩).





والسمع والطاعة لهم، وحث الناس على ذلك، وبذل ما يستطيعه من إرشادهم، وتنبيههم إلى كل ما ينفعهم وينفع الناس، وإلى القيام بواجبهم.

وأما النصيحة لعامة المسلمين: فبأن يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه، ويسعى في ذلك بحسب الإمكان؛ فإن من أحبَّ شيئاً سعى له واجتهد في تحقيقه وتكميله.(١)

ومما يؤكد موقع هذه القاعدة في قلب المؤمن أن النبي ﷺ كان إذا بايع أحداً من أصحابه بايعه على أركان الإسلام الكبار، وعلى النصح لكل مسلم، كما في حديث جرير س قال: «بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم»(٢).

ويدخل في معنى ما سبق ذكره: ما ذكره شيخ الإسلام – رحمه الله –: «نصح الرجل فيمن يعامله، ومن يوكّله ويوصي إليه، ومن يستشهده، بل ومن يتحاكم إليه، وأمثال ذلك، وإذا كان هذا في مصلحة خاصة فكيف بالنصح فيما يتعلق به حقوق عموم المسلمين: من الأمراء والحكام والشهود والعمال – أهل الديوان وغيرهم –! فلا ريب أن النصح في ذلك أعظم»(٣).

---

(١) انظر: بهجة قلوب الأبرار(ص: ١٩).

«قال الإمام الحافظ ابن رجب: ومن النصح الواجب أن لا يرضى بمعصية العاصي ويحب طاعة من أطاع الله ورسوله .

قلت: ولو كان هو العاصي يجب عليه كراهية المعصية.

وهذا معنى قول بعضهم: (يجب على من بيده الكأس أن ينكر على الجلاس)». غذاء الألباب شرح منظومة الآداب: (١/ ٣٥).

(٢) البخاري ح(٥٧)، مسلم ح(٥٦).

(٣) مجموع الفتاوى: (٢٨/ ٢٣٠).





إن من أشرف العاملين بهذه القاعدة الجليلة هم: الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، وما أحقهم بوصف شيخ الإسلام إذ يقول عنهم أنهم: «أطِبَّاءُ الأديان، الذين تُشفَى بهم القلوب المريضة، وتهتدي بهم القلوب الضالة، وترشُدُ بهم القلوبُ الغاوية، وتستقيم بهم القلوبُ الزائغة، وهم أعلامُ الهدى ومصابيح الدُّجى»[١].

والنبي ﷺ فسَّر النصيحة بهذه الأمور الخمسة التي تشمل القيام بحقوق الله، وحقوق كتابه، وحقوق رسوله، وحقوق جميع المسلمين على اختلاف أحوالهم وطبقاتهم؛ فشمل ذلك الدين كله، ولم يبق منه شيء إلا دخل في هذا الكلام الجامع المحيط.

وإذا تقررت أهمية النصيحة ومنزلتها في الدين، وشمول معناها؛ فمن التوفيق للعبد أن يسلك في نصحه السبيل الأوفق، مراعياً في ذلك الحكمة: زماناً، ومكاناً، وحالاً.

فالخطاب الذي يوجه للعلماء والأمراء وعموم الأكابر ليس كالذي يوجّه لعامة الناس، والأسلوب الذي يخاطب به الوالدان ليس كالأسلوب الذي يخاطب به غيرهما، وهكذا.

قال الإمام مِسْعرُ بن كِدام: رحم الله من أهدى إليّ عيوبي في سر بيني وبينه؛ فإن النصيحة في الملأ تقريع[٢].

ومن النصح أن يُرشَدَ المستنصح لما يناسبه وينفعه، وإن كان هذا التوجيه قد لا يناسب شخصاً آخر يستنصح في ذات الموضوع؛ كما لو سأل

---

(١) جامع المسائل لابن تيمية: (٥/ ٢٣٧).

(٢) الآداب الشرعية: (١/ ٢٩٠).





طالب مبتدئ في العلم عن الكتب المناسبة له، فلا يصلح أن يكون الجواب ذاته يوجّه للمتوسط أو المتقدم في طريق الطلب[1].

وثمة معنىً دقيق يندرج تحت هذه القاعدة العظيمة «الدين النصيحة» وهي: التثبيت على الخير، وحثّ صاحبه أن يزداد منه، فإن كثيراً من الناس ينحصر مفهوم النصيحة عنده في التنبيه على الخطأ! قال حاتم الأصم: النصيحة للخلق: إذا رأيت إنساناً في الحسنة أن تحثه عليها، وإذا رأيته في معصية أن ترحمه[2].

ومن المهم – لتكون النصيحة مؤثرة ونافعة – أن يستحضر الناصح صدق النية، ونفع المنصوح، لا التشفي أو الفرح بالخطأ، قال الإمام الشافعي: ما ناظرت أحداً إلا على النصيحة.

إن من المحزن أن يرى المؤمن في واقع كثيرٍ من المسلمين خرقاً كثيراً لمضمون هذه القاعدة! ومن ذلك:

١) في البيوع، وعموم المعاملات.

٢) في الأمور الاجتماعية، وخاصة ما يخص الزواج، فكم حصل بسبب الإخلال بهذا الأصل العظيم «الدين النصيحة» من مآسٍ وآلام تجرعها أحد الطرفين، بسبب المجاملة التي تحمل على كتم العيوب، وعدم النصح في الخاطب أو المخطوبة!

٣) الموظفون في الدوائر الحكومية، فيقع من عدد غير قليل تقصير، وعدم نصح في أداء الوظيفة، وهم الذين ائتمنوا عليها من قبل

(١) تنظر قصة طريفة وقعت لرجل استنصح ابن عقيل في النظر في علم الكلام: الآداب الشرعية لابن مفلح (١/٢٠٤).

(٢) سير السلف الصالحين (ص: ١١٠٢).





الحكومة، ويأخذون عليها أجراً! كالتقصير في الحضور والانصراف، أو أداء العمل، أو مراعاة الناس حسب المصالح الخاصة.

٤) مُلاّكُ بعض القنوات الفضائية التي تبث من المواد المفسدة للدين والأخلاق، وتستورد ما أنتجه الغرب وتبثه بين المسلمين! وكم شاهد الناس من آثار هذا الغش وعدم النصح، من قلة الحياء، والجرأة على حدود الله! نعوذ بالله تعالى من الغش وأهله.

يقول الحافظ الذهبي: «فتأمل هذه الكلمة الجامعة، فمن لم ينصح لله وللأئمة وللعامة كان ناقص الدين، وأنت لو دُعِيْتَ: يا ناقص الدين لغضبت! »[(١)].

اللهم اجعلنا من عبادك المتناصحين لك وفيك

خلاصة القاعدة:

- النصيحة بمعناها الشامل هي الدين كله.
- النصيحة لا تقتصر على بيان الأخطاء، بل تشمل التثبيت والتشجيع على الخير.
- من المهم – عند النصح – مراعاة حال المنصوح، والوقت والزمان!



(١) سير أعلام النبلاء (١١/٥٠٠).





القاعدة النبوية الرابعة:
الحلال بيّن والحرام بيّن

> «إنما الورع في المشتبهات، وأما الكبائر فكل أحد يتقيها».
> (أشهب بن عبدالعزيز).

هذه قاعدة نبوية محكمة، وردت في ثنايا حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ج، يقول – وأهوى النعمان بإصبعيه إلى أذنيه –: «**إن الحلال بين، وإن الحرام بين،** وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل مَلِك حِمى، ألا وإن حِمى الله محارمُه، ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[(١)].

ما أجمل وقع هذه القاعدة على الأذن!

فهي بديعة في سبكها اللغوي، وأكثر جمالاً في سعة مدلولها الشرعي، فهي«من أجمع القواعد للمعاني الكثيرة؛ ولاشتمالها على جل الأحكام

(١) البخاري ح(٥٢)، مسلم ح(١٥٩٩) واللفظ له.





الشرعية: فإن الحلال والحرام إما أن يكون الحكم فيهما بيّناً لا خلاف فيه بين العلماء، وإما أن يكون خافياً تتجاذبه وجوه التأويلات، فكل منهم يذهب فيه مذهباً»[1].

«قال المهلب رحمه الله: الوسائط التى بين الحلال والحرام يحتف بها أصلان من كل الطرفين، فأيهما قام الدليل عليه أضيفت الوسيطة إليه، وقد يقوم دليلان من الطرفين فيقع الاشتباه، ويعسر الترجيح؛ فهذه الذي من اتَّقَاها: «استبرأ لدينه وعرضه» كما قال ﷺ»[2].

إن لهذه القاعدة النبوية المحكمة دلالات مهمة، نحتاجها في واقعنا العلمي والعملي، أذكر منها بإيجاز:

أولاً: أن هذه القاعدة قسّمت – وبوضوح لا يحتاج معه إلى تفسير – الأحكامَ الشرعية المتعلقة بالحلال والحرام – من حيث وضوحها وخفائها – إلى قسمين لا ثالث لهما، وهذا التقسيم ليس مجرد خبر علمي يتوقف عنده المكلّف! وإنما يراد أن يستفيد منه في حياته العملية، **فالحلال البيّن لا يجوز التورع عنه، ولا يمنع الناس عنه،** والحرام البين لا يجوز الإقدام عليه، وتبقى المنطقة المتوسطة بينهما – منطقة المشتبهات – هي التي تحتاج إلى وقفة أخرى كما سيأتي بعد قليل.

---

(١) المثل السائر: (٢/ ١١٠) بتصرف يسير.

(٢) شرح صحيح البخاري: (١/ ١١٧) لابن بطال.





ثانياً: ما ضابط الحلال البيّن؟ وما ضابط الحرام البين؟ وما ضابط المشتبه؟

قال أهل العلم:

الحلال البيّن: هو الذي لا يختلف العلماء في حلّه اختلافاً معتبراً، كحِلِّ الماء والخبز والنكاح والبيع والشراء، واللباس، ونحو ذلك.

وأما الحرام البين: فهو الذي لا تختلف كلمة العلماء في تحريمه اختلافاً معتبراً، كتحريم الخمر، والزنا، والربا، والميسر، والميتة، وقطيعة الرحم، وترك الصلاة، ومنع الزكاة ونحو ذلك.

وأما المشتبه: فهو الذي يقع فيه خلاف معتبر بين العلماء في حله وحرمته، أو يكون فيه شبهة معتبرة شرعاً في حلّه وحرمته، كما يقع في بعض المكاسب التي يتعاطها الناس؛ كالمساهمة في الشركات المختلطة، ونحو ذلك من المعاملات التي يتجاذبها أصل تحليل وأصل تحريم، ومثل: شرب أو أكل ما اختلف في حلّه وحرمته من المطعومات والمشروبات، ومثل بعض صور الأنكحة المختلف فيها.

ثالثاً: في قوله ﷺ: «وبينهما مشتبهات» ينبغي أن يُعْلم أن هذا الاشتباه ليس في أصل الدليل الشرعي، بل هو بالنسبة إلى الناظر في الأدلّة – وهو العالم المجتهد – وإلا فلا يمكن أن يوجد حكم شرعيٌّ يشتبه على جميع العلماء! إذ هذا خلاف البيان الذي ذكره الله في قوله سبحانه عن نبيه ﷺ: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل– ٤٤]، «وإنما تشتبه على بعض الناس دون بعض؛ فإن الله سبحانه لم يترك شيئاً يجب له فيه حكم إلا وقد جعل فيه له بياناً، ونصب عليه دليلاً، ولكن البيان ضربان،





بيان جلي يعرفه عامة الناس، وخفي لا يعرفه إلا الخاص من العلماء، والدليل على صحة هذا قوله عليه السلام: «لا يعلمها كثير من الناس» وقد عُقل ببيان فحواه أن بعض الناس يعرفونها، وإن كانوا قليل العدد، وإذا صار معلوماً عند بعضهم فليس بمشتبه في نفسه».[1]

رابعاً: قوله ﷺ – في حق ترك المشتبهات –: «**فقد استبرأ لدينه وعرضه**» دليل بل أصلٌ كبير في طلب البراءة للدين والعِرض، الذي قد يلحقه طعنٌ فيهما بسبب تقحّمه لموارد الشُبه!

تأمل ماذا صنع نبيك ﷺ حينما أراد أن يقلب زوجته [2] صفية رضي الله عنها – حين زارته في معتكفه – ورآه رجلان فأسرعا؟ قال: «على رسلكما إنها صفية»! مع أنه ﷺ معصوم، لكنه علّل هذا للرجلين بقوله: «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شراً» أو قال: «شيئاً»[3]، فهذا تطبيق عملي للاستبراء للعرض.

وأما الاستبراء للدين فأمثلته لا تحصى، أكتفي من ذلك بموقفين:

١- تُحدثنا أمنا عائشة – رضي الله عنها – عن أبيها أبي بكر – رضي الله عنه – فتقول: «كان لأبي بكر غلام يُخرج له الخراج، وكان أبو بكر يأكل من خراجه، فجاء يوماً بشيء فأكل منه أبو بكر، فقال له الغلام: أتدري ما هذا؟ فقال أبو بكر: وما هو؟ قال: كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية وما أُحسن الكهانة، إلا أني

---

(١) ينظر: معالم السنن (٣/٥٦).

(٢) يقلب زوجته: أي يرجعها لبيتها.

(٣) مسلم ح(٥٨٠٨).





خدعته! فلقيني فأعطاني بذلك، فهذا الذي أكلتَ منه، فأدخل أبو بكر يده فقاء كل شيء في بطنه!»[1].

٢- واشترى الإمامُ الجليل محمد بن سيرين – أحد أجلاء التابعين (ت: ١١٠) – زيتاً كثيراً للتجارة، فسقطت فيه فأرة، فخشي أن يكون سقوط هذه الفأرة قد أفسد بقية الزيت، فأراقه كله، فحُبِسَ بسبب دَين ركبه من شراء هذا الزيت!

وبمثل هذه المواقف رفع الله منزلة هؤلاء الأئمة –رحمهم الله–، فأين هؤلاء ممن يأكل الحرام الصريح من ربا أو رشوة أو ميسر ولا يبالي؟! ثم يتعجب بعد ذلك من قسوة قلبه ونزع البركة من ماله!

رابعاً: من المهم جداً – ونحن نتحدث عن الورع – أن نذكر ضابطه؛ حتى لا يختل الميزان، ومن أحسن من وقفتُ على كلامٍ له في هذا شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله–، حيث يقول:

«الورع المشروع هو الورع عما قد تخاف عاقبته؛ وهو ما يُعلم تحريمه، وما يشك في تحريمه وليس في تركه مفسدة أعظم من فعله –مثل محرم معين–، مثل: من يترك أخذ الشبهة ورعاً مع حاجته إليها، ويأخذ بدل ذلك محرماً بيّناً تحريمه! أو يترك واجباً تركه أعظم فساداً من فعله مع الشبهة، كمن يكون على أبيه أو عليه ديون هو مطالب بها، وليس له وفاءٌ إلا من مال فيه شبهة، فيتورع عنها ويدع ذمته أو ذمة أبيه مرتهنة!

---

(١) البخاري ح(٣٨٤٢). وينظر: «الورع» للمروذي: (٩٦) وأن الإمام أحمد احتج به في الورع.





وكذلك من «الورع»: الاحتياط بفعل ما يشك في وجوبه، لكن على هذا الوجه.

وتمام «الورع»: أن يعلم الإنسانُ خيرَ الخيرين وشرَّ الشرين، ويعلم أن الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، وإلا فمن لم يوازن ما في الفعل والترك من المصلحة الشرعية والمفسدة الشرعية فقد يدع واجبات ويفعل محرمات، ويرى ذلك من الورع! كمن يدع الجهادَ مع الأمراء الظلمة، ويرى ذلك ورعاً! ويدع الجمعة والجماعة خلف الأئمة الذين فيهم بدعة أو فجور ويرى ذلك من الورع!...» إلخ.[1]

خامساً: ما الحكمة من الوصية بترك المشتبهات وهي ليست حراماً محضاً؟

والجواب: «لأن مَنْ لم يُعرف باجتناب الشبهات لم يسلم لقول من يطعن فيه، وفي هذا إشارة إلى المحافظة على أمور الدين، ومراعاة المروءة»[2].

فتبين بما سبق أن «هذا الحديث أصلٌ فى القول بحماية الذرائع»[3].

وأخيراً، فلنختم حديثنا عن هذه القاعدة النبوية المحكمة ببعض أقوال السلف التي تبيّن عظيم منزلة الورع في نفوسهم، وتبين وتكشف أن هؤلاء القوم –رضي الله عنهم– إنما قالوا ما قالوا عن تجربة وتطبيق عملي؛ لذا بارك الله في أقوالهم، وصار لها الأثر الكبير فيمن جاء بعدهم:

---

(١) مجموع الفتاوى(١٠/٥١١).

(٢) فتح الباري: (١/ ١٢٧) باختصار.

(٣) شرح صحيح البخاري: (١/ ١١٧) لابن بطال.





١- روي عن ابن عمر قال: إني لأحب أن أدع بيني وبين الحرام سترة من الحلال لا أخرقها.

٢- وقال الحسن: مازالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيراً من الحلال؛ مخافة الحرام.

٣- وقال سفيان بن عيينة: لا يصيب عبد حقيقة الإيمان حتى يجعل بينه وبين الحرام حاجزاً من الحلال، وحتى يدع الإثم وما تشابه منه[1].

ألا ما أحوج الأمة إلى أئمة في الورع مع تنامي وكثرة موارد الشبه؛ ليقتدي بهم الناس، وليروا جميل أفعالهم، كما سمعوا الجميل من أقوالهم.

اللهم إنا نسألك علماً نافعاً، وعملاً صالحاً، ورزقا طيباً لا شبهة فيه.

خلاصة القاعدة:

- الأحكام في الشريعة لا تخرج عن هذه القسمة الثلاثية: حلال بيّن، وحرام بيّن، وأمور مشتبهة - وهي الأقل.
- وجود الاشتباه هو نوع من الابتلاء؛ لتربية الأمة على الورع.
- لا يمكن أن تكون المسائل مشتبهة على كل علماء الأمة، بل هذا يقع لبعض أهل العلم.
- على العاقل أن يتجنب مواضع الشبهات، ولا يعتمد على ثقة الناس به.





(١) ينظر في هذه النقول وغيرها: كتاب «الورع» للمروذي، ص(٥٩) وما بعدها.



القاعدة النبوية الخامسة:
من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين

> «الفقيهُ حقَّ الفقه هو من لم يُقنِّط الناس من رحمة الله، ولم يرخص لهم في معاصي الله، ولم يؤمنهم مكر الله».
>
> (أمير المؤمنين علي رضي الله عنه).

هذه القاعدة النبوية قطعة من حديث أخرجه الشيخان من حديث معاوية – رضي الله عنه – وحدّث به على منبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه سمعه يقول: «من يرد الله به خيراً يفقهه[1] في الدين، ولا تزال عصابة من المسلمين يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم، إلى يوم القيامة»[2].

ولبيان سعة مدلول هذه القاعدة النبوية المحكمة تأمل معي هذه القصة:

كان الوزير ابن هبيرة الحنبلي – رحمه الله – يشرح الصحيحين، فلما بلغ هذا الحديث – كما يقول ابن رجب – شرَحَهُ، وتكلم على معنى الفقه، وآل به الكلام إلى ذكر مسائل الفقه المتفق عليها والمختلف فيها بين الأئمة الأربعة المشهورين، وقد أفرده الناس من الكتاب، وجعلوه بمفردهِ مجلدةً،

---

(١) والْفِقْهُ هُوَ الْفَهْمُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «لَا يَكَادُونَ يفقهُونَ حَدِيثا» أي لا يفهمون. «يقال فقُه بالضم إذا صار الفقه له سجية، وفقَه بالفتح إذا سبق غيره إلى الفهم، وفقِه بالكسر إذا فهم». فتح الباري (١/١٦٥).

(٢) البخاري ح(٣١١٦)، مسلم ح(١٠٣٧) واللفظ له.





وسموه بكتاب: «الإفصاح»- وهو قطعة منه، وهذا الكتاب صنفه في ولايته الوزارة، واعتنى به وجمع عليه أئمة المذاهب، وأوفدهم من البلدان إليه لأجله، بحيث إنه أنفق على ذلك مائة ألف دينار، وثلاثة عشر ألف دينار، وحدث به، واجتمع الخلق العظيم لسماعه عليه...، واشتغل به الفقهاء في ذلك الزمان على اختلاف مذاهبهم، يدرسون منه في المدارس والمساجد، ويعيده المعيدون، ويحفظ منه الفقهاء[١]. انتهى.

ومن المعلوم أن الفِقه في معناه اللغوي: هو الْفَهم، وفي عُرْفِ الفقهاء: العلم بِالأحْكَامِ الشَّرْعِيَّة الفرعية، مَن أدلتها التفصيلية بالاستدلال.

ولا شك أن معنى الحديث ههنا، المراد به المعنى اللغوي؛ ليتناول فهم كل علم من عُلُوم الدِّين – كما سيأتي إن شاء الله.

إن دلالة هذه القاعدة النبوية على فضل الفقه في الدين بيِّنة ظاهرة، وماذا يرجو المؤمن إلا أن يكون ممن أراد الله بهم خيراً! فتلك سعادة الدنيا والآخرة.

ومما دلّت عليه هذه القاعدة النبوية بمفهومها: أن من لم يتفقه في الدين لم يرد الله به خيراً، ولكن مما ينبغي إيضاحه هنا أن الفقه في الدين على نوعين:

النوع الأول: نوعٌ لا يعذر أحدٌ بتركه، وهو الذي لا تصح عبادته ولا معاملته إلا به، فهذا من الفقه الواجب تعلمه على كل مسلم، ولا يعذر أحد بالتقصير في طلبه.

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة: (١١٣/٢).





والنوع الثاني: وهو التفقه الذي يكون زائداً على هذا، وهو فرض كفاية، ويدخل فيه: تعلُّم جميع الوسائل المعينة على الفقه في الدين كعلوم العربية بأنواعها، فمن أراد الله به خيراً فقهه في هذه الأمور ووفقه لها، ومن وُفّق لذلك فقد وُفق لخير عظيم.

إن أوجه الخيرية التي أشار إليها النبي ﷺ في حديثه هذا كثيرة، منها ما يلي:

١- نيله بركة هذا الحديث، وأنه ممن أراد الله به خيراً.

٢- أنه يعبد الله على بصيرة في كل ما يأتي ويذر.

٣- نيله الثواب العظيم في تعليم الخلق، وتبصيرهم بدينهم – إن هو زكّى علمه بالتعليم والبلاغ – فإن كل مَنْ يُعبَد الله على بصيرةٍ بسببه فهو شريك في الأجر، كما أن له بركة ما جاء من الأحاديث والآثار في فضل معلم الناس الخير.

٤- أن المتفقه في الدين وارث من ورثة النبي ﷺ؛ فإن «الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا وإنما وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»[(١)].

٥- أن قوله ﷺ: «خيراً» في قوله: «من يرد الله به خيراً» جاءت نكرةً في سياق الشرط؛ ليشمل القليل والكثير، ومن أغراض التنكير في اللغة: التعظيم؛ وهو كذلك ههنا.

---

(١) أخرجه أبو داود ح(٣٦٤١) ، والترمذي ح(٢٦٨٢) وأحمد ؛(٢١٧١٥)، وسنده حسن.





كثيرٌ من الناس حينما يسمع هذه القاعدة النبوية المحكمة: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» يظن أن الفقه قاصرٌ على معرفة مسائل الحلال والحرام، **وهذا فهم مغلوط!** فإن معرفة الحلال والحرام جزءٌ من ذلك، بل الحديث يشمل ما هو أوسع من ذلك؛ مِن الفقه في دين الله بعموم أبوابه، وأصل الفقه وأساسه: معرفة التوحيد وما يكمله، والشرك وما يضاده أو ينافي كماله، ومعرفةُ معاني كلام الله عز وجل الذي أنزله في كتابه على رسول ﷺ ، ومعرفة معاني حديث رسول الله ﷺ، ولهذا كان بعض العلماء يسمي فهم ما يختص بعلوم العقائد: الفقه الأكبر، وعلى هذا الأساس جاءت تسمية الكتاب المشهور عند أصحاب أبي حنيفة – رحمه الله– بـ«الفقه الأكبر».

ولهذا قال بعض المفسرين في تفسير قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾**﴾ [التوبة: ١٢٢]، قال: «يعني الفرقة القاعدين، يتعلمون القرآن والسنن والفرائض والأحكام»[(١)].

فأنت ترى أنه أدخل في الفقه في الدين: تعلمَ معاني القرآن، والسنن، والفرائض، والأحكام، فجعل تعلم الأحكام صورة من التفقه في الدين وليس الفقه كُلّه.

بل وتتسع دائرة الفقه عند السلف؛ لتشمل ما يتعلق بالعمل بالعلم،

---

(١) ينظر: تفسير البغوي (١١١/٤).





وطبيعة النظرة إلى هذه الحياة، كما قال ابن عمر: «إنما الفقيه الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة»[1].

وقال الحسن البصري: «الفَقِيه هوَ الزَّاهِد فِي الدنيَا، الرَّاغِب فِي الآخِرَة، والبصير بأمر دينه، المداوم على عبادة ربه»[2].

وقال مُجَاهِد: «إِنَّمَا الْفَقِيهُ مَنْ يَخَافُ اللَّهَ»[3].

وقال الشعبي – رحمه الله –: «إِنَّمَا الْفَقِيهُ مَنْ وَرِعَ عَنْ مَحَارِمِ اللهِ، وَالْعَالِمُ مَنْ خَافَ اللهَ»[4].

وقال الْحَارِثُ بْنُ يَعْقُوب: «إِنَّ الْفَقِيهَ كُلَّ الْفَقِيهِ مَنْ فَقِهَ فِي الْقُرْآنِ وَعَرَفَ مَكِيدَةَ الشَّيْطَانِ»[5].

– وثمة صفةٌ أخرى نبّه السلف عليها بخصوص الفقيه التام فقهه، وذلك فيما روي عن علي رضي الله عنه: «الْفَقِيهُ مَنْ لَمْ يُوئِسِ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى، وَلَمْ يُرَخِّصْ لَهُمْ فِي مَعَاصِي اللهِ عَزَّ وَجَلّ»[6].

وخلاصة ما تقدم التعليق عليه في هذه القاعدة العظيمة أمران:

– أن الفقه في الدين أعم من أن يخص بالفقه في الأحكام الخاصة بالحلال والحرام.

---

(١) شرح صحيح البخاري: (١/١٥٤) لابن بطال.

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري: (٢/٤٩) بتصرف يسير.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة (٧/٢١٥).

(٤) حلية الأولياء: (٤/٣١١).

(٥) جامع بيان العلم وفضله: (٢/٨١٧).

(٦) حلية الأولياء: (٣/٢٢٦).





- أن الفقه لا يقف عند حدِّ المعرفة العلمية، بل نص السلف - في مواضع كثيرة - على دخول العمل، والخشية من الله، والتوازن في عرض الدين، وأن ذلك كلّه من سمات الفقيه، ومن قصّر في شيء من ذلك فقد نقص فقهه بحسبه.

ولهذا لما قال رجل للحسن البصري - رحمه الله - وقد راجعه في مسألة: يا أبا سعيد! ما سمعت أحداً من الفقهاء يقول هذا! قال: «وهل رأيت فقيها بعينيك؟! إنما الفقيه: الزاهد في الدنيا، البصير بدينه، المداوم على عبادة ربه»[(١)].

ومع هذا الفضل العظيم الذي حوته هذه القاعدة النبوية: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» والخيرِ الوفير الذي أعده الله لأهل الفقه في دينه العاملين؛ إلا إنك تجد انصرافاً عجيباً - من قبل كثير من أبناء المسلمين- عن تعلم العلوم الشرعية والتفقه فيها!

إن الإنسان ليدرك أنه لا يطلب من الناس، بل ولا من أكثرهم أن يندرجوا في التفقه بمعناه الدقيق، إلا أن المحزن أن هناك تقصيراً كبيراً في التفقه عند الحد الواجب، ويتبين لك هذا عندما تسمع أسئلة كثير من الناس في برامج الفتوى الإذاعية والفضائية، والتي يقع السؤال فيها عن أمور أقدم فيها أصحابها على أعمال كبار دون أن يكلفوا أنفسهم أن يسألوا! مع تهيؤ فرص

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة: (١٨٦/٧).





السؤال سواء بالاتصال أو برسائل الجوال، أو بغيرها من الوسائل.

اللهم فقهنا في الدين، وعلمنا التأويل، وزدنا علماً، وانفعنا بما علمتنا.

خلاصة القاعدة:

- إذا سلكتَ طريق التفقه في الدين فقد أراد الله بك خيراً، فلتهنك نعمة الله عليك.
- لا يُطْلب من كل الناس أن يكونوا فقهاء وعلماء! لكن يطلب منهم أن يتفقهوا فيما يحتاجون إليه في عبادتهم ومعاملتهم التي تلزمهم.
- الفقه في الدين لا يقتصر على الفقه في الأحكام، بل يشمل الفقه في عموم الشريعة.







القاعدة النبوية السادسة:
ما نقصت صدقةٌ مِن مال[1]

قال واهب الأموال سبحانه: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ [سورة البقرة: ٢٦١].

يا لهذا البيان النبوي الآسر! ولكأنما تهجم هذه القاعدة النبوية على القلب لتزيح عنه معنىً يخالف الصورة الحسية التي يراها الإنسان بالحساب المادي، لتقول له: إن الصدقة وإن نقصت مادياً فهي في الحقيقة تعود على المال بالنماء والبركة، الذي يجعل القليل المبارك خيراً من مال كثيرٍ منزوع البركة.

لقد جبلت النفوس على حب المال، وللشيطان – عند إرادة الإنفاق والبذل – حضوره، كما قال تعالى: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، فتأتي نصوص الشريعة لتملأ القلب يقيناً ورغبةً فيما عند الله، كما في هذه القاعدة النبوية، وكما في تتمة الآية السابقة: ﴿ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾.

---

(١) مسلم ح(٢٥٨٨).





إذاً .. ما حقيقة هذا النقص المنفي في هذه القاعدة؟ وما الفضل الذي سيعود على المتصدق – كما في آية البقرة –؟

حقيقة ذلك ببساطة: أن الصدقة والإنفاق في وجوه الخير عموماً لا تنقص المال من كل وجه؛ لأنه لو فرض أنه نقص من جهة فقد زاد من جهات أُخر؛ فإن الصدقة تبارك المال وتنميه، وتدفع عنه الآفات، وتفتح للمتصدق من أبواب الرزق وأسباب الزيادة أموراً ما تفتح على غيره، فهل يقابل ذلك النقصُ بعضَ هذه الثمرات الجليلة؟!

إن الزيادة التي تحصل ببذل الصدقة قد تكون كمية وقد تكون كيفية:

فالكمية: بأن يفتح الله لك باباً من أبواب الرزق لم تخطر في بالك، أو يخفف الله عنك دَيناً بتسخير الله للدائن[1].

وأما الكيفية: فبأن ينزل الله البركة فيما بقي من مالك؛ فيحفظه، ويكفيك لقضاء أمورك، ولا يسلط عليه ما يستنفقه.

ولهذا يقال: إن الصدقة لله التي في محلها لا تُنفِد المال قطعاً، ولا تنقصه بنص حديث النبي ﷺ، وبالمشاهدات والتجربات المعلومة، هذا كله سوى ما لصاحبها عند الله من الثواب الجزيل، والخير والرفعة.

بل حتى من «البركة فيه، ودفع المفسدات عنه، والإخلاف عليه بما هو

---

(١) يحدثني أحد الشباب فيقول: تصدقت ذات صباح بـــ(٣٠٠ ريال) فلم تغب شمس ذلك اليوم إلا وشخص كنت استدنت منه (٣٠٠٠ ريال) يتصل بي ويقول: يا فلان، اعتبر دينك قد انتهى وسُدّد! فسبحان الله الذي يعد ويعود بالفضل، وصلى الله وسلم على من قال: «ما نقصت صدقة من مال».





أجدى وأنفع، وأكثر وأطيب (وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه)، أو في الآخرة بإجزال الأجر وتضعيفه، أو فيهما! وذلك جابر لأصناف ذلك النقص، بل وقع لبعض الكُمّل أنه تصدق من ماله فلم يجد فيه نقصاً! قال الفاكهاني: أخبرني من أثق به، أنه تصدق من عشرين درهماً بدرهمٍ، فوزنها فلم تنقص! قال: وأنا وقع لي ذلك[1].

بل إن صدقتك قد تكون سبباً لأن يدفع الله عنك ألواناً من المصائب والأدواء.

نقل الذهبي – رحمه الله – في «السير» أن رجلاً سأل ابن المبارك – رحمه الله – عن قرحة خرجت في ركبته منذ سبع سنين، وقد عالجها بأنواع العلاج، وسأل الأطباء فلم ينتفع!

فقال له: اذهب، فاحفر بئراً في مكان يحتاج الناس فيه إلى الماء؛ فإني أرجو أن ينبع هناك عين، ويمسك عنك الدم؛ ففعل الرجل فبرأ.[2]

وقصص السابقين واللاحقين في هذا لا تكاد تحصر.

ألا وإن من أعظم ثمرات الصدقة المعنوية: أنها تكفر الخطيئات والسيئات، قال الله تعالى: ﴿ **إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾** ﴾ (البقرة: ٢٧١)، «أخرج ابْن أبي حَاتِم عَن ابْن

---

(١) فيض القدير: (٥/ ٥٠٣).

(٢) سير أعلام النبلاء: (٨/ ٤٠٧).





عَبَّاس أنه قَرَأَ: (وتكفر عَنْكُم من سَيِّئَاتكُمْ) فقَالَ: الصَّدَقَة هِيَ الَّتِي تكفر»[١].

بعد هذا أيها الإخوة، يحق للرازيّ أن يقول: «اعلم أن معاقد الخير على كثرتها محصورة في أمرين: صدق مع الحق، وخُلُق مع الخَلْق، والذي يتعلق مع الخَلْق محصور في قسمين: إيصال نفع إليهم، ودفع ضرر عنهم، فقوله: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ﴾ إشارة إلى إيصال النفع إليهم.

وقوله: ﴿أَوْ تَعْفُواْ﴾ إشارة إلى دفع الضرر عنهم؛ فدخل في هاتين الكلمتين جميع أنواع الخير وأعمال البر»[٢].

وكما تتناول هذه القاعدة النبوية المال أصالةً؛ فالواقع يشهد بتناولها لمن آتاه الله علماً فبلّغه الناس، فهو – كما قال ابن القيم : –: «يتَنَاوَل نَفَقَة العلم إما بِلَفْظِهِ وإِمَّا بتنبيهه وإشارته وفحواه، فالعالم كلما بذل علمه للناس وأنفق منه؛ تفَجَّرَت ينابيعه فازداد كثرة وقوَّة وظهوراً، فيكتسب بتعليمه حفظ مَا علِمه، ويحصل له بِه علم ما لم يكن عنده، وربما تكون المسألة في نفسه غير مكشوفة، ولا خارِجَة من حيِّز الإشكال، فَإِذا تكلم بها وعلّمها؛ اتضحت له وأضاءت وانفتح له منها علوم أخر! وأيضاً: فإن الجزَاء من جنس العمل؛ فكما علّم الخلق من جهالتهم جزاه الله بأن علّمه من جهالته»[٣].

وليُعلم أنه لا تقف الصدقة عند هذا، فكما أن صدقة المال لا تُنقص

---

(١)الدر المنثور في التفسير بالمأثور: (٢/ ٨٦).

(٢)تفسير القاسمي = محاسن التأويل: (٣/ ٣٨٧) من كلام الرازي.

(٣) مفتاح دار السعادة: (١/ ١٢٨)بتصرف يسير.





منه شيئاً بل تزيده وتنميه؛ فكذلك «تبسمك في وجه أخيك صدقة لك – وهو لا ينقص منك شيئاً –! وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة – وهو لا ينقص منك شيئاً –! وإرشادك الرجل في أرض الضلالة لك صدقة – وهو لا ينقص منك شيئاً –! وبصرك للرجل الرديء البصر لك صدقة – وهو لا ينقص منك شيئاً –! وإماطتك الحجر والشوكة والعظم عن الطريق لك صدقة – وهو لا ينقص منك شيئاً –! وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة – وهو لا ينقص منك شيئاً –!» [(١)].

يرى البخيلُ سبيل المال واحدةً ... إن الجواد يرى في مالـه سُـبُلا

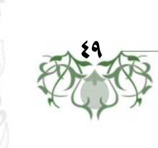
اللهم قنا شح أنفسنا، واجعلنا للمعروف من الباذلين، وللخير من المتصدقين، وتقبل منا إنك أنت السميع العليم.

خلاصة القاعدة:

- من فوائد الصدقة: أنها تنمي المال وتباركه وتدفع عنه الآفات، ويؤجر صاحبها.
- قد تبين بالتجربة والمشاهدة أن الصدقة تدفع وترفع أنواعاً من البلاء.
- الصدقة لفظ يعم كل إنفاق مما وهب الله الإنسان؛ من مال أو علم أو جاه أو أي منفعة صالحة.



(١) سنن الترمذي ح (١٩٥٦)عن أبي ذر، قال الترمذي: هذا حدِيثٌ حسنٌ غريبٌ.





القاعدة السابعة:
الأرواح جنود مجنّدة

رأى ابن عباس رجلاً فقال: إن هذا ليحبني، قالوا: وما علمك؟ قال: إني لأحبه؛ و(الأرواح جنود مجندة...).

هذه القاعدة النبوية هي جزء من حديث أخرجه مسلمٌ في صحيحه من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: «**الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف**» وهو في صحيح البخاري معلَّقاً من حديث عائشة رضي الله عنها[(١)].

وهذه القاعدة تنبّه على حكمةٍ من حِكم الله في خلقه؛ وهو التشاكل والتماثل في الخير والشر، والصلاح والفساد، وأن الخَيِّرَ من الناس يحنّ إلى شكله، والشرير نظير ذلك يميل إلى نظيره، فتعارف الأرواح يقع بحسب الطباع التي جُبلت عليها من خير وشر، فإذا اتفقت تعارفت، وإذا اختلفت تناكرت[(٢)].

«وقد استقرت حكمة الله– عز وجل– في خلقه وأمره على وقوع

---

(١) مسلم ح(٢٦٣٨)، وينظر: البخاري ح(٣٣٣٦).

(٢) فتح الباري: (٦/٣٦٩).





التناسب والتآلف بين الأشباه، وانجذاب الشيء إلى مُوافِقِه ومُجَانِسه بالطبع، وهروبه من مخالفه ونفرته عنه بالطبع، فسِرّ التمازج والاتصال في العالم العلوي والسفلي إنما هو التناسب والتشاكل والتوافق، وسِرّ التباين والانفصال إنما هو بعدم التشاكل والتناسب، وعلى ذلك قام الخلق والأمر، فالمثل إلى مثله مائل وإليه صائر، والضد عن ضده هارب وعنه نافر»[(١)].

ودعنا – أيها القارئ – ننظر في تطبيق عملي لهذه القاعدة صار سبباً في تجاوز محنةٍ مرت بأهلها، وفتنة أظلت أصحابها، تلك هي: قصة أصحاب الكهف.

فإن هؤلاء الفتية – كما ذكر المؤرخون – لما رأوا ما يصنع قومُهم بعين بصيرتهم؛ عرفوا أن هذا الذي يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم والذبح لها؛ لا ينبغي إلا لله الذي خلق السموات والأرض! فجعل كلٌّ واحد منهم يتخلص من قومه، وينحاز منهم ويتبرز عنهم ناحية، فكان أول من جلس منهم وحدَه أحدُهم، جلس تحت ظل شجرة، فجاء الآخر فجلس عنده، وجاء الآخر فجلس إليهما، وجاء الآخر فجلس إليهم، وجاء الآخر، وجاء الآخر، وجاء الآخر، ولا يعرف واحدٌ منهم الآخر! وإنما جمعهم هناك الذي جمع قلوبهم على الإيمان، قال ابن كثير –رحمه الله– معلقاً على هذا التقارب: وهذا كما جاء في الحديث: «الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»[(٢)].

---

(١) الطب النبوي لابن القيم: (١/ ٢٠٢).

(٢) تفسير ابن كثير: (٥/ ١٤٠) بتصرف يسير.





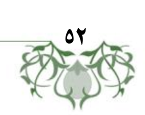


أما الآيات الدالة على معنى هذه القاعدة النبوية فكثيرة، ومن أظهرها وأوضحها:

١) قوله تعالى: ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾[النور: ٢٦].

وبمثل هذه الآية والقاعدة النبوية التي نحن بصدد الحديث عنها؛ يوقن المؤمن أن الله تعالى لم يختر لنبيه ﷺ من زوجات وأصحاب إلا الطيبات من النساء، والطيبين من الرجال؛ إذْ هو ﷺ سيد الطيبين المطيبين، فمن زعم أن في زوجاته أو أصحابه من ليس كذلك فقد كذّب الله في خبره، وكذب رسوله ﷺ أيضاً.

٢) ومن دلالات القرآن الكريم على هذه القاعدة قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ ﴾ [التكوير: ٧]، وقوله تعالى: ﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾ [الصافات: ٢٢] أي أشباههم وأضرابهم، يقول الفاروق رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ ﴾: «الضُرباء: كل رجل مع كل قوم كانوا يعملون عمله، وذلك أن الله يقول: ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾





﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠﴾ [الواقعة: ٧ – ١٠] قال: هم الضرباء[١].

إن القلــوب لأجنــاد مجنــدة	**لله في الأرض بالأهواء تختلف**
فما تعارف منها فهـو مؤتلـف	**وما تنـاكر منهـا فهـو مختلـف**

روي عن مالك –رحمه الله– أنه قال: «الناس أشكال كأجناس الطير؛ الحمام مع الحمام، والغراب مع الغراب، والبط مع البط، والصعو مع الصعو، وكل إنسان مع شكله»ا.هـ.[٢]

وهذا هو منطق الواقع؛ فالطيّب لا يقبل إلا طيباً، من قول أو عمل، أو صديق أو شريك، أو زوج، والخبيث لا يقبل إلا الخبيث كذلك.

وذلك: «أن الأجساد التي فيها الأرواح تلتقي في الدنيا فتأتلف وتختلف على حسب ما جُعلت عليه من التشاكل أو التنافر في بدء الخلقة؛ ولذلك ترى البَر الخيّر يحب شكله ويحن إلى قربه وينفر عن ضده، وكذلك الرَّهِق[٣] الفاجر يألف شِكله ويستحسن فعله وينحرف عن ضده»[٤].

ومن جميل ما روي عن بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: لا تسل أحداً عن وُدّه لك، وانظر ما في نفسك له؛ فإن في نفسه مثل ذلك.[٥]

---

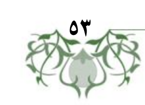
(١) تفسير الطبري: (٢٤/ ١٤٢).

(٢) روضة العقلاء: (ص: ١٠٩).

(٣) الرَّهق يطلق على معان تعرف بالسياق، ومعناه هنا كما «قَالَ اللَّيْث: جهل فِي الْإِنْسَان وخفة فِي عقله». غريب الحديث لابن الجوزي (١/ ٤٢٤).

(٤) معالم السنن: (٤/ ١١٥).

(٥) الاستذكار: (٨/ ٤٥٠).





وكتب أبو الدرداء إلى مسلمة بن مخلد، وهو أمير على مصر: أما بعد، فإن العبد إذا عمل بطاعة الله أحبه الله، فإذا أحبه الله حبّبه إلى خلقه، وإذا عمل بمعصية الله أبغضه الله، وإذا أبغضه الله بغضه إلى خلقه.

قال ابن عبدالبر رحمه الله معلقاً: «هذا كلام خرج على العموم، ومعناه الخصوص؛ أي: حبّب أهل الطاعة إلى أهل الإيمان، وبغّض إليهم أهل النفاق والعصيان؛ ودليل ذلك قوله ﷺ «القلوب أجناد مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»[1].

أما إن سألت عن الأثر العملي لهذه القاعدة في حياتنا! فقد أجاب ابن الجوزي – رحمه الله تعالى – عن هذا حيث يقول: «ويستفاد من هذا الحديث أن الإنسان إذا وجد من نفسه نفرة ممن له فضيلة أو صلاح؛ فينبغي أن يبحث عن المقتضي لذلك ليسعى في إزالته، حتى يتخلص من الوصف المذموم، وكذلك القول في عكسه»[2]ا.هـ.

«وعلماء التربية والأخلاق يعدون الصحبة والمعاشرة ركناً من أركان اقتباس كلٍّ من الصاحبَين من الآخر؛ فيحثون على صحبة الأخيار، ويحذرون من صحبة الأشرار، كما قال الشاعر:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ... فكـل قـرين بالمقـارن يقتـدي

وقال آخر:

وقائـــل كيـــف تفارقتمـــا ... فقلــتُ قــولاً فيــه إنصــاف

---

(١) التمهيد: (٢١/ ٢٤٠).

(٢) فتح الباري: (٦/ ٣٧٠).





لم يـك مـن شـكلي ففارقتـه   والنـــاس أشـــكال وآلاف

وقيل:

»ولا يصحب الإنسان إلا نظيره   وإن لم يكونوا من قبيل ولا بلد

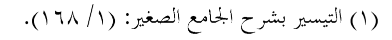
وَقيل: الْأَخ نسيب الْجِسْم، وَالصديق نسيب الرّوح، وَقيل: انْظُر من تصاحب؛ فقلّ نواة طرحت مَعَ حَصَاة إلَّا أشبهتها»[1].

اللهم ارزقنا إخوة فيك يدلونا على الخير، ويوصوننا بالحق والصبر، وجنبنا وأهلنا وأولادنا رفقاء الشر والفساد.

خلاصة القاعدة:

- من سنن الله تعالى في خلقه وعظيم قدرته: أن جعل كل مخلوق يحنّ ويطمئن إلى ما يشاكله في طباعه.
- لا يمكن أن يختار رسول الله لصحبته الأشرار وأشقياء الناس.
- إذا كنت تستحسن أعمال المفسدين والماجنين الساقطين؛ فراجع قلبك وتدينك!
- حب الصالحين وأعمال الصلاح مؤشر خير في العبد.





(١) التيسير بشرح الجامع الصغير: (١/ ١٦٨).







القاعدة الثامنة:
إنما الطاعة في المعروف

«أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم». [الصديق رضي الله عنه].

وُرُوْدُ هذه القاعدة له سببٌ ثابت في الصحيحين من حديث أمير المؤمنين علي – رضي الله عنه – ذلك أن النبي ﷺ بعث سرية واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار، وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا، فأغضبوه في شيء؛ فقال: اجمعوا لي حطباً، فجمعوا له، ثم قال: أوقِدوا ناراً، فأوقَدوا، ثم قال: ألم يأمركم رسول الله ﷺ أن تسمعوا لي وتطيعوا؟! قالوا: بلى! قال: فادخلوها! قال: فنظر بعضهم إلى بعض فقالوا: إنما فررنا إلى رسول الله ﷺ من النار! فكانوا كذلك، وسكن غضبُه، وطفئت النار، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ، فقال: «**لو دخلوها ما خرجوا منها، إنما الطاعة في المعروف**»[1].

هذه هي قصة هذه القاعدة العظيمة، والتي لا تختص بهذا السبب – فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب – بل هي عامة في كل من تجب

(١) البخاري ح (٧١٤٥)، ومسلم ح (١٨٤٠).





طاعته – من الولاة، والوالدين، والزوج، وغيرهم – فإن الشارع أمر بطاعة هؤلاء، وطاعة كلٍّ واحد منهم إنما تكون بحسب حاله، وبما يقتضيه العُرف؛ وهذا من عظمة هذا الدين، فإنك تجده في الأمور التي يصعب ضبطها بسبب اختلاف الأحوال أو الأزمان أو الأشخاص يَرُدّ الناس إلى العرف والعادة، كما هو الحال في البر والصلة، والعدل والإحسان العام؛ فكلها تقيّد بهذا القيد.

ويفهم مما سبق أمور:

أولها: أن من أَمَر منهم بمعصية الله – وهذا يشمل: فعل المحرم وترك الواجب – فإنه لا طاعة له، ولهذا أجمع العلماء على أن من أَمَر بمنكر لا تلزم طاعته؛ قال الله عز وجل: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**﴾.

وقد فقه هذا المعنى أمراء العدل، ومنهم عمر بن عبدالعزيز – رحمه الله – حيث قال في أول خطبة له بعد توليه الخلافة: «أطيعوني ما أطعت الله، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم».

كما فقهه أئمة الدين، فمن تأمل في سيرة الإمام أحمد بن حنبل – رضي الله عنه – على سبيل المثال – وجدها في قمة التوازن، فإنه لما دعي إلى معصية الله وهي القول بخلق القرآن أبى، ولم يجب بحرف واحدٍ، وعذّب بسبب ذلك من قبل إمامه، وحصل له من المحن والابتلاء شيء عظيم، وهو في الوقت ذاته صابر محتسب، رابط الجأش، ولم تكن تلك الفتنة لتجعل ميزانه في باب السمع والطاعة لولاة الأمور أن يختل – وإن ظلموا وجاروا – بل كان ينهى من يريد الخروج عليهم، وختم حياته بإباحة كل من آذاه إلا





من كان عدواً للإسلام، أما من كانت عداوته شخصية فقد أباحه وحلّله رحمه الله.

يقول حنبل – وهو ابن عمه رحمه الله –: اجتمع فقهاء بغداد في ولاية الواثق إلى أبي عبدالله وقالوا له: إن الأمر قد تفاقم وفشا – يعنون إظهار القول بخلق القرآن وغير ذلك – ولا نرضى بإمرته ولا سلطانه، فناظرهم في ذلك، وقال عليكم بالإنكار بقلوبكم، ولا تخلعوا يداً من طاعة، ولا تشقوا عصا المسلمين، ولا تسفكوا دماءكم ودماء المسلمين معكم، وانظروا في عاقبة أمركم، واصبروا حتى يستريح بر أو يستراح من فاجر، وقال: ليس هذا صواباً، هذا خلاف الآثار.[1]

ومن دلالات هذه القاعدة النبوية «إنما الطاعة في المعروف»:

أنه إذا تعارضت طاعة هؤلاء الواجبة، ونافلة من النوافل؛ فإن طاعتهم تقدم؛ لأن ترك النفل ليس بمعصية، فمثلاً لو نهى زوجته عن صيام النفل لمصلحته، أو حج النفل، أو أمر الوالي الشرعي بأمر من أمور السياسة وهذا الأمر يترتب عليه ترك واجب؛ وجب تقديم طاعته لأنها واجبة، وإن ترتب عليه ترك المستحب.

وأُأَكِّد ههنا على أن ذلك **في حالة التعارض**، أما إذا لم يكن ثمة تعارض، بل أمكن طاعتهم مع فعل النافلة فإنه لا طاعة لهم في النهي عن النفل، وأضرب لذلك مثالاً يوضح المعنى: فلو أن أحد الوالدين طلب من

---

(١) الآداب الشرعية: (١/١٧٥).





ولده أن يذهب به إلى السوق بعد الصلاة مباشرةً، وعامل الوقت في هذا مقصود، والولد يريد أن يتنفل، فهنا تعارض أمر الوالد ونافلة الولد، فهنا يقال: يجب على الولد أن يبادر لخدمة والده؛ لأن تأخره عن الذهاب في ذلك الوقت قد يضر به، أو يفوّت عليه مصلحة من المصالح، لكن لو كان الذهاب إلى السوق فيه سعة من الوقت، ولكن الوالد قال: لا أريدك أن تتنقل – من غير سبب – فهنا لا طاعة له؛ لأن النبي ﷺ قيّد الطاعة بالمعروف فقال: «إنما الطاعة في المعروف».

ومن المسائل التي يبتلى بها بعض الأزواج:

أن تأمره أمه بطلاق زوجته لغير سبب شرعي، قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – فيمن تأمره أمه بطلاق امرأته قال: لا يحل له أن يطلقها، بل عليه أن يبرها وليس تطليق امرأته من برها.[1]

ومن المسائل التي يبتلى بها بعض الناس: ما سئل عنه الإمام أحمد – رضي الله عنه – من قبل أحد طلاب العلم، حيث يقول: إني أطلب العلم، وإن أمي تمنعني من ذلك، تريد حتى أشتغل في التجارة، قال لي: دارها وأرضها، ولا تدع الطلب[2].

وهذه الأجوبة من هؤلاء الأئمة رحمهم الله – وغيرها كثير – هي من فقههم التطبيقي لهذه القاعدة النبوية العظيمة: «إنما الطاعة في المعروف».

---

(١) الآداب الشرعية: (١ / ٤٤٧).

(٢) الآداب الشرعية: (٢/٣٥).





«وإنما العاقل الذي يعلم خير الخيرين، وشر الشرين، وينشد:

إن اللبيب إذا بدا من جسمه مرضان مختلفان داوى الأخطرا»[1]

ومن دلالات هذه القاعدة – وهي الدلالة الثالثة في حديثنا هذا – :

أن هذه الطاعة – كغيرها من أوامر الشرع – منوطة بالاستطاعة؛ فإنه إذا كانت الأوامر الواجبة بأصل الشرع معلقة بهذا القيد فكذلك طاعة هؤلاء، الذين طاعتهم تبع لطاعة الله، وقد جاءت نصوص تصرّح بهذا القيد في بعض هذه المواضع الخطيرة، كما في الصحيحين من حديث ابن عمر: كنا إذا بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، يقول لنا: «فيما استطعتم»[2].

وفي شأن بيعة النساء، قال الله تعالى: ﴿ **يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ** ﴾ [الممتحنة: ١٢].

هذه منارات وإشارات في بيان هذه القاعدة النبوية الشاملة، وإلا فإن شرحها يمكن أن يفرد بأكثر من هذا؛ لعظيم ما اشتملت عليه من أحكام جليلة، ومعان كثيرة.

اللهم ألهمنا طاعتك واتباع أمرك، وطاعة من وليتهم علينا بالمعروف.

---

(١) مجموع الفتاوى: (٢٠/٥٤).

(٢) البخاري ح(٧٢٠٢)واللفظ له، مسلم ح(١٨٦٧).



خلاصة القاعدة:

- الطاعة المطلقة ليست إلا لصاحب التشريع الحكيم سبحانه.
- مهما وليت من أمور الناس فتبقى أنت وهم عبيد لله سبحانه مالك الجميع.
- يا من وليت شيئاً من أمور المسلمين! كن من أهل المعروف لتحافظ على ولايتك.







القاعدة النبوية التاسعة:

لا ضرر ولا ضرار

«الضرر والضرار مبثوث منعه في الشريعة كلها، في وقائع جزئيات، وقواعد كليات».

[الشاطبي].

قبل الولوج إلى بيان شيء من دلالات هذه القاعدة؛ يحسن أن أشير إلى أن هذا الحديث الذي اشتملت عليه هذه القاعدة لا تخلو طريق من طرقه التي روي بها من مقال عند أئمة الحديث – رحمهم الله – إلا أن له طرقاً كثيرة جعلت بعض الحفّاظ يجزم بقوته وثبوته.

قال الحافظ ابن رجب:

«وقد ذكر الشيخ رحمه الله – يعني النووي – أن بعض طرقه تُقَوّى ببعض، وهو كما قال، وقد استدل الإمام أحمد بهذا الحديث، وقال أبو عمرو بن الصلاح: هذا الحديث أسنده الدارقطني من وجوه، **ومجموعها يقوّي الحديث ويحسّنه**، وقد تقبله جماهير أهل العلم، واحتجوا به، وقول أبي داود: إنه من الأحاديث التي يدور الفقه عليها؛ يُشعِر بكونه غير ضعيف، والله أعلم»[1] ا.هـ.

---

(١) جامع العلوم والحكم: (٢/٢١٠).





إذا تبين هذا، فليعلم أن هذا الحديث قاعدةٌ من القواعد الجليلة الجامعة لكل خير، الناهية عن كل شر؛ لهذا يعتبره الفقهاء من أهم قواعد الدين، حتى قال أبو داود – كما سبق: «الفقه يدور على خمسة أحاديث – ومنها حديث: «**لا ضرر ولا ضرار**»[1].

وقال ابن عبدالبر: «وهو لفظ عام متصرف **في أكثر أمور الدنيا**، ولا يكاد أن يحاط بوصفه، إلا أن الفقهاء ينزعون به في أشياء مختلفة»[2].

فجدير بالمسلم أن يتعلم هذه القاعدة، ويعرف ما تيسر له من تطبيقاتها؛ ليفيد منها في حياته العلمية والعملية.

وثمة سؤال يُطْرحُ ههنا: ما معنى الضرر والضرار المنفيين ههنا؟ وهل هما شيء واحد أم بينهما فرق؟

والجواب: أن من أهل العلم من قال: إنه لا فرق بينهما، ومنهم – وهو الأشهر وعليه الأكثر – أن بينهما فرقاً: فقيل: إن الضرر هو الاسم، والضرار الفعل، فالمعنى: أن الضرر نفسه منتف في الشرع، وإدخال الضرر بغير حق كذلك.

وقيل: الضرر: أن يدخل على غيره ضرراً بما ينتفع هو به، والضرار: أن يدخل على غيره ضرراً بلا منفعة له به، كمن منع ما لا يضره ويتضرر به الممنوع، ورجح هذا القول طائفة، منهم ابن عبدالبر، وابن الصلاح.

---

(١) هي: «الأعمال بالنيات»، «والحلال بين»، «ولا ضرر ولا ضرار»، «وما نهيتكم عنه فانتهوا وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم».

(٢) الاستذكار: (٧/ ١٩١).





وقيل: الضرر أن يضر بمن لا يضره – أي يقع الضرر منه ابتداءً –، وأما الضرار: فبأن يضر بمن قد أضر به على وجه غير جائز.

وبكل حال فالنبي ﷺ إنما نفى الضرر والضرار بغير حق.[1]

ولما كانت هذه القاعدة بالمحل الذي نوّه به الأئمة – رحمهم الله – كان على طالب العلم أن يجتهد في فهم معناها جيداً، والنظر في بعض تطبيقاتها.

والمطالع في كتب الفقهاء يجد أن هذه القاعدة حاضرة الاستدلال في أبواب كثيرة من الفقه؛ في البيوع، والرهون، والأنكحة، والطب، والجنايات، والقصاص؛ إذ مبناها على دفع ومنع سائر أنواع **الضرر** إلا بدليل؛ لأن قوله: «**لا ضرر**» نكرة في سياق النفي؛ فتعم جميع أنواع الضرر، والمراد بها المُضارَّة المقصودة والمتعمدة.

وأما إذا فعل **الضرر** المستحق للحاجة إليه والانتفاع به – لا لقصد الإضرار – فليس بمضار.

وبكلِّ حال فالنَّبيُّ ﷺ إنَّما نفى **الضرر والضرار** بغير حق.

فأما إدخالُ **الضرر** على أحدٍ بحق – إمَّا لكونه تعدَّى حدودَ الله، فيعاقَبُ بقدر جريمته، أو كونه ظلمَ غيره، فيطلب المظلومُ مقابلتَه بالعدلِ – فهذا غير مرادٍ قطعاً، وإنما المرادُ: إلحاقُ **الضرر** بغيرِ حقٍّ، وهذا على نوعين:

---

(١) ينظر: جامع العلوم والحكم (٢/٢١٢).





أحدهما: أنْ لا يكونَ في ذلك غرضٌ سوى **الضرر** بذلك الغير؛ فهذا لا ريبَ في قُبحه وتحريمه.

والنوع الثاني: أن يكون له غرض آخر صحيح، مثل أن يتصرف في ملكه بما فيه مصلحة له، فيتعدى ذلك إلى ضرر غيره، أو يمنع غيرَه من الانتفاع بملكه توفيراً له، فيتضرر الممنوع بذلك؛ ففي هذه الصورة تفاصيل ليس هذا موضع ذكرها»[(١)].

والحاصل: «أن **الضرار** محرم، لا يجوز تمكين صاحبه منه، فعلى الإنسان أن يكون مقصودُه نفع الخلق، والإحسان إليهم مطلقاً، وهذا هو الرحمة التي بُعث بها محمد ﷺ في قوله: ﴿ **وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ** ﴾»[(٢)].

ومن تأمل في الواقع؛ فإنه سيجد صوراً من خرق هذه القاعدة «لا ضرر ولا ضرار»، ولعلنا نذكر بعض هذه الصور، ليتوقاها من وقع فيها، ويحذر من الوقوع فيها من سلمه الله منها:

١- **الإضرار بالوصية:** وهذه الصورة مما نص القرآن على النهي عنها، قال الله تعالى: ﴿ **مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً** ﴾ [النساء: ١٢] قال الحبر ابن عباس رضي الله عنهما : الإضرار في الوصية من الكبائر، ثم تلا هذه الآية.

---

(١) جامع العلوم والحكم: (٢/٢١٠-٢١٧) باختصار.

(٢) ينظر: جامع المسائل لابن تيمية: (٦/ ٣٦).





ومن صور الإضرار في الوصية:

-أن يخص بعض الورثة بزيادة على فرضه الذي فرضه الله له، فيتضرر بقية الورثة بتخصيصه.

-وتارة بأن يوصي لأجنبي بزيادة على الثلث، فتنقص حقوق الورثة، ولهذا قال النبي ﷺ: «**الثلث والثلث كثير**»[1]، فعلى الإنسان أن يتقي الله في هذا الأمر، ولا يحملنه حب أحد الورثة أو بغضه على الزيادة في حقه أو الانتقاص منه، فإن الله تعالى يقول: ﴿ **وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ [المائدة: ٨].

وليتأمل المؤمن ختم هذه الآية الكريمة بقوله: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ فلا ينفع المضار أن يتحايل، أو يراوغ، فإن الله مطلع على قصده ومراده، ولينظر من يجور في وصيته أو يضار فيها في لحظة قدومه على الله، وأن الله سيحاسبه، وعليه أن يسأل نفسه: ماذا لو كان والده أو مورثه قصد الإضرار به، هل يرضى بذلك؟ فليثق أن الورثة لا يرضون، وليتذكر هذا المضار في وصيته – أيضاً – أن من أسرع الآثار السيئة لهذا الجور: النزاع بين الورثة، والتفرق والتشتت، مما يجعل ورثته شماتةً للأعداء.

وأعرفُ إخوةً بنين وبنات، وصلت الخصومة بينهم إلى المحاكم بسبب جور الوالد وعدم عدله، فصاروا شماتة للناس، نسأل الله العافية.

---

(١) البخاري ح(١٢٩٥)، مسلم ح(١٦٢٨) من حديث سعد بن أبي وقاص..





٢- ومن صور الإضرار التي يقع فيها بعض الناس: الرجعة في النكاح، قال تعالى: ﴿**وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ**﴾ [البقرة: ٢٣١].

فدل ذلك على أن من كان قصده بالرجعة المضارة، فإنه آثم بذلك، وهذا كما كانوا في أول الإسلام – قبل حصر الطلاق في ثلاث – يطلق الرجل امرأته، ثم يتركها حتى يقارب انقضاء عدتها، ثم يراجعها، ثم يطلقها، ويفعل ذلك أبداً بغير نهاية، فيدع المرأة لا مطلقة ولا ممسكة، فأبطل الله ذلك، وحصر الطلاق في ثلاث مرات»[١].

وإنني أذكّر إخواني ممن قد يقع في ذلك – بعد تخويفه بعقوبة الله – أن يسأل نفسه: هل يرضى أن يقع هذا على موليته؟!

وخلاصة ما سبق الحديث فيه عن هذه القاعدة النبوية «لا ضرر ولا ضرار» يُذكر في الآتي:

١. أنه متى ثبت الضرر وجب رفعه، ومتى ثبت الإضرار وجب رفعه مع عقوبة قاصد الإضرار بما يليق به شرعاً.

٢. أن **الضرر** يزال، كالرد بالعيب، وغيره مما يدخل تحت هذه القاعدة المأخوذة من الحديث.

٣. النهي عن المجازاة بأكثر من المثل.

---

(١) جامع العلوم والحكم: (٢/٢١٣-٢١٥).





٤. منع التصرف في ملك الإنسان بما يتعدى ضرره إلى الغير على غير الوجه المعتاد.

هذا ما تيسر إيراده من معاني هذه القاعدة النبوية العظيمة: «لا ضرر ولا ضرار».

نسأل الله تعالى أن يرزقنا العدل في أقوالنا وأفعالنا، وأن يجنبنا الظلم دقيقه وجليلة.

خلاصة القاعدة:

- شريعة الله تعالى مبنية على جلب المصالح للعباد ودفع المضار عنهم.
- لولم يكن من مفاسد الإضرار بالآخرين إلا تأنيب الضمير لكفى به رادعاً.
- يكون الضرر أشنع عندما توصله إلى من تربطك به علاقة قرابة: كزوج أو أخ.
- التعساء في هذه الحياة هم الذين لا يشعرون بالراحة إلا على دموع الآخرين!







القاعدة النبوية العاشرة:
الكذب يهدي إلى الفجور[1]

«والله ما كذبت منذ علمت أن الكذب يشين صاحبه». [عمر بن عبدالعزيز]

هذه القاعدة النبوية العظيمة تجلي صفاءَ مَخبَر هذا الدين وجمالَ مظْهَره؛ فهو يحبب لأتباعه مكارم الأخلاق، وشريف الأوصاف، ويُكَرّه إليهم رذائل الأخلاق، ومساوئ الأوصاف.

والكذب كما هو مشهور: هو الإخبار بالشيء على ما ليس هو عليه في الواقع، ولكن ينبغي أن يقيّد ذلك بمخالفته قدراً أو شرعاً.

وإنما قيدناه بذلك؛ لأن الله تعالى اشترط في الشهادة على الرمي بالزنا أربعة شهود، فلو جاء ثلاثة وشهدوا بأنهم رأوا فلاناً يزني – ولم يأتوا برابع – فإنهم عند الله كاذبون، ولو كانوا ثلاثة، وأخبروا بما رأوا حقيقةً! كما قال تعالى: ﴿ لَوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [النور: ١٣].



(١) البخاري ح(٥٧٤٣)، مسلم ح(٢٦٠٧).



وأما الفجور، فأصله: الميل عن القصد، أو الميل عن الاستقامة، وقيل: الانبعاث في المعاصي[١].

وقيل: الفجور أن يخرج عن الحق عمداً حتى يصيِّر الحقَّ باطلاً والباطلَ حقاً! وهذا مما يدعو إليه الكذب[٢].

وأصل الفَجْر الشق، فالفجور: شَق سِتر الديانة، ويطلق على الميل إلى الفساد، وعلى الانبعاث في المعاصي، وهو اسم جامع للشر[٣].

وكما أن الكذب يدعو إلى الفجور الذي هو جامع للشر؛ فكذلك الصدق يدعو إلى البر، الذي «هو: جامع الخيرات؛ من اكتساب الحسنات، واجتناب السيئات، ويطلق على العمل الخالص الدائم المستمر معه إلى الموت»[٤].

أنشد مُحَمَّد بْن إِسْحَاق الواسطي:

وإذا الأمــــور تزاوجـــــت ... فالصـــدق أكرمهـــا نتاجـــاً

الصـــدق يعقـــد فـــوق رأس ... حليفـــه بالصـــدق تاجـــا

والصـــدق يقـــدح زنـــده ... في كـــل ناحيـــة ســـراجا[٥]

قال ابن حبان – رحمه الله –: «إن اللَّه جل وعلا فضّل اللسانَ على

---

(١) شرح النووي على مسلم (١٦/ ١٦٠)

(٢) جامع العلوم والحكم: (٢/ ٤٨٦).

(٣) ينظر: فتح الباري: (١٠/ ٥٠٨).

(٤) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: (٧/ ٣٠٢٩).

(٥) روضة العقلاء: (ص ٥٣).





سائر الجوارح، ورفع درجته، وأبان فضيلته، بأن أنطقه من بين سائر الجوارح بتوحيده، فلا يجب للعاقل أن يُعوِّد آلةً خلقها اللَّه للنطق بتوحيده بالكذب! بل يجب عليه المداومة برعايته بلزوم الصدق، وما يعود عليه نفعُه في دارَيه؛ لأن اللسان يقتضي مَا عُوِّد، إن صدقاً فصدقاً، وإن كذباً فكذباً.

ولقد أحسن الذي يقول:

عـوِّد لسـانك قـولَ الخـير تحـظ	**إن اللسـان لمـا عـودت معتـاد**
موَكَّـل بتقاضـي مـا سـننت لـه	**فاختر لنفسك وانظر كيف ترتاد**

كان عبدالله بن مسعود يقول: لا يزال العبدُ يكذب وتنكت في قلبه نكتةٌ سوداء، حتى يَسوَدّ قلبُه؛ فيكتب عند الله من الكاذبين[1].

ولقد كان الكذب من أقبح الخلال التي يُعيّر بها الإنسان في الجاهلية، ولم يزده الإسلام إلا تأكيداً على قبحه وخسته، فصار من الكبائر المتفق عليها.

ومن القصص العجيبة التي تؤكد قبح الكذب عند أهل الجاهلية: أن أبا سفيان – لما كان مشركاً – وسأله هرقل عدة أسئلة عن النبي ﷺ في فترة ما بعد صلح الحديبية، منها: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا، قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها، قال أبو سفيان: ولم تمكني كلمة أُدخِل فيها شيئاً غير هذه الكلمة!



(١) المنتقى شرح الموطأ: (٧/ ٣١٤)بتصرف.





وأيم الله لولا مخافة أن يؤثر عَليّ الكذب لكذبت![1]

فقارن بين هذا وبين جرأة بعض الناس على الكذب وربما بشكل يومي، من غير حياء من الله ولا من خلقه!

ومن القصص التي تدل على هذا المعنى في صدر الإسلام:

أن سليمان بن يسار أُدخل على هشام بن عبدالملك، فقال هشام: يا سليمان! من الذي تولى كبره منهم؟ قال: عبدالله بن أُبي ابن سلول! قال: كذبت! هو علي! فدخل ابنُ شهاب الزهري، فسأله هشام، فقال: هو عبدالله بن أُبي! قال: كذبت! هو علي! **فقال: أنا أكذب لا أبا لك! فوالله لو نادى مناد من السماء:** إن الله أحل الكذب، ما كذبتُ! حدثني سعيد، وعروة، وعبيد، وعلقمة بن وقاص، عن عائشة: أن الذي تولى كبره عبدالله بن أبي، قال: فلم يزل القوم يغرون به، فقال له هشام: ارحل، فو الله ما كان ينبغي لنا أن نحمِل على مثلك![2]

إن مَقْتَ الكذب مركوز في الفطر السليمة، وما زادته الأدلة من الكتاب والسنة إلا رسوخاً، وحسب المؤمن رادعاً له عن آفات اللسان كلها – ومنها الكذب – أن يتدبر هذه الآية: ﴿ **وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ** ﴾ [الإسراء: ٣٦]، قال قتادة: أي لا تقل رأيتُ وأنت لم تره، وسمعتُ ولم تسمع، وعلمتُ ولم تعلم[3].

---

(١) البخاري ح(٤٥٥٣)، مسلم ح(١٧٧٣).

(٢) سير أعلام النبلاء: (٥/ ٣٣٩).

(٣) شرح البخاري للسفيري: (٢/ ٥٨).





إن في قوله ﷺ: «**إن الكذب يهدي إلى الفجور**» لدلالةً على أن الكاذب لا يزال يتردّى في دركات الفجور حتى تهوي به في النار.

وإن أشد أنواع الكذب وأعظمها جرماً تلك التي يُكذبُ فيها على الله ورسوله، ثم ما يتعلق بأكل حقوق الناس بالباطل، فإن اقترنت بها اليمين، فتلك هي اليمين الغموس التي تغمس صاحبها في الإثم، ثم تغمسه في النار والعياذ بالله! ولقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**من حلف على يمينِ صبرٍ**[(١)] **يقتطع بها مالَ امرئٍ مسلم هو فيها فاجر؛ لقي الله وهو عليه غضبان**»[(٢)].

كما أن الكذب يتضاعف جرمُه بحسب ما يؤدي إليه؛ فالكذب في المعاملات أشد من الكذب في مجرد الإخبار التي لا يتعدّى ضررها، والكذب في باب الأعراض ليس كالكذب في باب الأموال، وحَسْب الكاذب في بيعه أن تمحق بركة بيعه، كما في الصحيحين: «**البيِّعان بالخيار مالم يتفرقا، فإن صدقا وبيّنا بُورك لهما في بيعهما، وإن كذبا وكتما مُحقت بركة بيعهما**»[(٣)].

وما ترتب على الكذب في البيع والشراء؛ فإنه من أكل المال بالباطل.

ما أقبح الكـذب المـذموم قائلـه   وأحسن الصدق عند الله والناس

وثبت في البخاري عن سمرة بن جندب، قال: كان النبي ﷺ إذا صلى

---

(١) كشف المشكل من حديث الصحيحين (١/ ٣٠٩): قوله: «على يمينِ صبرٍ» في معناها قولان: أحدهما: أن يصبر نفسه: أي يحبسها على اليمين الكاذبة غير مبال بها! والثاني: أن يكون معنى الصبر الجرأة، من قوله تعالى: ﴿فما أصبرهم على النار﴾[البقرة: ١٧٥] أي يجترئ بتلك اليمين على هتك دينه.

(٢) البخاري ح(٤٥٤٩)، مسلم ح(١٣٨).

(٣) البخاري ح(٢٠٧٩)، مسلم ح(١٥٣٢).





صلاة أقبل علينا بوجهه فقال: «**من رأى منكم الليلة رؤيا؟**» قال: فإن رأى أحدٌ قصّها، فيقول: **ما شاء الله**، فسألَنا يوماً فقال: «**هل رأى أحد منكم رؤيا؟**» قلنا: لا، قال: «**لكني رأيتُ الليلة رجلين أتياني فأخذا بيدي، فأخرجاني إلى الأرض المقدسة، فإذا رجل جالس، ورجل قائم، بيده كَلُّوبٌ من حديد فيدخل ذلك الكَلُّوب في شدقه حتى يبلغ قفاه، ثم يفعل بشدقه الآخر مثل ذلك، ويلتئم شدقه هذا، فيعود فيصنع مثله، قلت: ما هذا؟...**» إلى أن قالا له: «**أما الذي رأيته يُشَق شدقه؛ فكذاب! يحدث بالكذبة فتُحمل عنه حتى تبلغ الآفاق، فيُصنع به إلى يوم القيامة...**»[1].

وسبحان الله! إن الإنسان ليرى تأويل هذا في هذا الزمن بالذات! فبضغطة زر تنتشر المعلومة، وفي لحظات يسيرة تبلغ الآفاق! على صفحات الشبكة العالمية، فماذا تنشر؟! قبل أن تضغط على زر النشر اقرأ جيداً ما الذي تريد نشره من الأخبار، أو المعلومات، فإن كان صدقاً فلله الحمد، وإن كان كذباً سيبلغ الآفاق؛ فقد سمعتَ ما حدثك به الصادق المصدوق ﷺ!

اللهم ارزقنا الصدق في القول والعمل، وباعد بيننا وبين الكذب كما باعدت بين المشرق والمغرب.

---

(١) البخاري ح(١٣٨٦).





خلاصة القاعدة:

- الكذب لا يترك صاحبه؛ فمن كذب اليوم بلسانه سيكذب غداً في معاملته وأخلاقه.
- في زمن سرعة انتقال المعلومات يحسن بالمسلم أن يحذر من كل كذبة تحدثه بها نفسه.
- أيها الناشرون لكل ما سمعتم أو قرأتم من أحاديث منسوبة لرسول الله دون أن تتثبتوا من صحتها: الكذب عليه ليس كالكذب على غيره! فتثبتوا.









القاعدة النبوية الحادية عشرة: من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده

> ما انتهك المرء من أخيه حرمةً أعظم من أن يساعده على معصية ثم يهوّنها عليه. (بعضُ السلف)

في صدر النهار، يقبل على النبي ﷺ قومٌ حفاةٌ عراة، مجتابي النِّمار[1] أو العباء، متقلدي السيوف، عامتهم من مضر، بل كلهم من مضر؛ فتمَعَّر وجهُ رسولِ الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج، فأمر بلالاً فأذن وأقام، فصلى ثم خطب فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ [النساء: ١] إلى آخر الآية، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١] والآية التي في الحشر: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ [الحشر: ١٨] «تصدق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره – حتى قال – ولو بشق تمرة» قال: فجاء رجل من الأنصار بصُرة[2] كادت كفُّه تعجز عنها، بل قد عجزت! قال: ثم تتابع الناس، حتى

---

(١) المجتاب: اللابس للشيء، والنِّمار: كلُّ شَمْلَةٍ مُخَطَّطة مَنْ مَآزِر الْأَعْرَاب فَهِيَ نَمِرة، وجمعُها: نِمار، كَأَنَّهَا أخِذت مِنْ لَوْنِ النّمِر؛ لِمَا فِيهَا مِنَ السَّواد والبَياض. النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ١١٨).

(٢) الصُّرّة: الوعاء من الجلد أو القماش أو نحوه الذي تحفظ فيه الأشياء. معجم لغة الفقهاء (ص: ٣١٦).





رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مُذْهَبَة، فقال رسول الله ﷺ: **«من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»**[(١)].

إن جلالة هذا الموقف، وعظمة هذا الحدث؛ جعلت النبي ﷺ يثبت هذه القاعدة الجليلة الرائعة، وينقشها على صدور أصحابه الذين كانوا شاهدين على ذلك الموقف.

تأمل في ألفاظها وعباراتها: «من سن في الإسلام سنة حسنة» أي: أتى بطريقة مرضية يشهد لها أصل من أصول الدين «فاتُّبع عليها»[(٢)]، كما في سنن الترمذي[(٣)].

لقد أوردنا قصة هذه القاعدة؛ لتعلم «أن السنة هاهنا مِثْل ما فعل ذلك الصحابي، وهو العمل بما ثبت كونه سنة، وأن الحديث مطابق لقوله في الحديث الآخر: «من أحيا سنة من سنتي قد أميتت بعدي» الحديث إلى قوله: «ومن ابتدع بدعة ضلالة»، فجعل مقابل تلك السنة الابتداع، فظهر أن السنة الحسنة ليست بمبتدعة»[(٤)].

---

(١) مسلم ح(١٠١٧) عن المنذر بن جرير عن أبيه.

(٢) تحفة الأحوذي: (٧ / ٣٦٥).

(٣) الترمذي ح (٢٦٧٥) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٤) الاعتصام: (١/ ٢٣٥).






ومن لطائف تفسير السلف المتعلق بهذا المعنى، قول عبدالله بن مسعود في آية: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥ ﴾ قال: (ما قدّمت) من سنة صالحة يعمل بها من بعده؛ فله أجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً وما (أَخَّرَتْ) من سنة سيئة يعمل بها بعده؛ فإن عليه مثل وزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً»[(١)].

إن لهذه القاعدة النبوية العظيمة آثاراً عملية ينبغي أن يُرى أثرها على المؤمن حين يسمعها، فمن ذلك:

١- أن هذا الكلام دعوة إلى التنافس في الخير، والتسابق في افتتاح مشروعاته النافعة.

٢- ومما يدخل في طي هذه القاعدة: ما أشار إليه المنذري – رحمه الله – بقوله: «ونَسْخُ العلم النافع له أجره وأجر من قرأه أو كتبه أو عمل به ما بقي خطه، وناسخُ ما فيه إثم: عليه وزره ووزر ما عمل به ما بقي خطه»[(٢)].

٣- **نستفيد كذلك من هذه القاعدة:** فضل الصحابة رضوان الله عليهم «لأنهم سنوا سنن الخير، وافتتحوا أبوابه، ولاشك في أنهم الذين سنوا جميع السنن، وسابقوا إلى المكارم، ولو عدت مكارِمُهُم

---

(١) التمهيد: (٢٤/ ٣٣٠).

(٢) فيض القدير: (١/ ٤٣٨).

وفي «الزواجر عن اقتراف الكبائر» (١/ ١٦٢): «بشرى عظيمة لمن نسخ علما نافعا، وهي أنه يكون له أجره وأجر من قرأه، أو نسخه، أو عمل به من بعده ما بقي خطه والعمل به، وإنذار عظيم لمن نسخ علماً فيه إثم، وهو أن عليه وزره، ووزر من قرأه، أو نسخه، أو عمل به بعده، ما بقي خطه والعمل به».





وحصرت لملأت أسفارًا، ولظلت الأعينُ بمطالعتها حيارى»[1] فرضي الله عنهم وأرضاهم.

٤- التحذير من البدع في الدين، وهذا أصل متفق عليه بين علماء الملة.

وإنما قيّد التحذير من البدع في الدين؛ لأن أمور الدنيا الأمر فيها واسع، وباق على أصل الإباحة، وحكمه يختلف بحسب مآلاته: إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وعلى هذا فجميع المخترعات المعاصرة داخلة في أصل الإباحة، كالأسلحة الحديثة، وتقنيات الاتصالات، ووسائل النقل المتنوعة.

وأنت إذا تأملتَ أيها المؤمن هذا، وجدت أن سدّ باب الابتداع في الدين، وإباحته في أمر الدنيا من مظاهر عظمة هذه الشريعة، وبيان ذلك: أنه لو فُتِحَ الباب لكل من أراد أو لكل فرقة وطائفة أن تبتدع في الدين ما ليس منه لتمزقت الأمة وتفرقت، ولوقع نقيض مقصود الشريعة من الاجتماع والاعتصام بالوحي، تأمل هذه الآية، يقول الله عزّ وجل: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ١٥٩** ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

أما وجه العظمة في إباحة الابتداع والاختراع في أمر الدنيا فإن الله تعالى حين استخلف أبانا آدم وذريته؛ كان من ضرورة هذا الاستخلاف سعي

---

(١) المفهم: (٣/ ١٣٠).





هذا المخلوق في عمارة الأرض، ولن يتم ذلك إلا بفتح الباب على مصراعيه في هذه الأمور، التي هي مشترك إنساني، ولهذا فإن من قرأ في كتب الحضارات وجد أثر هذا التلاقح الفكري في أمم الأرض، وحضارات الشعوب، فهذه أمة تخترع شيئاً، فتطوره أمة أخرى، وأمة تبدأ بمشروع هندسي فتطوره أخرى، وهكذا، حتى أصبح شعوب الأرض كلهم بلا استثناء يستفيد بعضهم من بعض في هذا الباب.

وقد سبق تفصيل بعض هذا المعنى في القاعدة الثانية : «من أحدث في أمرنا هذا».

٥- **ومن دلالات هذه القاعدة النبوية الجليلة:** أن الوسائل لها أحكام المقاصد، سواء كان ذلك في الشأن الديني أو الدنيوي، ولنضرب على ذلك بعض الأمثلة التي توضح المراد:

فمن أمثلة الوسائل الدينية:

- جمع الصحابة المصاحف على مصحف واحد؛ كان وسيلة إلى غاية من أعظم الغايات، وهي حفظ القرآن الكريم، ومنع التفرق بين المسلمين، وتضليل بعضهم بعضاً، وقصة بدء الجمع التي ذكرها البخاري عن حذيفة رضي الله عنه تدل على هذا.

فالقرآن في ذاته محفوظ، لكن وسيلة الجمع لم يقم سببها إلا بعد وفاة النبي ﷺ حين خشي الصحابة رضي الله عنهم تفرق الناس باختلاف الأحرف التي يقرأون بها، فكان جمعه رحمة من الله، وغاية الحكمة من الصحابة رضي الله عنهم.

وقل مثل ذلك في جمع السنة وتبويبها وترتيبها؛ فهذه سنة حسنة يتوصل بها إلى حفظ السنة.





ومن أمثلة الوسائل الدنيوية: ما فعله أمير المؤمنين عمر – رضي الله عنه – في وضع ديوان الجند، وبعض التراتيب الإدارية التي اقتضتها مصلحة الدولة آنذاك.

خلاصة القاعدة:

- أبدِع في الدنيا ولا تبتدع في الدين.
- إن عجز مالُك عن الخير فلا يعجز لسانُك.
- الذِّكر الحسن عمرك الثاني..فأحسن إليه.
- السعيد من إذا مات ماتت معه سيئاته.









القاعدة الثانية عشرة:

كل مسكر خمر، وكل خمر حرام[1]

رأيـــت الخمــــر مَنْقُصَـــــةً وفيهـــا مناقـــبُ تفســـد الرجــل الكريمــا

فــــلا – والله – أشـــربها حيــــاتي ولا أشـــفي بهــــا أبــــداً ســــقيما

[صفوان بن أمية الكناني – شاعر جاهلي]

هذه قاعدة عظيمة، بل هي أصل من الأصول في باب الأشربة، والتي تؤكد حماية الشريعة لأحد الضروريات الخمس، وهو العقل، ذلكم الهبة الربانية العظيمة لهذا الإنسان، وهذه الخمس هي: الدين، العرض، المال، العقل، النفس.

والنصوص في حفظ هذه الضروريات متواترة، ومما أطبق عليه العقلاء في كل دين، وإن وقع اختلاف في بعض التفاصيل.

وكلمة المُسْكر – في أصل تركيبها – تدل على حيرة، فإن الشيء إذا أغلق عليه وحيل دون جريانه الطبيعي حَارَ، وكذلك تَصْنَعُ الخمر، ولهذا قال من أوتي جوامع الكلم ﷺ هذه القاعدة الجامعة: «**كل مسكر خمر، وكل خمر حرام**»، يقول ابن القيم – رحمه الله –: «فلفظ الخمر عام في كل مسكر، فإخراج بعض الأشربة المسكرة عن شمول اسم الخمر لها؛ تقصيرٌ به وهضم

---

(١) البخاري ح(٢٣٩)، مسلم ح(٥٣٣٩)، واللفظ له، وفي لفظ آخر له أيضاً: «وكل مسكر حرام».





لعمومه، بل الحق ما قاله صاحب الشرع: كل مسكر خمر»[1].

ومراده – رحمه الله – الردّ بهذا على طائفة من الفقهاء قصرت في معرفة حد الخمر «حيث خصوه بنوع خاص من المسكرات، وكل هذا من تقصيرهم في معرفة حد الخمر؛ فإن صاحب الشرع قد حده بحد يتناول كل فرد من أفراد المسكر فقال: **«كل مسكر خمر»**، فأغنانا هذا الحد عن باب طويل عريض كثير التعب من القياس، وأثبتنا التحريم بنصه لا بالرأي والقياس»[2].

إذا تبين هذا فإن تحريم الخمر مما تواترت به النصوص من الكتاب والسنة، وأجمع عليه سلف الأمة، وفي تحريمها من الحكم الظاهرة والباطنة ما يعسر معه الحصر.

ومن أول ما يُذكر في علل النهي عنها ما ذكره محرِّم هذه الخمرة علينا، وهو ربنا العليم الخبير فقال: ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾** ﴾ [المائدة: ٩١].

وأنت إذا تأملت هذه العلة وجدتها في جميع المسكرات والمخدرات، فوجب طرد الحكم في الجميع، فكل ما صد عن الصلاة وعن ذكر الله لأ فهو داخل في هذا الحكم.

---

(١) إعلام الموقعين: (١/١٦٨).

(٢) إعلام الموقعين: (١/٢٠٣) باختصار.







ولا يستريب منصف أن الخمر والمخدرات تفعل فعلها في عقل صاحبها، حتى يفعل ما لا يمكنه أن يقدم عليه حال إفاقته، ولهذا سمّتها العرب أمَّ الخبائث.

روى النسائي – رحمه الله – في سننه عن عثمان رضي الله عنه قال: «اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث، إنه كان رجل ممن خلا قبلكم تَعبَّد، فعلِقتْه امرأةٌ غوية، فأرسلت إليه جاريتها، فقالت له: إنا ندعوك للشهادة، فانطلَق مع جاريتها فطفقت كلما دخل باباً أغلقته دونه، حتى أفضى إلى امرأة وضيئة عندها غلام وباطية خمر[1]، فقالت: إني والله ما دعوتك للشهادة، ولكن دعوتك لتقع علي، أو تشرب من هذه الخمرة كأساً، أو تقتل هذا الغلام، قال: فاسقيني من هذا الخمر كأساً، فسقته كأساً، قال: زيدوني فلم يَرِمْ[2] حتى وقع عليها، وقتل النفس! فاجتنبوا الخمر، فإنه والله لا يجتمع الإيمان وإدمان الخمر إلا ليوشك أن يخرج أحدُهما صاحبَه»[3].

وما ذكره عثمان – رضي الله عنه – يصدّقه الواقع؛ فكم من حوادث قتل، أو بالسيارات، كان سببها تعاطي الخمرة وما هو أخبث منها كالمخدرات! التي يسعى المفسدون لنشرها، وفي أمريكا وحدها نشرت

---

(١) الباطية: إناء كبير، تاج العروس(٣٧/ ١٧٤): قالَ الأَزْهرِيُّ: الباطِيَةُ مِن الزُّجاجِ عَظيمةٌ تُمَلأُ من الشَّرابِ وتُوضَعُ بينَ الشَّرْبِ يَغْرفُونَ منها ويَشْرَبُونَ.

(٢) أي: لم يبرح.

(٣) النسائي ح(٥٦٦٦).

وقد روي الحديث مرفوعاً وموقوفاً، لكن قال أبو زرعة:«...عن عثمان، موقوفاً؛ وهو الصحيح». علل الحديث لابن أبي حاتم: (٤/ ٤٨٦). وقال الدار قطني: «وَالْمَوْقُوفُ هُوَ الصَّوَابُ»علل الدارقطني: (٣/ ٤١).





إحصائية تقول: إنه في كل ٣٩ دقيقة يموت شخص واحد بسبب الخمر، ومجموع من يموتون بسببها سنوياً في بريطانيا وحدها نحو ٢٠٠,٠٠٠ شخص!

وتقول منظمة الصحة العالمية في تقرير حديثٍ نشر في منتصف شهر ربيع الأول من عام ١٤٣٢هـ عن آثار الكحوليات على الصحة في العالم إن ٢,٥ مليون شخص تقريبا يموتون كل عام لأسباب متصلة بالكحوليات.[١]

إن المقام لا يحتمل سرد ما وقفت عليه من المفاسد التي تجرها وتسببها هذه الخمرة وما يلحق بها من مخدرات ومسكرات، إلا أنه يمكن القول بأن هذه المفاسد تنقسم إلى قسمين: **مفاسد دينية، ومفاسد دنيوية:**

أما المفاسد الدينية: فقد جاء النص عليها في الآية الآنفة الذكر، وأي خير في عملٍ يصد الإنسان عن الصلة بربه، فإن الصلاة والذكر هما الحبل الذي يتعلق به المؤمن، ويتصل به مع ربه، فإذ جاء ما يقطعهما –بل ويربطه بالشر من جهة أخرى– فتلك حقيقة بأن تسمى بما سماها به عثمان – رضي الله عنه – «الخمر أم الخبائث» فهي أمُّ كل شر، وأساس كلِّ خُبْثٍ.

ومن المفاسد الدينية التي نصت عليها الآية: إيقاع العداوة والبغضاء بين أهلها، وكم شاهد الناس من هذا عبراً: فكم من حادثة قتلٍ بين شخصين بسببها ثارت العداوة بين أسرتين بل قبيلتين! وكم من أُسرٍ تشتت بسبب تعاطي أحد أفرادها للخمرة أو المخدر! وكم من فاحشة ارتكبت حال تناول الخمر، فهتكت أعراض، بل ربما كان العرض المهتوك عرض أحد الأقارب! نعوذ بالله من غضب الله وعقابه.

---

(١) نشر الخبر في موقع وكالة رويترز العربي على الشبكة العالمية http://ara.reuters.com/article/internetNews/idARACAE٢٠١١٠٢١٢G٠٤B٧١





وأما مفاسدها الدنيوية: فشيء لا يكاد يحصر، سواء من الناحية الطبية، أو الاقتصادية، أو الاجتماعية!

أما مضرتها الصحية: فقد أجمع عليها الأطباء؛ لأنهم وجدوها سبباً في كثير من الأمراض الخطيرة على الكبد، والجهاز الهضمي، والعصبي، وغير ذلك مما هو مفصّل في مواضعه.

وأما على الصعيد الاقتصادي، فأرقام كبيرة مزعجة تقرؤها إذا ما قررت أن تخوض في المشاكل الاقتصادية والخسائر التي تعود على الدول بسبب هذه المشكلة الدولية! فخسائر المجتمع من جرَّاء الخمر تصل إلى ١٦٦ بليون دولار سنويًّا كما تقدرها منظمات الصحية العالمية، وثلث أسرّة المستشفيات في الدول الصناعية يشغلها مرضى الخمر.

وتصرف دولة مثل بريطانيا ١٦٤ مليون إسترليني سنويًّا لعلاج مرضى الخمر، حيث يقبع في المستشفيات العقلية والنفسية في إنجلترا ما يقرب من العشرين إلى الثلاثين ألف شخص بسبب الخمر، ويُعَدّ هذا ضعف القدر الذي تكسبه من جراء بيع الخمور، وفي أيرلندا ٤٠٪ من زوار المستشفيات من مرضى الخمر.

ووصل بحسب إحصائية في أوائل الثمانينيات عدد مصحات علاج إدمان الكحوليات في بلد كألمانيا إلى ٩٠٠٠ مصحة، ويحذر الخبراء أن الأمر يزداد سوءاً، وأن المجتمع مهدد بقوة بسبب الخمر، حيث ظهرت أمراض عديدة وسط الشباب، وقلَّ معدل ولادة الأطفال كما ذكر في تقرير ظهر في الرابع عشر من شهر مارس ٢٠٠٢م.

والعجيب أنه مع هذا التقدم المادي المذهل للغرب، إلا أنها أخفقت





في هذه المعضلة الكبيرة، وصارت من أعقد المشكلات التي يجأر منها الغرب، ويبحث عن حل لكن دون جدوى! فهذا السيناتور الأمريكي وليم فولبرايت يقول عن مشكلة الخمر: «لقد وصلنا إلى القمر، ولكن أقدامنا مازالت منغمسة في الوحل، إنها مشكلة حقيقية عندما نعلم أن الولايات المتحدة فيها أكثر من ١١ مليون مدمن خمر وأكثر من ٤٤ مليون شارب خمر!».

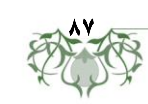
أما المشاكل الاجتماعية للخمر فحدِّث ولا حرج، ففي دراسة اجتماعية حديثة عن المجتمع الأمريكي ظهر أن الطلاق بين الزوجين الذي يعاني أحدهما من شرب الخمر يزيد ٣ أضعاف احتمالات الطلاق العادي.

وتظهر مشاكل كبيرة بين أفراد الأسر التي تشرب الخمر؛ لضعف الاتصال فيما بينهم، ولضعف قدرتهم على حل واستيعاب المشاكل، كما أنه من مليون طفل سُجّل تعرضهم لسوء المعاملة أو الإهمال يأتي ٨١٪ ضحايا بسبب الخمر، وأوضحت الدراسة أن الكحول هو مفتاح لـ: ٨٦٪ من القتل غير العمد، ٥٤٪ من القتل المتعمد والشروع فيه، ٦٢٪ من حوادث الاغتصاب، ٤٨٪ من وقائع اللصوصية، ٤٤٪ من السطو على المنازل، و٦٦٪ من المدمنين يستخدمون المخدرات الأخرى.(١)

وأما حياة المدمن فتتغير رأسًا على عقب! من خلافات لا تنتهي مع العائلة والأصدقاء، إلى علاقات متوترة مع رؤساء العمل بسبب الإهمال، وفقدانِ القدرة على الإنجاز، وهو ما يؤدي عادة إلى البطالة، كما يصبح شخصًا منبوذًا مسببًا للأضرار ومتصفًا بالعنف.

---

(١) ينظر: «من علم الطب القرآني» ص: (٢٢٦-٢٣٠).





وبالجملة، فلو لم يكن في الخمر إلا ذهاب العقل لكفى سبباً للتحريم! فكيف يشرب ما يزيل عقله! فيكون أضحوكةً للصبيان، ويتصرف تصرف المجانين؟! لكن كثيراً من الناس لا يعقلون! فتجدهم يتهافتون عليها، فيُذْهِبُونَ بها عقولهم، وأديانهم، ويهتكون بسببها أعراضهم، ويتلفون أموالهم وصحتهم، نعوذ بالله من الحرمان.

ومع كل ما تبذله الدول الكبرى من أساليب في محاربة هذا الداء الخبيث، إلا أنه هذه المحاولات تقف عاجزة، وضعيفة، إذا ما قورنت بسلطان الضمير الذي يربيه الإسلام في أتباعه، بتنمية عبادة المراقبة لله تعالى فيما يأتي الإنسان ويذر، ولهذا فمع انتشار الخمر في العالم، ومع تورط بعض المسلمين فيها، إلا أن نسبة من يشربونها في الدول الإسلامية لا تقارن أبداً بأصغر بلد من بلدان أوربا المتحضرة في باب المادة، الفقيرة في باب الروح.

وبعد: فإن من أشد الآثار التي تجعل المؤمن يخاف من شربها في الدنيا أن يُحرم من التلذذ بها في الآخرة، ففي سياق هذه القاعدة النبوية التي نحن بصدد الحديث عنها، يختم النبي ﷺ هذه القاعدة محذرا ومنذراً من يفكر في شربها فيقول – كما في الصحيحين: «**ومن شرب الخمر في الدنيا فمات وهو يدمنها لم يتب؛ لم يشربها في الآخرة**»[(١)].

---

(١) مسلم ح(٢٠٠٣).





فإلى كل من ابتلي بشيء من هذه المسكرات والمخدرات، ما أحراك أن تقتدي بصحابة نبيك ﷺ الذين قالوا حين سمعوا منادي الله ينادي: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [المائدة: ٩١] فقالوا: «انتهينا.. انتهينا»[(١)] قُلها بثقة في عون ربك، وابذل السبب والجهد في اجتنابها، وقل لرفقاء السوء ممن يزينها لك: هذا فراق بيني وبينكم، وعجلت إليك ربي لترضى، وأبشر بالفرج العاجل، يغشاك من بين يديك ومن خلفك؛ فإن ربك يقول: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت:٦٩].

خلاصة القاعدة:

- أطع ربك واحفظ عقلك.
- المجتمع الأطوع لله بعيد عن المهلكات.
- حياة الإدمان لا تليق بك أيها المسلم.



(١) انظر: مسند أحمد ح(٣٧٨)، والترمذي ح(٣٠٤٩)، والنسائي ح(٥٥٤٠).






القاعدة النبوية الثالثة عشرة:
مَن بطّأ به عملُه لم يسرع به نَسَبُه[1]

«اجعل خزانتك قبرك، واحشه من كل خير؛ حتى إذا قدمت فرحت بما قدمت إليه من المعروف». [السَّري السَّقَطي].

ما أجلها من قاعدة وأسماها! يسكن العدل في سكونها، ويتربع القسط على عرشها!

لا محاباة ولا طبقية ولا مجاملة في هذا الدين العظيم الذي يربي في أتباعه رضاعة العزة والكرامة بشيء يقدرون عليه، ومن كسبهم وجِدّهم، لا بشيء آخر لا طاقة لهم به.

وبيان هذا: أن الإنسان لا يحاسَب ولا يُمدح ولا يُذم على ما لا اختيار له فيه – كنَسَبه، ولونه، وجماله، ومكانه، والزمان الذي يعيش فيه، ونحو هذه المعاني – بل يمدح ويذم على قوله وعمله؛ فذاك مِن كَسْبه!

ولا ريب أن النسب الشريف من نعمة الله على العبد إذا اقترن بالتقوى، إلا أنه لم يجعل له الشرع اعتباراً في التفاضل مطلقاً، إلا ما اتصل بنسب النبي ﷺ، فإن الشريعة «علقت بالنسب أحكاماً: ككون الخلافة من

---

(١) مسلم ح(٢٦٩٩).





قريش، وكون ذوي القربى لهم الخمس، وتحريم الصدقة على آل محمد ﷺ ونحو ذلك؛ لأن النسب الفاضل مظنة أن يكون أهله أفضل من غيرهم»[(١)].

ولقد قرّر النبي ﷺ أن كل امرءٍ سيحاسب على عمله لا على نسبه بوسائل عدّة، ورسّخه بعِدة رسائل أرسلها في أوقاتٍ متفاوتة، وبأساليب متنوعة، **من ذلك:**

١- أنه أول ما أُنزلَ عليه: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ قال: «يا معشر قريش! اشترُوا أنفسَكم من اللهِ؛ لا أُغني عنكم من اللهِ شيئاً، يا بني عبدالمطلب! لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبدالمطلب! لا أُغني عنك من الله شيئاً، يا صفية عمّة رسول الله! لا أغني عنك من الله شيئاً، يا فاطمة بنت محمد! سليني ما شئتِ، من مالي لا أغني عنكِ من الله شيئاً»[(٢)].

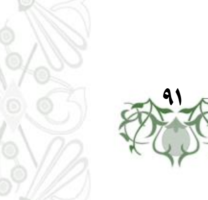
٢- في فتح مكة، أمر النبي ﷺ بلالاً أن يصعد فوق الكعبة ليرفع الأذان، في مشهد ما ظنّ بعض مُسْلِمةِ الفتح أن يعيش ليرى هذا العبد الحبشي يقف كهذا الموقف! ولكنه الإسلام، والهدي النبوي الذي يربي بالفعل والقول.

وليس هذا فحسب، بل إنه في نفس اليوم يدخل ﷺ الكعبةَ ويصلي فيها، ولا يدخل معه سوى أسامة بن زيد – مولاه ابن مولاه – وبلال

---

(١) مجموع الفتاوى (٣٥/ ٢٣١).

(٢) البخاري ح(٤٧٧١)، مسلم ح(٣٤٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وروي أيضاً من حديث ابن عباس رضي الله عنهما في الصحيح.





الحبشي، وعثمان بن طلحة المسئول عن مفتاح الكعبة![1]

إنها رسالة أبلغ من مائة خطبة، إنها رسالة عملية ليعرف الناس في هذا اليوم العظيم ما هي موازين محمد ﷺ في تقييم الناس، ومعرفة منازلهم!

٣- وهو موقف وقع في أعظم مشهد عرفتْه الدنيا في ذلك الوقت!

إنه مشهد حجة الوداع، ففي بعض مشاهد تلك الحجة، وبينما الناس مستعدون للنفير من عرفة، وإذا بالأبصار ترمق الدابة التي كان النبي ﷺ يركبها، ويتساءلون: من الذي سيحظى بشرف إلا الذي سيحظى بشرف الارتداف مع النبي ﷺ؟ فلم يَرُعْهم إلا وأسامة – الغلام الأسود: مولاه وابن مولاه – يركب خلف النبي ﷺ!

فعل هذا ﷺ وهو الذي خطب في ذلك اليوم خطبته العظيمة التي قرّر فيها أصول التوحيد والإسلام، وهدم فيها أصول الشرك والجاهلية، وقال كلمته المشهورة: «إن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمَيّ هاتين موضوع».

إنها الترجمة العملية لقوله ﷺ: «ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى»[2].

وإذا تأملتَ القرآن وجدتَه يصدّق هذه القاعدة النبوية الجليلة: «من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه»، ففي القرآن سورة كاملة في ذمِّ عمّ النبي ﷺ

(١) البخاري ح(٢٨٢٦)، ومسلم ح(١٣٢٩) من حديث ابن عمر.

(٢) أحمد ح(٢٣٥٣٦) وإسناده صحيح.





أبي لهب تتلى إلى يوم القيامة، ويقرأها الصبيان في أول محفوظاتهم، وفي مقابل ذلك، فالصحابي الوحيد الذي ذكر اسمه في القرآن هو زيد بن حارثة، مولاه وحِبه، فأي برهان أعظم من ذلك على تقرير هذه القاعدة!

يقول ابن تيمية: «ولهذا ليس في كتاب الله آية واحدة يمدح فيها أحداً بنسبه، ولا يذم أحداً بنسبه؛ وإنما يمدح بالإيمان والتقوى،ويذم بالكفر والفسوق والعصيان»[1].

وقال أيضاً: «والفضل إنما هو بالأسماء المحمودة في الكتاب والسنة مثل: الإسلام، والإيمان، والبر، والتقوى، والعلم، والعمل الصالح، والإحسان، ونحو ذلك، لا بمجرد كون الإنسان عربياً، أو عجمياً، أو أسود، أو أبيض، ولا بكونه قرويا، أو بدوياً»[2].

ومن الأشياء اللافتة للناظر في تراجم الأئمة الكبار – الذين جاءوا بعد طبقة الصحابة رضوان الله عليهم – أن كثيراً منهم من الموالي، وكم نفع الله بهم من أمم! ولا زال نفعهم ولن يزال إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فظهر بذلك مصداق قوله ﷺ: **«إن الله يرفع بهذا الدين أقواما ويضع به آخرين»**[3].

يقول الزهري – رحمه الله –: قدمت على عبدالملك بن مروان فقال: من أين قدمت يا زهري؟ قلت: من مكة! قال: فمن خلّفت بها يسود أهلها؟

---

(١) مجموع الفتاوى (٣٥/٢٣٠).

(٢) اقتضاء الصراط: (١/ ٤١٥).

(٣) مسلم ح(٨١٧).







قلت: عطاء بن أبي رباح، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قلت: من الموالي. قال: وبم سادهم؟ قلت: بالديانة والرواية! قال: إن أهل الديانة والرواية لينبغي أن يسودوا. قال: فمن يسود أهل اليمن؟ قال قلت: طاوس بن كيسان، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قلت: من الموالي، قال: وبم سادهم؟ قلت: بما سادهم به عطاء! قال: إنه لينبغي، قال: فمن يسود أهل مصر؟ قلت: يزيد بن أبي حبيب، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قلت: من الموالي. قال: فمن يسود أهل الشام؟ قلت: مكحول، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قلت: من الموالي، عبد نوبي أعتقته امرأة من هذيل! قال: فمن يسود أهل الجزيرة؟ قلت: ميمون بن مهران، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قلت: من الموالي! قال: فمن يسود أهل خراسان؟ قلت: الضحاك بن مزاحم، قال: فمن العرب أم الموالي؟ قلت: من الموالي. قال: فمن يسود أهل البصرة؟ قلت: الحسن بن أبي الحسن، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قلت: من الموالي. قال: فمن يسود أهل الكوفة؟ قلت: إبراهيم النخعي، قال: فمن العرب أم الموالي؟ قلت: من العرب.

قال: ويلك يا زهري! فرّجت عني! والله ليسودن الموالي على العرب حتى يخطب لها على المنابر والعرب تحتها! قلت: يا أمير المؤمنين! **هو أمر الله ودينه، من حفظه ساد، ومن ضيّعه سقط**»[١].

وهذا أبو صالح السمّان، المحدث الثقة، ابن ذكوان، كان مولى من

---

(١) تاريخ دمشق (٤٠/٣٩٤).





الموالي، لكن اسمع شهادة أبي هريرة له: ما يضر هذا أن لا يكون من بني عبد مناف!

ويقول الأعمش – تلميذه –: كان أبو صالح مؤذناً، فأبطأ الإمام؛ فأمّنا، فكان لا يكاد يجيزها من الرقة والبكاء![1]

روي أن عمر – رضي الله عنه – قال: «إن العرب شرُفَت برسول الله، ولعل بعضها يلقاه إلى آباء كثيرة، وما بيننا وبين أن نلقاه إلى نسبه ثم لا نفارقه إلى آدم إلا آباء يسيرة، ووالله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال، وجئنا بغير عمل؛ فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة! فلا ينظر رجل إلى قرابة! وليعمل لما عند الله؛ فإن من قصّر به عملُه لم يسرع به نسبُه»[2].

وثمَّة نوع من الأنساب يقع فيه التفاخر من بعض الناس، وهو النسب المعنوي، فمِن الناس مَن قد يفاخر بأن أباه كان عالماً، أو وزيراً، أو أميراً، أو حاكماً، وهو قليل الحظ من الديانة والأخلاق، وماذا يغني عنه ذلك؟! والأجدر بهذا المتفاخر أن يكون عصامياً لا عظامياً، أي: يجتهد أن يكون كعصام الذي سوّد نفسه بنفسه، بسبب علو همته – بعد توفيق الله – ولا يكون عظامياً يفاخر بآباء ماتوا، وعظام بالية:

إذا المرء لم يبن افتخاراً لنفسه ... تضايق عنه ما بنته جدوده



(١) انظر: سير أعلام النبلاء: (٥/ ٣٧).

(٢) تاريخ الأمم والملوك: (٢/ ٥٧٠).





ولله در القائل:

لعمــر الله مــا الإنســان إلا بدينـه	فلا تترك التقوى اتكالاً على النسب
لقـد رفـع الإسـلام سـلمان فـارسٍ	وقد وضـع الشـرك الشـقيُّ أبـا لهـب
فمــا الحســب المــوروث إن در دره	لمحتســـب إلا بـــآخر مكتســـب
إذا الغصـن لم يثمـر وإن كـان شـعبة	من المثمرات اعتده الناس في الحَطَـب

ولسائل أن يقول: «فإن لم يبطئ به العمل، وسارع إلى الخير وسبق إليه، فهل يسرع به النسب؟

فيقال: لا شك أن النسب الشريف من نعم الله على العبد إذا تزين بالتقوى، وإلا فلا أثر له، ولا ينفع صاحبه عند الله – كما سبق –، وفي الصحيح: **«إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»**[1]، وقال: **«خياركم في الإسلام خياركم في الجاهلية إذا فقهوا»**[2]»[3].

يقول ابن تيمية – رحمه الله – موضحاً هذا المعنى:

«وأما نفس القرابة فلم يعلّق بها ثواباً ولا عقاباً، ولا مدح أحداً بمجرد ذلك، وهذا لا ينافي ما ذكرناه من أن بعض الأجناس والقبائل أفضل من بعض، فإن هذا التفضيل معناه كما قال النبي ﷺ: **«الناس مَعَادن كمعادن الذهب والفضة؛ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»**[4]،

---

(١) مسلم ح(٢٢٧٦).

(٢) البخاري ح(٣٣٧٤)واللفظ له، ومسلم ح(٢٣٧٨).

(٣) شرح الأربعين النووية للعثيمين: (١/ ٣٦٦).

(٤) مسلم ح(٢٦٣٨).





فالأرض إذا كان فيها معدن ذهب ومعدن فضة، كان معدن الذهب خيراً؛ لأنه مظنة وجود أفضل الأمرين فيه، فإن قدر أنه تعطل ولم يخرج ذهبا، كان ما يخرج الفضة أفضل منه.

فالعرب في الأجناس وقريش فيهم ثم هاشم في قريش مظنة أن يكون فيهم من الخير أعظم مما يوجد في غيرهم؛ ولهذا كان في بني هاشم النبي ﷺ، الذي لا يماثله أحد في قريش، فضلاً عن وجوده في سائر العرب وغير العرب، وكان في قريش الخلفاء الراشدون وسائر العشرة وغيرهم ممن لا يوجد له نظير في العرب وغير العرب، وكان في العرب من السابقين الأولين من لا يوجد له نظير في سائر الأجناس.

فلا بد أن يوجد في الصنف الأفضل ما لا يوجد مثله في المفضول، وقد يوجد في المفضول ما يكون أفضل من كثير مما يوجد في الفاضل، كما أن الأنبياء الذين ليسوا من العرب أفضل من العرب الذين ليسوا بأنبياء، والمؤمنون المتقون من غير قريش أفضل من القرشيين الذين ليسوا مثلهم في الإيمان والتقوى، وكذلك المؤمنون المتقون من قريش وغيرهم أفضل ممن ليس مثلهم في الإيمان والتقوى من بني هاشم.

فهذا هو الأصل المعتبر في هذا الباب دون من ألغى فضيلة الأنساب مطلقاً، ودون من ظن أن الله تعالى يفضل الإنسان بنَسَبه على من هو مثله في الإيمان والتقوى! فضلاً عمن هو أعظم إيماناً وتقوى، فكلا القولين خطأ، وهما متقابلان، بل الفضيلة بالنسب فضيلة جملة، وفضيلة لأجل المظنة والسبب، والفضيلة بالإيمان والتقوى فضيلة تعيين وتحقيق وغاية؛ فالأول





يفضل به لأنه سبب وعلامة، ولأن الجملة أفضل من جملة تساويها في العدد.

والثاني: يفضل به لأنه الحقيقة والغاية»[1].

اللهم أعزنا بطاعتك، ولا تذلنا بمعصيتك، وارفعنا في الدنيا والآخرة.

خلاصة القاعدة:

- نسب بلا عمل كشجرة بلا ثمر.
- (تَبَّتْ) عُوتب بها نسيب، وبلال أذن فوق الكعبة، حقاً إنه العمل.
- إن ساعدك النسب والعمل فهي نعمة إلى نعمة.
- انتبه: فالسؤال هناك: ما العمل؟ لا ما النسب!



(١) منهاج السنة النبوية: (٤/ ٦٠٣).





القاعدة النبوية الرابعة عشرة:
البِّر حسن الخلق [1]

> الدين كله خُلق! فمن زاد عليك في الخلق: زاد عليك في الدين. (ابن القيم)

هذه القاعدة العظيمة، من القواعد التي جمعت الخير فأوعت؛ فسبحان من ألهم نبيه جوامع الكلم هذه!

فما البر؟!

أصل البر، هو: «التوسع في فعل الخير، يقال: بَرَّ العبدُ ربَّه، أي: توسّع في طاعته، فالبر من اللّه: الثواب، ومن العبد: الطاعة، وقد يستعمل في الصدق وحسن الخلق؛ لأنهما من الخير المتوسع فيه»[2].

والذي يلفت النظر في هذه القاعدة العظيمة: كيف يجمع النبي ﷺ ذاك البر الواسع الأطراف في حسن الخلق؟ والذي يظهر لأول وهلة أنه إنما هو شعبة من شعب البر؟

ولكن عند التأمل: نرى أن حسن الخلق هنا يعم أمرين اثنين يجمعان الدين كله! وهما:

١. حُسْنُ الخُلق مع الله تعالى، ولا يتحقق حسن الخلق معه سبحانه إلا بتحقيق أركان الإسلام والإيمان.

---

(١) مسلم ح(٢٥٥٣).

(٢) تفسير الخازن: (١/ ٢٦٨).







٢. ثم حُسْنُ الخُلق مع خَلق الله تعالى، يدخل في هذا كل مخلوقات الله تعالى، من إنس وجن وحيوان وجماد – كبيوت الله تعالى – .

بهذا نعلم السر الذي جعل النبي ﷺ يجمع البر الواسع في حسن الخلق، ولأن الخُلق إنما سمي خُلقاً؛ لأنه يصير كالخِلقة في صاحبه»[١].

وبهذا يزول عنك – أيها المبارك – ما قد يقع من إشكال في تنوّع عبارات السلف في تفسير حسن الخلق:

يقول عليّ– رضي الله عنه–: «حسن الخلق في ثلاث خصال: اجتناب المحارم، وطلب الحلال، والتّوسعة على العيال»[٢].

ويقول الحسن البصري: «حسن الخلق: الكرم والبذلة والاحتمال»[٣]، وقال مرةً: «حسن الخلق: بسط الوجه، وبذل النّدى، وكفّ الأذى»[٤].

ويقول الإمام أحمد: «حسن الخُلق أن لا تغضب ولا تحتد»[٥]، وقال مرةً: «حسن الخلق: أن تحتمل ما يكون من الناس»[٦]، وقال إسحاق بن راهويه: هو بسط الوجه، وأن لا تغضب»[٧].

---

(١) ينظر: الآداب الشرعية: (٢/٣٠١).
(٢) إحياء علوم الدين: (٣/ ٥٣).
(٣) الإخوان لابن أبي الدنيا (ص: ٢١٢).
(٤) إحياء علوم الدين: (٣/ ٥٢).
(٥) الآداب الشرعية والمنح المرعية(٢/ ٢٠٣)، وفي غذاء الألباب(١/ ٣٦١): لا تغضب ولا تحقد.
(٦) الترغيب والترهيب. لقوام السنة (٢/ ٨٩).
(٧) الآداب الشرعية والمنح المرعية (٢/ ٢٠٣).





وقال ابن المبارك: «حسن الخلق: طلاقة الوجه، وبذل المعروف، وكف الأذى»[1].

وقال ابن رجب: «إنّ حسن الخلق قد يراد به التّخلّق بأخلاق الشّريعة والتّأدّب بآداب الله الّتي أدّب بها عباده في كتابه كما قال لرسوله ﷺ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾»[2].

إن حسن الخلق إذا كان مطلوباً من جميع المسلمين؛ فهو من الدعاة إلى الله تعالى والعلماء أكثر إلحاحاً؛ فهم أصحاب رسالة ودعاة هدى، والفِطَرُ مجبولة على التأثر بالفعل أكثر من القول، ولهذا كان من حكمة الله تعالى أن يكون النبي من قومه، ويبعث بعد عدة عقود من الزمان؛ ليظهر للناس خُلُقه قبل النبوة، فكيف به بعدها!

ألم يكن الصدق والأمانة اللتان عُرف بهما نبينا ﷺ قبل البعثة من أعظم الدواعي لقبول دعوته عند عقلاء الناس؟! بل إن هرقل لما سأل أبا سفيان تلك الأسئلة المشهورة، ومنها: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكر أبو سفيان أنه لم يكن كذلك، فقال هرقل مباشرةً: أعرف

---

(١) غذاء الألباب (١/ ٣٦١).

وفي مختصر منهاج القاصدين: (فصل في فضيلة حسن الخلق وذم سوء الخلق): «وقد زعم بعض من غلبت عليه البطالة فاستثقل الرياضة، أن الأخلاق لا يتصور تغييرها، كما لا يتصور تغيير صورة الظاهر.

والجواب: أنه لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لم يكن للمواعظ والوصايا معنى، وكيف تنكر تغيير الأخلاق ونحن نرى الصيد الوحشي يستأنس، والكلب يعلم ترك الأكل، والفرس تعلم حسن المشي وجودة الانقياد؟! إلا أن بعض الطباع سريعة القبول للصلاح، وبعضها مستصعبة».

(٢) جامع العلوم والحكم: (٢/ ٩٩).





أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله![1]

ولهذا فإن الداعية والعالم حينما ينزل إلى الميدان لا يمثل نفسه في الحقيقة، وإنما يمثل العلم الذي يحمله، فليتق الله في ذلك، وليجاهد نفسه على ما فيه من كزازة، أو خُلق غير حسن، أو سرعة غضب، أو تعالٍ، أو غيرها من الأخلاق التي تنفر عنها الفطر السوية، وينبغي على الداعي والمحتسب في الأمر والنهي أن يعلم أن الغيرة، أو كونه يدعو إلى حق، لا تسوّغ له الفضاضة، ولا القسوة، فقد قال الله لخير نبي معه خير أصحاب: ﴿**وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ**﴾[آل عمران: ١٥٩] فمن الناس بعدهم؟

يقول ابن عقيل معلقاً على الآية السابقة: «شهد الحق له، لولا تخلُّقه للخُلُق الجميل لانفضوا عنك، ولم يقنع بالمعجز في تحصيلهم، فلا تقنع أنت بالعلوم، وتظن أنها كافية في حوش الناس إلى الدين، بل حسن ذلك وجله بالأخلاق الجميلة».[2]

وإذا تأملت في حياة النبي ﷺ وجدتها كلها تجسيداً عملياً لحسن الخلق في جميع أحواله: حرباً وسلماً، فرحاً وحزناً، غنى وفقراً.

وأحدُ الأسرار في هذا الأمر: أن النبي ﷺ نفسه ربط كمال الإيمان بحسن الخلق فقال: «**أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقاً**»[3]، وقال – حينما سئل ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة –: «**تقوى الله وحسن الخلق**»[4]؛

---

(١) البخاري ح(٧)، مسلم ح(١٧٧٣).

(٢) الآداب الشرعية (٢/١٠٩).

(٣) أبو داود ح(٤٦٨٢) ، والترمذي: ح(١١٦٢) وقال: حسن صحيح.

(٤) الترمذي ح(٢٠٠٤) وقال: صحيح غريب، وصححه ابن حبان ح(٤٧٦).





وما ذاك إلا «لأَن تقوى الله يصلح مَا بَين العَبْد وَبَين ربه، وَحسن الخُلق يصلح مَا بَينه وبَين خلقه، فتقوى الله توجب لَهُ محبَّة الله، وحسن الخلق يَدعو الناس إِلى محبّته»[1].

أما ما يقطفه صاحب الخلق الحسن – مع الله ومع الناس – من ثمرات فلا تسَلْ:

-فلقد «ثبت عنه ﷺ أنه قال: «**أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً**»، ومن المعلوم أن أحب خَلْقه إليه المؤمنون، فإذا كان أكملهم إيماناً أحسنهم خلقاً؛ كان أعظمهم محبة له أحسنهم خلقاً، والخُلُق: الدين؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ قال ابن عباس: على دين عظيم، وبذلك فسّره سفيانُ بن عيينة وأحمدُ بن حنبل وغيرُهما».[2]

-إن بحسن الخلُق يدرك المؤمن درجة الصائم والقائم، وصاحبه أحب الناس إلى الله، وأقربهم من النبيين مجلساً، وحسن الخلق هو أثقل ما يوضع في الميزان.

رُئي بعض السلف في المنام؛ فسئل عن بعض إخوانه الصالحين، فقال: وأين ذلك!! رُفع في الجنة بحُسن خلقه.[3]

يقول الماوردي: «إذا حسنت أخلاق الإنسان كثر مصافوه، وقلّ

(١) الفوائد لابن القيم ص(٥٤).

(٢) الاستقامة: (١/ ٤٤٣).

(٣) اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى: (ص٨٤).





معادوه؛ فتسهّلت عليه الأمور الصّعاب، ولانت له القلوب الغضاب»[1] وإذا نظرت في الواقع وجدتَ صدق ذلك.

وههنا سؤال يطرح نفسه: كيف أُحصّل حسن الخلق هذا؟ فيقال:

«حسن الخلق تارة يحصل بكمال الفطرة منحة من الخالق، فكم من صبي يخلق صادقاً سخياً حليماً، **وتارة يحصل بالاكتساب**، وذلك بالرياضة – وهي حمل النفس على الأعمال الجالبة للخلق المطلوب –، فمن أراد تحصيل خُلُق الجود فليتكلف فعل الجود من البذل؛ ليصير ذلك طبعاً له، إلا أنه لا ينبغي أن يطلب تأثير ذلك في يومين أو ثلاثة! وإنما يؤثر مع الدوام، كما لا يطلب في النمو علو القامة في يومين أو ثلاثة، وللدوام تأثير عظيم»[2].

ثم يقول ﷺ : «والإثم: ما حاك في نفسك، وكرهت أن يطلع عليه الناس» وسبحان الله! ما أشد توافق الوحيين قرآناً وسنة؟ فأنت حين تقرأ هذه الجملة؛ تشعر وكأنها تفسير عملي وتطبيقي لقوله سبحانه: ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [القيامة: ١٤].

وما أشد حاجتنا إلى التأمل في هذه الجملة النبوية، التي تعطي الإنسان دليلاً لا يطّلع عليه غيره من الناس، وهي متوجهة فيما لا نصّ فيه واضح، أما ما فيه نص بيّن فلا خيار للعبد في الالتزام به، وإنما تتنزل هذه الوصية النبوية على حالٍ ترِد فيها بعض المسائل الشرعية على العبد، ويبحث فيها –

---

(١) أدب الدنيا والدين (ص: ٢٤٣).

(٢) مختصر منهاج القاصدين: (١٢٢).





إن كان من أهل البحث – أو يسمع من أهل العلم فيها خلافاً، ثم لا تطمئن نفسه لقولٍ من تلك الأقوال، بينما تنشرح نفسه للقول الآخر، فهنا يقال له ما أرشد إليه النبي ﷺ في قوله: «**والإثم ما حاك في نفسك، وكرهت أن يطّلع عليه الناس**»، فانظر: هل في صدرك حرجٌ من ذلك؟ أو أنك حين تفعله تكره أن يطلع الناس عليه، إذن فدعه واسترح، فإن دِينَك غالٍ وعزيز، واعلم أن «عذاب الوجدان، أو وخز الضمير وتأنيبه؛ هو الذكرى التي تعِضُ القلب ولا تفارقه ليل نهار»[1].

وأختم حديثي في هذه القاعدة النبوية: بأن أنبه إلى أن من أهل الفسق والفجور من أصبحت «الآثام لا تحيك بنفوسهم، ولا يكرهون أن يطلع عليها الناس، بل بعضهم يتبجح! ويُخبر بما يصنع من الفجور والفسق! فالتوجيه في هذا الحديث لا يتوجه إلى مثل هؤلاء! ولكن الكلام مع الرجل المستقيم؛ فإنه إذا همّ بسيئة حاك ذلك في نفسه، وكره أن يطّلع الناس على ذلك، وهذا الميزان الذي ذكره النبي عليه الصلاة والسلام إنما يكون مع أهل الخير والصلاح»[2].

اللهم اهدنا لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عنا سيئها لا يصرف عنا سيئها إلا أنت، واجعل هوانا تبعاً لما جاء به نبيك ﷺ.

(١) ينظر: علم الأخلاق الإسلامية: (ص٢٨٠) مقداد يالجن محمد علي.

(٢) الأربعون النووية بتعليقات الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: (ص٤٨).







خلاصة القاعدة:

- حسِّن خُلقك تكن من أبر الناس.
- حُسن الخلق ستر سابغ لمن لا ستر له.
- من اعتاد الآثام انتكست فطرته.







القاعدة النبوية الخامسة عشرة:

إنما الناس كالإبل المائة

> إن البلوى في معاشرة أهل زمانك عظيمة! فاستعن بها على ما يلقاك من أذاهم فإنك لا تخلو من قليلِه وإن سلمتَ من كثيرِه. (الخطابي)

هذه قاعدة من القواعد النبوية المحكمة التي دلّ عليها قول النبي ﷺ: «إنما الناس كالإبل المائة، لا تكاد تجد فيها راحلة»[1].

والمعنى: أن المتميز ومن يصلح للقيادة والتأثير نادر في الناس مع كثرة عددهم، ومع كثرة من يدعي ذلك أيضاً، وهذا كحال الإبل في كثرتها، ومع ذلك فالنجائب والرواحل فيهن قلائل.

وأنت تلحظ هذه البلاغة العجيبة، والاختصار المذهل لهذا المعنى العظيم، في هذه العبارات القليلة، ولا غرو! فهو ﷺ أفصح من تكلم بالضاد.

ومن وجوه الإعجاز البلاغي في هذه القاعدة: أنها ربطت المعنى بأمرٍ خفي؛ لأن انتقال الذهن من معنى الإبل إلى الناس إنما يكون باعتبار المعنى المشهور في الإبل، وهو: كثرة الأكل، وقلة الفهم، مع كِبَر الأعضاء وطولها،

---

(١) البخاري ح(٦١٣٣) واللفظ له، مسلم ح(٢٥٤٧).





أو هو الصبر والجَلَد على العمل، أما عزة وجود الكامل، مع كثرة أفراد جنسه فهو معنى بعيدٌ عن الخاطر؛ مما يستدعي تأملاً ونظراً في هذا المعنى العميق، وهو – أيضاً – مما تعرفه العرب من حياتها العامة، إذ كانت الإبل أكثر وسائل التنقل استعمالاً في ذلك الوقت، وإلى وقت قريب.(١)

ومن تأمل القرآن الكريم؛ وجد آيات عديدة تؤكد هذا المعنى العام، ففي عشرات الآيات نجد الحديث عن أكثرية الضالين، وأكثرية الذين لا يُعْمِلون عقولهم فيما ينفعهم، وقلة الشاكرين، فتأمل هذه الآيات: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام: ١١٦]، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٧]، ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣]، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

ومن تأمل قصة طالوت مع قومه؛ ظهر له هذا المعنى الذي دلّت عليه هذه القاعدة النبوية: «الناس كإبل مائة»، ووجه الدلالة من قصة طالوت ظاهرة: فإن الله تعالى لما بعثه ملِكاً على أولئك الملأ من بني إسرائيل، حصل منهم ما حصل في أحقيته بالملك – مع أنهم هم الذين طلبوا من نبيهم أن يبعث لهم ملكاً ليقاتلوا في سبيل الله – فلما استقر الأمر لطالوت، قال لهم – في أول اختبار يفحص به حال قومه، فتأمل كيف بدأ التخاذل المبكر منهم –: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ

(١) ينظر: المنهاج الواضح للبلاغة (٣/ ٣٢٣).





مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، مع أنهم قبل ذلك كانوا قد رسبوا في اختبارٍ قبله، وهو الذي قصّه الله علينا بقوله: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ ﴾ [البقرة: ٢٤٦]، وهكذا تتفق شواهد الوحي على هذه القاعد النبوية المحكمة: «الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة».

وهذه القاعدة النبوية الكريمة مشتملة على: **خبر صادق، وإرشاد نافع.**

«**أما الخبر**: فإنه ﷺ أخبر، أن النقص شامل لأكثر الناس، وأن الكامل -أو مقارب الكمال- فيهم قليل، كالإبل المائة، تستكثرها، فإذا أردت منها راحلة تصلح للحمل والركوب، والذهاب والإياب؛ لم تكد تجدها! وهكذا: الناس كثير، فإذا أردتَ أن تنتخب منهم من يصلح للتعليم أو الفتوى أو الإمامة، أو الولايات الكبار أو الصغار، أو للوظائف المهمة؛ لم تكد تجد من يقوم بتلك الوظيفة قياماً صالحاً، وهذا هو الواقع؛ فإن الإنسان ظلوم جهول،





والظلم والجهل سبب للنقائص، وهي مانعة من الكمال والتكميل»[(١)].

«قال أبو الدرداء: «وجدت الناسَ: أُخْبُرْ تَقْلِه» أي: إذا خبرتَ الناس بدا لك من أكثرهم ما لا ترضى منهم حتى تقليهم»[(٢)].

كما قال القائل:

ولم أر أمثـال الرجـال تفاوتـت لدى المجد حتى عُد ألفٌ بواحد

وقالت الحكماء: الكرام في اللئام كالغُرة في الفرس.

«**وأما الإرشاد:** فإن مضمون هذا الخبر إرشاد منه ﷺ إلى أنه ينبغي لمجموع الأمة أن يسعوا، ويجتهدوا في تأهيل الرجال الذين يصلحون للقيام بالمهمات، والأمور الكلية العامة النفع.

وقد أرشد الله إلى هذا المعنى في قوله: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة:١٢٢] فأمر بالجهاد، وأن يقوم به طائفة كافية، وأن يتصدى للعلم طائفة أخرى؛ ليعين هؤلاء هؤلاء، وهؤلاء هؤلاء، وأمْرُه تعالى بالولايات والتولية أمرٌ بها وبما لا تتم إلا به؛ من الشروط والمكملات.

فالوظائف الدينية والدنيوية، والأعمال الكلية، لابد للناس منها، ولا تتم مصلحتهم إلا بها، وهي لا تتم إلا بأن يتولاها الأكفاء والأمناء، وذلك يستدعي السعي في تحصيل هذه الأوصاف، بحسب الاستطاعة، قال الله

---

(١) بهجة قلوب الأبرار: (ص٢١٩).

(٢) الزهد والرقائق لابن المبارك والزهد لنعيم بن حماد (١٨٥). وهذا التفسير حكي عن بقية.





تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن:١٦]»[١].

قال القرطبي: «الذي يناسب التمثيل: أن الرجل الجواد الذي يحمل أثقال الناس والحمالات عنهم، ويكشف كربهم؛ عزيز الوجود، كالراحلة في الإبل الكثيرة»[٢].

ثم هاهنا وقفات عدة:

الوقفة الأولى: أن على الدعاة والمربين الاعتناء بالعناصر الفاعلة المتميزة؛ إذ هم قليل في الناس، عزيزٌ وجودهم، وأثر استجابتهم للدعوة لا يقاس بأثر غيرهم، ويشهد لذلك ما رواه الترمذي مرفوعاً: «اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك: بأبي جهل، أو بعمر بن الخطاب»[٣].

وقد كان السلف يُعنَوْن بأمثال هؤلاء؛ ومن صور هذه العناية: ما حكاه عبدالوهاب بن نجدة الحوطي، قال: سمعت إسماعيل بن عياش يقول: كان ابن أبي حسين المكي يدنيني، فقال له أصحاب الحديث: نراك تقدم هذا الغلام الشامي وتُؤْثِرُه علينا؟ فقال: إني أؤمِّله.

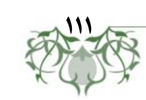
فسألوه يوماً عن حديث حدّث به عن شهر: إذا جمع الطعامُ أربعاً فقد كَمُل، فذكر ثلاثاً ونسي الرابعة، فسألني عن ذلك، فقال لي: كيف حدثتكم؟

---

(١) بهجة قلوب الأبرار: (ص٢١٩).

(٢) انظر: فتح الباري: (١١/ ٣٣٥).

(٣) الترمذي ح(٣٦٨١)، وأحمد ح(٥٦٩٦)، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث ابن عمر»، وصححه ابن حبان، وحسنه الزركشي في «التذكرة»: (ص: ١٧٦). والذي يظهر لي أن في سنده غرابة – كما قال الترمذي –؛ لأنه من حديث خارجة بن عبدالله الأنصاري، وهو صدوق له أوهام، ولم أقف على من تابعه عن نافع، والله أعلم.





فقلت: حدثتنا عن شهر أنه إذا جمع الطعام أربعاً فقد كمل: إذا كان أوله حلالاً، وسُمِّيَ عليه الله حين يوضع، وكثُرت عليه الأيدي، وحُمِدَ الله حين يُرفَع.

فأقبل على القوم فقال: كيف ترون؟[(١)]

ومن ذلك: عناية أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بابن عباس – رضي الله عنهم جميعاً – فقد كان يُحضِره مجالس الكبار؛ ليفيد من عقولهم، ويسمع منهم، حتى إنه نوقش في ذلك، وكيف يدخله عمر مع البدريين! فعرض عليهم سؤالاً يتعلق بتأويل سورة النصر في القصة المشهورة.

وهذا ما يعرف اليوم بإعداد القادة والمؤثرين، وهذه سنة معروفة في سِيَر المربين والعلماء.

وفي هذا المقام تذكر القصة المشهورة التي رواها ابن سعد، والحاكم في المستدرك وغيرهما؛ أن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه قال لأصحابه: تمنوا! فقال بعضهم: أتمنى لو أن هذه الدار مملوءةً ذهباً أنفقه في سبيل الله، وأتصدق، وقال رجل: أتمنى لو أنها مملوءة زبرجداً و جوهراً فأنفقه في سبيل الله وأتصدق، ثم قال عمر: تمنوا! فقالوا: ما ندري يا أمير المؤمنين! فقال عمر: أتمنى لو أنها مملوءة رجالاً مثل أبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وسالم مولى أبي حذيفة، وحذيفة بن اليمان.[(٢)]

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر: (٧١/ ٣٠٣).

(٢) الطبقات: (٣/٤١٣)، المستدرك: (٣/ ٢٥٢).





الوقفة الثانية: حين يدرك الداعية والمربي هذا المعنى يدعوه ذلك لأن يكون واقعياً فيما يطلبه من الناس وينتظره منهم؛ فالناس لن يكونوا كلهم رواحل، ولا يسوغ أن نرسم صورة مثالية وننتظر من الناس جميعاً أن يصلوا إليها.

الوقفة الثالثة: حين نرى صورة واقعية من أحد من الناس؛ فلا يسوغ أن نتخذها نموذجاً نقارن الآخرين به، وننتظر منهم أن يصلوا إلى ما يصل إليه.

ومن الصور الشائعة في ذلك: ما يصنعه بعض الآباء مع أبنائه، أو بعض المعلمين مع طلابه، حين يعجب بأحدهم فينتظر من الآخرين أن يكونوا مثله، وأن يصلوا إلى ما وصل إليه.

الوقفة الرابعة: ليس معيار الاختلاف بين الناس قاصراً على القدرات العقلية والذهنية وحدها؛ فهم يتفاوتون في تحملهم للأعباء، وفي جديتهم، وفي تضخيمهم للمخاطر، وفي قدراتهم النفسية...إلى آخر هذه العوامل، وهي كلها مما لا بد من أخذه في الاعتبار.

الوقفة الخامسة: إدراك هذا المعنى يجعل المسلم عالي الهمة، متطلعاً للمزيد، ينظر في العلم والصلاح إلى من هو فوقه، ولا ينظر إلى من هو دونه.[1]

---

(١) ينظر مقال في مجلة البيان عدد: (١٥١) ص:(٢٨) بعنوان: تأملات دعوية. د.محمد الدويش.





خلاصة القاعدة:

- ما تكرهه في غيرك حاول أن تتجنبه.
- لا تعش عالم المثاليات!
- لا تكاد تجد فيها راحلة؛ فلا تطلب المستحيل.







القاعدة النبوية السادسة عشرة:

الظلم ظلمات يوم القيامة[1]

ظلم العبد نفسه من الظلم؛ فإن للسيئة ظلمة في القلب، وسواداً في الوجه، ووَهَنا في البدن، ونقصاً في الرزق، وبغضاً في قلوب الخلق. كما روي عن ابن عباس. [ابن تيمية]

يا له من ردع رهيب، وزجر مخيف؛ عن هذه الشعبة المقيتة من شعب الطغيان: الظلم!

إنه الداء الذي أبدى القرآن فيه وأعاد، حتى كرره في مئات المواضع، وما ذاك إلا لعظيم أثره، وقبيح عاقبته!

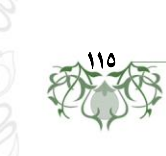
إن «وضع الشيء في غير موضعه» هو المعنى الجامع لهذا المعنى الذي دلّت عليه هذه القاعدة النبوية، فيدخل تحت هذا المعنى ما شاء الله من الصور والمعاني.

وهو معنى اتفقت الشرائع والفِطَر على مقته وخسّته، لا مع بني الإنسان فحسب بل حتى مع الحيوان.

لنتأمل هذه القصة التي حدّث بها النبي ﷺ، ففي الصحيحين من

---

(١) البخاري ح(٢٤٤٧)، مسلم ح(٢٥٧٩).





حديث ابن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «**عُذّبت امرأةٌ في هرة حبستها حتى ماتت جوعاً، فدخلت فيها النار**» قال: فقال والله أعلم: «**لا أنتِ أطعمتِيها ولا سقيتِيها حين حبستيها، ولا أنتِ أرسلتِيها فأكلتْ من خشاش الأرض**»!(١)

أي عظمة هذه! امرأة مكلّفة تدخل النار المحرقة بسبب ظلم هرةٍ صغيرة؟! نعم! هذا هو الدين العظيم الذي كفل حقوق الحيوانات، فضلاً عن الآدمي.

وإن القارئ والسامع لهذا الحديث وأمثاله ليتساءل: إذا كان هذا الوعيد على من ظلَم حيواناً، فكيف سيكون الوعيد على من ظلم إنساناً، وخاصةً إذا كان أخاه المسلم، أو من تربطه به علاقة خاصة!

إن المتابع والسامع، أو من يبتلى بأسئلة الناس؛ ليوقن عظيم غفلة كثيرٍ من الناس عن خطورة الظلم، وعن سوء عاقبة صاحبه في الدنيا قبل الآخرة.

كم من الأيتام الذين أُكلتْ أموالهُم ظلماً مع شدة الوعيد الوارد في حق أكل أموالهم بغير حق، وكأن الآكل الظالم لم يسمع بهذا الوعيد الذي تهتز له الجبال الصم: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ١٠**﴾ [النساء:١٠]!

كم امتلأتْ أدراجُ المحاكم بمعاملات تتعلق بالسطو على الأراضي! وكأن هؤلاء لم يسمعوا قولَه ﷺ – كما في الصحيحين من حديث سعيد بن

---

(١) البخاري ح(٢٢٣٦)، مسلم ح(٢٢٤٢).





زيد رضي الله عنهما –: «**من أخذ شبراً من الأرض ظلماً؛ فإنه يطوقه يوم القيامة من سبع أرضين**»؟![1] هذه عقوبة مَن أخذ شبراً فقط، فما الظن بمن يسطو على ما هو أكثر من ذلك؟!

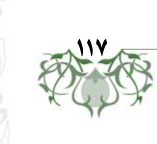
إن هذه القاعدة النبوية الجليلة لا تستثني أحداً من الناس، ويعظم الوعيد ويشتد على من استغل قوتَه أو مكانتَه أو سلطتَه في ظلم العباد، وانظر كيف كانت نهاية فرعون حين تجبر وطغى ﴿**فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ**﴾ [يونس: ٣٩].

ولمّا ذكر اللهُ قصةَ ثمود وما حلّ بهم قال تعالى: ﴿**فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٥٢**﴾ [النمل: ٥٢]، فظلم العباد من أسرع موجبات الهلاك والخراب للأمم والمجتمعات، وفي التاريخ عبرة.

إن من الظلمة من يغتر بإمهال الله له، فيأكل أَموَال النَّاس، ويَأخذهَا ظلماً، أو يظلم النَّاس بِالضَّرْبِ والشتم والتعدي، والاستطالة على الضُّعَفَاء، ولكن ليعلم كل ظالم أن له يوماً لا يُخلف، قال تعالى: ﴿**وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ٤٢**﴾ [إبراهيم: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿**وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ**﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، وقال تعالى: ﴿**وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ١١٣**﴾ [هود: ١١٣].

---

(١) البخاري ح(٣٠٢٦)، مسلم ح(١٦١٠).





«**والظلم يشتمل على معصيتين:** أخذُ مال الغير بغير حق، ومبارزةُ الرب بالمخالفة، والمعصية فيه أشد من غيرها؛ لأنه لا يقع غالباً إلا بالضعيف الذي لا يقدر على الانتصار، وإنما ينشأ الظلم عن ظلمة القلب؛ لأنه لو استنار بنور الهدى لاعتبر، فإذا سعى المتقون بنورهم الذي حصل لهم بسبب التقوى؛ اكتنفت ظلماتُ الظلم الظالمَ، حيث لا يغني عنه ظلمُه شيئاً»[1].

وأعظم الظلم الذي يقترفه العبد: ظلم نفسه بالشِّرْك، «كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] فإنَّ المشركَ جعل المخلوقَ في منزلةِ الخالق، فعبده وتألَّهه، فوضع الأشياءَ في غيرِ موضعها، وأكثر ما ذُكِرَ في القرآن مِنْ وعيد الظالمين إنَّما أُريد به المشركون، كما قال الله عز وجل: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، ثمَّ يليه المعاصي على اختلاف أجناسها – من كبائرَ وصغائرَ –.

ويلي هذه المنزلة في الظلم: ظلمُ العبدِ لغيره، وهو المذكورُ في هذا الحديث، وقد قال النبي ﷺ في خطبته في حجة الوداع: «إنَّ دماءكم وأموالَكُم وأعراضَكُم عليكُم حرامٌ، كحرمةِ يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا»[2].

ألا إن من أعظم ما يوعظ به الظالِمُ تذكيرُه بالله، وبعظيم قدرته عليه، ولهذا يؤثر عن معاوية ﷺ أنه قال: أخوف ما أخاف من رجل لا يجد له ناصراً إلا الله!!

---

(١) فتح الباري: (٥/ ١٠٠).

(٢) جامع العلوم والحكم (ص: ٢٢٤).





قال دهقان لأسد بن عبدالله – وهو على خراسان، ومر به وهو يدهق في حبسه[1] –: إن كنتَ تعطي لترحم؛ فارحم من تظلم، إن السموات تنفرج لدعوة المظلوم! فاحذر من ليس له ناصر إلا الله، ولا جنة له إلا الثقة بنزول التغير، ولا سلاح له إلا الابتهال إلى من لا يعجزه شيء، يا أسد! إن البغي يصرع أهلَه، والبغي مصرعه وخيم، فلا تغتر بإبطاء الغياث مِن ناصرٍ متى شاء أن يغيث أغاث، وقد أملى لقومٍ كي يزدادوا إثماً.[2]

ودخل رجلٌ على سليمان بن عبدالملك فقال: اذكر يا أمير المؤمنين يوم الأذان! فقال: وما يوم الأذان؟ قال: اليوم الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ **فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ** ﴾ فبكى سليمان وأزال ظلامته.[3]

إن الظلم لا يكاد يسلم منه أحدٌ منا! فمِنّا المسترسل معه، ومنا المجاهد نفسه على تركه؛ ذلك أن الله تعالى وصف هذا الإنسان بأنه: ظلوم جهول، لكن السؤال: **ما الموقف الشرعي الذي يقفه المسلم من أخيه الظالم؟** لقد أجاب النبي ﷺ عن ذلك بأبلغ كلام وأوجز عبارة فقال: «**انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً!**» فقال رجل: يا رسول الله! أَنصُرُه إذا كان مظلوماً، أفرأيت إذا كان ظالماً كيف أنصره؟ قال: «**تحجزه أو تمنعه من الظلم، فإن ذلك نصره**»[4].

---

(١) قال أبو عمرو: الدَهَقُ بالتحريك: ضربٌ من العَذاب وهو بالفارسية أَشْكَنْجَهْ.[الصحاح م(دهق)].

(٢) ذم البغي: (١/ ٤٠).

(٣) محاضرات الأدباء: (١/ ٢٦٩).

(٤) البخاري ح(٦٩٥٢).






«ومعناه: أنه إذا نهاه ووعظه فقد نصره على شيطانه ونفسه الإمارة بالسوء، حتى غلب ذلك»[1].

ومِن معانيه ما أشار له البيهقي فقال: «أن **الظالم مظلوم في نفسه**، فيدخل فيه ردع المرء عن ظلمه لنفسه حساً ومعنى، فلو رأى إنساناً يريد أن يَجُبّ نفسَه لِظَنه أن ذلك يزيل مفسدة طلبه الزنا مثلاً! منعه من ذلك وكان ذلك نصراً له»[2].

ومما يجلي معنى هذا الحديث أكثر أن يقال: إنك إذا «تركتَه على ظلمه، ولم تكفّه عنه أذاه ذلك إلى أن يُقتص منه؛ فمنعك له مما يوجب عليه القصاص نصرُه، وهذا يدل من باب الحكم للشيء وتسميته بما يئول إليه، وهو من عجيب الفصاحة، ووجيز البلاغة»[3].

ومن لطائف هذا الحديث أن فيه إشعاراً بالحث على محافظة الصديق والاهتمام بشأنه، ومِن ثم قيل: حافظ على الصديق ولو على الحريق.[4]

«فلا يجوز ترك مسلمٍ يكافح وحده في معترك، بل لابد من الوقوف بجانبه على أي حال؛ لإرشاده إن ضل، وحجزه إن تطاول، والدفاع عنه إن هوجم، والقتال معه إذا استبيح، وذلك معنى التناصر الذي فرضه الإسلام»[5].

---

(١) مشارق الأنوار على صحاح الآثار: (١/ ٣٢٩).

(٢) فتح الباري: (٥/ ٩٨).

(٣) شرح صحيح البخاري لابن بطال: (٦/ ٥٧٢).

(٤) ينظر: فيض القدير: (٣/ ٧٦).

(٥) خلق المسلم: (ص١٤١).





فإياك إياك – أخي – أن تظلم من لا يجد له نصيراً عليك إلا الله؛ فإن المظلوم إذا التجأ إلى ربه بصدق واضطرار انتصر له، كما قال سبحانه: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ [النمل: ٦٢].

إن نور العدل شمس تضيء لأصحابها دروب الحياة، ولا يفارقهم نورُها حتى يبهر أبصارَهم نورُ الجنة التي إليها سيُساق العادلون!

العادلون في أقوالهم، وأفعالهم، وتفكيرهم، وأحكامهم، ومعاملتهم مع الكبير والصغير، والقريب والبعيد، المنصفون الناسَ حتى من أنفسهم، إنهم – بعدلهم هذا – على نور يمشون به بين الناس.

وأما الظالمون فهم في ظلمات لا يبصرون غير أنفسهم، ولا يحسون إلا بمصالحهم، ولا يشعرون إلا بذواتهم.[١]

ومضة ذهبية:

«يا راضياً باسم الظالم كم عليك من المظالم! السجن جهنم والحق الحاكم! ولا حجة لك فيما تخاصم! القبر مهول، فتذكر حبسك، والحساب طويل فخلص نفسك، والعمر كيوم فبادر شمسك، تفرح بمالك والكسب خبيث! وتمرح بآمالك والسير حثيث! إن الظلم لا يُترك منه قدر أنملة، فإذا رأيت ظالماً قد سطا فنم له؛ فربما بات فأخَذَت جنبَه من الليل نملة – أي قروح في الجسد»[٢].

---

(١) جاء في لباب الآداب لأسامة بن منقذ (ص٣١١): «قلت: هذا فصل يتعين اتّساع القول فيه لحاجة الناس إلى الكفّ عن الظلم، غير أنّني قد أوردت في كتابي المترجم بكتاب (ردع الظّالم وردّ المظالم) منه ما غنيت به عن الإطالة في إيراده في كتابي هذا».

(٢) الكبائر الذهبي: (ص٧٢).





اللهم أجرنا من الظلم والظالمين، واجعلنا بالعدل وعلى العدل قائمين، وأنر لنا الطريق إلى جنات النعيم.

خلاصة القاعدة:

- ظلمات الدنيا قد تجد لها نوراً، لكن ما بال ظلمات القيامة!
- الظلم فاتورة باهظة الثمن، والعجيب أنها تسدد مرتين في الدنيا وفي الآخرة!
- إذا كان مصير ظالم الحيوان النار، فما بالك بظالم الإنسان!







القاعدة النبوية السابعة عشرة:
وأتبع السيئة الحسنة تمحها[1]

> إن الطبيب متى تناول المريضُ شيئاً مضراً أمره بما يصلحه، وكذا العبد الكيّس مع الذنب. (ابن تيمية).

هذه قاعدة من قواعد تهذيب النفس، وتربيتها على المجاهدة، والرقي في مدارج العبودية، وإنك لتتنسم الرحمة من بين أحرف هذه القاعدة النبوية، فهي تصب شآبيب الرجاء والطمع في رحمة الله الرحيم في قلوب المذنبين الخطائين – وكلنا ذاك الرجل –.

إن هذه القاعدة إنما هي أثرٌ من آثار سبْقِ رحمةِ الله لغضبه: «**إن رحمتي سبقت غضبي**»[2] وأثرٌ من آثار سعة رحمته: ﴿ **وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ** ﴾[الأعراف: ١٥٦]، وهي في الوقت ذاته بوابة أملٍ لكل من يخطئ أو يذنب، ومن ذا الذي ليس كذلك؟!

إن هذه القاعدة النبوية، جاءت ضمن وصية من ثلاث وصايا، أوصى

---

(١) الترمذي ح(١٩٨٧) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) البخاري ح(٦٩٨٦) واللفظ له، مسلم ح(٢٧٥١).







بها النبي ﷺ صاحبَه الجليل أبا ذر رضي الله عنه حين قال له: «**اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن**»[1].

وتأمل في حكمةِ من أوتي جوامع الكلم – عليه الصلاة والسلام – كيف عقّب الوصية بالتقوى بقوله: «**وأتبع السيئة الحسنة تمحها**»! ذلك أن العبد لما كان مأموراً بالتقوى في السر والعلن، مع أنه لابد أن يقع منه أحياناً تفريط في التقوى – إما بترك بعض المأمورات، أو بارتكاب بعض المحظورات – أمره أن يفعل ما يمحو به هذه السيئة؛ وهو أن يتبعها بالحسنة.[2]

ومن عجيب الموافقات: أن هذا الحديث بوصاياه الثلاث وقع معناه في ثلاث آيات متتابعات؛ فتأملها أيها المسلم في قول الله تعالى: ﴿**وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣**﴾ فهذه توافق الوصية الأولى: «**اتق الله حيثما كنت**»، ثم قال تعالى: ﴿**ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤**﴾ هذه أخلاق! فهي توافق الوصية الثالثة: «**وخالق الناس بخلق حسن**»، ثم قال تعالى: ﴿**وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥**﴾ وهذه توافق الوصية الثانية – وهي قاعدتنا التي نحن بصدد الحديث عنها –: «**وأتبع السيئة الحسنة تمحها**»!

---

(١) الترمذي ح(١٩٨٧)قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) ينظر: جامع العلوم والحكم: (١/ ٤١١).





ومن الموافقات بين الوحيين – أيضاً – أن هذه القاعدة الجليلة أتت موافقة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

إذا تبين هذا؛ فحقٌّ على الناصح لنفسه أن يحرص – إذا أخطأ أو قصّر – أن يبادر إلى حسنة تمحو السيئة التي قبلها، وأن يفتش – ما استطاع – في الأعمال التي تمحو سيئاته؛ فإن الحديث عامٌ في جميع الذنوب – صغيرها وكبيرها – ولقد علّم النبي ﷺ أمتَه ذلك في **نماذج تطبيقية**، يستطيع الموفّق أن يقيس عليها، ومن ذلك:

– ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «**من حلف منكم فقال في حلفه: باللات والعزى، فليقل: لا إله إلا الله، ومن قال لصاحبه: تعال أقامرك، فليتصدق**»[(١)].

وهذا في الحقيقة مخرجٌ سديدٌ لمن اعتادت ألسنتهم أن يتلفظوا بألفاظ بدعية أو شركية، ويحتاجون مجاهدة للتخلص منها؛ كمن يحلف بغير الله، كالذي يقول: والنبي، أو: وحياتك، ونحوها من الألفاظ الشركية؛ فليقل بعدها مباشرة: لا إله إلا الله، لأن الشرك سيئةٌ لا يمحوها إلا حسنة التوحيد.

ومثله من تعوّد الدعوة إلى القمار؛ فليتصدق ولو بشيءٍ يسير؛ لتعتاد نفسه الطاعة، وتنفر عن المعصية[(٢)].

ومثل ذلك – أيضاً –: من اعتاد لسانه اللعن، أو بذيء الكلام؛ فليقل

---

(١) البخاري ح(٥٧٥٦)، مسلم ح(١٦٤٧).

(٢) والصحيح أن الصدقة ليست بالضرورة أن تكون بالمال الذي أراد القمار به، بل بأي شيء من المال. ينظر: فتح الباري لابن حجر (٨ / ٦١٢).





بعده ما يضاده، فمن لعن أخاه، فليدْعُ له بالرحمة، وليستغفر؛ امتثالاً لهذه القاعدة النبوية الشريفة: «وأتبع الحسنة السيئة يمحها»، ولأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤].

ولعلنا هنا، نذكّر ببعض ما ورد في النصوص الشرعية مما هو ماحٍ ومكفِّرٌ للذنوب التي لا يكاد يسلم منها أحد، ولنبدأ بهذه القصة:

١- ففي الصحيحين من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله! إني عالجت امرأة في أقصى المدينة، وإني أصبت منها ما دون أن أمسها، فأنا هذا، فاقض في ما شئت! فقال له عمر: لقد سترك الله، لو سترت نفسك! قال: فلم يرد النبي ﷺ شيئاً، فقام الرجل فانطلق، فأتبعه النبي ﷺ رجلاً دعاه، وتلا عليه هذه الآية: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [هود: ١١٤] فقال رجل من القوم: يا نبي الله! هذا له خاصة؟ قال: «بل للناس كافة»[1].

إذن: الصلوات الخمس - ومن بينها الجمعة - من أعظم الحسنات الماحيات للذنوب - كما وردت بذلك الآثار - لاسيما إن أقيمت بشروطها وأركانها وواجباتها، وقد دلّت السنة على أن ذلك مختص بالصغائر دون الكبائر؛ ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «الصلاة

---

(١) البخاري ح(٥٠٣)، ومسلم ح(٢٧٦٣).





الخمس، والجمعة إلى الجمعة، كفارة لما بينهن، ما لم تغش الكبائر»[1].

٢- **ومن الحسنات العظام التي تمحو الذنوب: الحج المبرور**؛ ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من حج هذا البيت، فلم يرفث، ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»[2]، ولما أراد عمرو بن العاص رضي الله عنه أن يُسْلم، أراد أن يشترط مغفرة ذنوبه، فبشره النبي ﷺ قائلاً: «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله؟ وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها؟ وأن الحج يهدم ما كان قبله؟»[3].

٣- والحسنة الجامعة التي تمحو جميع الذنوب: هي التوبة؛ كما سبق في حديث عمرو بن العاص، وكما دلّت على ذلك نصوص كثيرة، منها:

قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ۝٥٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ۝٦٠﴾ [مريم: ٥٩، ٦٠]، ومنها: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ۝٦٨ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ۝٦٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٧٠﴾ [الفرقان: ٦٨ – ٧٠].

---

(١) مسلم ح(٢٣٣).

(٢) البخاري ح(١٧٢٣)، مسلم ح(١٣٥٠).

(٣) مسلم ح(١٢١).






لكن ما حقيقة هذه التوبة؟

«إنها محو أثر الرغبة في الذنب من لوح القلب، **والباعثُ عليها هو:** شعور التائب بعظمة من عصاه، وما له من السلطان عليه في الحال، وكون مصيره إليه في المآل، لا جرم أن الشعور بهذا السلطان الإلهي بعد مقارفة الذنب يبعث في قلب المؤمن الهيبة والخشية، ويُحدِث في روحه انفعالاً مما فعل، وندماً على صدوره عنه، ويزيد هذا الحال في النفس تذكّرُ الوعيد على ذلك الذنب، وما رتّبه اللهُ عليه من العقوبة في الدنيا والآخرة، هذا أثر التوبة في النفس، وهذا الأثر يزعج التائب إلى القيام بأعمال تضاد ذلك الذنب الذي تاب منه، وتمحو أثره السيئ ﴿**إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ**﴾»[(١)].

أيها المؤمن والمؤمنة: إن توبتنا المستمرة الدائمة تعني يقيننا بقدرة الله تعالى علينا، وتوحيدنا له تعالى، وذُلّنا وخضوعنا له سبحانه، وأنه لا أحد يملك محو ذنوبنا سواه؛ كما جاء في الصحيح عنه ﷺ أنه قال[(٢)]: «إن عبداً أصاب ذنباً؛ فقال: رب أذنبتُ فاغفر لي، فقال ربه: أعَلِم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به! غفرتُ لعبدي، ثم مكث ما شاء الله، ثم أصاب ذنباً؛ فقال: رب أذنبت آخر فاغفره! فقال: أعَلِم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به! غفرتُ لعبدي، ثم مكث ما شاء الله ثم أذنب ذنباً؛ فقال: أذنبت آخر فاغفره لي، فقال: أعَلِم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به! غفرت لعبدي، غفرت لعبدي، غفرت لعبدي – ثلاثاً– فليعمل ما شاء»[(٣)].

---

(١) تفسير المنار: (١/ ٢٦٥).

(٢) في (مسلم) أنه يرويه عن ربه تعالى.

(٣) البخاري ح(٧٠٦٨)، مسلم ح(٢٧٥٨).





ومعنى هذا أنه إذا كان هذا دأبه – يذنب فيتوب ويستغفر – فليفعل ما شاء؛ لأنه كلما أذنب كانت توبته واستغفاره كفارة لذنبه فلا يضره؛ وليس معنى هذا التجرئةُ على الذنوب! فلا يمكن أن تجرّئ الشريعة على الذنب وهي تحذر منه! وليس هذا مخاطباً به من يكذبون في توبتهم، أو لا يخلصون فيها.

إن في هذه القاعدة إشارة واضحة إلى سرعة الرجوع والإقلاع عن الذنب، وعقدِ العزم على عدم العودة، والمبادرة إلى إرجاع حقوق العباد، وعدم التسويف أو التأخير؛ فإن (سوف) من جنود إبليس، «ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسويف؛ كان بين خطرين عظيمين:

أحدهما: أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصي؛ حتى يصير رَيناً وطبعاً فلا يقبل المحو.

الثاني: أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو؛ فيأتي اللهَ بقلبٍ غير سليم، ولا ينجو إلا مَن أتى الله بقلب سليم»[1].

خلاصة القاعدة:

- من رحمة الله بك..أن جعل لذنوبك ممحاة! فاشكره عليها.
- قابل كل معصية بما يضادها من الطاعات.
- التائب معظّم للرب، والمصِرّ على ذنبه على شفى هلكة.



(١) ينظر: موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين: (ص٢٧١).





القاعدة النبوية الثامنة عشرة:
ما أُعطي أحدٌ عطاءً خيراً وأوسع من الصبر

> فاز الصابرون بعز الدارين؛ لأنهم نالوا من الله معيّته؛ فإن الله مع الصابرين.
> (أبو علي الدقاق).

هذه قاعدة من قواعد تربية النفس على الفضائل، ودفع غوائل المكاره، إنها قول النبي ﷺ: «ما أُعطي أحدٌ عطاءً خيراً وأوسع من الصبر»[1]، إن الحياة مليئة بالمنغصات والمكدرات:

طُبعت على كدرٍ وأنت تريدها ... صفواً من الأقذار والأكدار!

والإنسانُ فيها كما قال عنه خالقه: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ ﴾ [البلد: ٤].

إذن: ما القوة التي يمكنه أن يواجه بها مصاعب الحياة، وكبد الزمان، ونوائب الدهر؟!

«إذا استحكمت الأزمات، وتعقّدت حبالُها، وترادفت الضوائق وطال ليلُها؛ فالصبر وحده هو الذي يُشع للمسلم النورَ العاصم من التخبط، والهداية الواقية من القنوط»[2].

(١) البخاري ح(١٤٠٠)، مسلم ح(٢٤٧١).

(٢) خُلق المسلم: (١١٧).





إن الصبر علاج شرعي، تكرر الحديثُ عنه في القرآن في أكثر من تسعين موضعاً، ومن المحزن أن يظن بعضُ الناس أن الوصية بالصبر – عند انغلاق الأمور – وصيةُ عاجز!

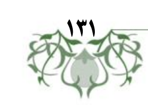
عجباً! أو تكون الوصية بوصية الله ورسوله وصية عاجز؟! بل هي وصية ناصح، خاصةً أن عدداً من المصائب والمشاكل، لا يمكن تجاوز أثرها إلا بالصبر، وإلا فماذا يصنع من يُفجعُ بوفاة حبيب، هل ثمة إلا الصبر! أو من يُبتلى بتلف مال، هل ثمة إلا الصبر!

وإذا ابتلي الوالدان بولد عاقٍّ، جرّبا معه جميعَ الوسائل الممكنة في النصح والإرشاد والتوجيه، لكنه لم ينتفع، بل استمر على عقوقه! فهل هناك علاج غير الصبر؟!

وإذا قُدّر على الإنسان أن أخفق في صفقة، أو خسر في تجارة، فهو إما أن يصبر صبر الكرام، أو يسلو سلوّ البهائم – كما قال بعض السلف – وبالصبر والاحتساب: تخف وطأة البلاء، بل وربما انتقل العبد منها إلى درجة أخرى من درجات العبودية، وهي درجة: الرضا عن الله، وقد يرتفع أكثر لينتقل إلى عبودية الشكر على ما قضاه الله وقدره، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم، ولعل هذا من أسرار قوله ﷺ – وهو يقرر هذه القاعدة: «وما أعطي أحدٌ عطاءً خيراً وأوسع من الصبر».

إن الصبر يعتمد على حقيقتين خطيرتين:

أما الأولى: فتتعلق بطبيعة الحياة الدنيا؛ فإن الله لم يجعلها دار جزاء وقرار، بل جعلها دار تمحيص وامتحان، والفترة التي يقضيها المرء بها فترة





تجارب متصلة الحلقات، يخرج من امتحانٍ ليدخل فى امتحانٍ آخر، وقد يُمتحن الإنسان بالشيء وضده، وما دامت الحياة امتحاناً فلنكرس جهودنا للنجاح فيه، وامتحان الحياة ليس كلاماً يكتب، أو أقوالاً توجّه، إنه الآلام التي قد تقتحم النفسَ، وتفتح إليها طريقاً من الرعب والحرج.

وأما الحقيقة الأخرى فتتعلق بطبيعة الإيمان: فالإيمان صلة بين الإنسان وبين الله عز وجل، وإذا كانت صِلات الصداقة بين الناس لا يُعتدّ بها، ولا يُنوّه بشأنها إلا إذا أكدها مُرُّ الأيام، وتقلبُ الليالي، واختلافُ الحوادث؛ فكذلك الإيمان، لابد أن تخضع صلتُه للابتلاء الذي يمحصها، فإما كشفَ عن طيبها، وإما كشفَ عن زيفها: ﴿ **أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣** ﴾ [العنكبوت : ٢ ، ٣][1].

وإذا تأملت – أيها المبارك – سِيَر الأنبياء عموماً وجدتها شاهداً قوياً على هذه المعاني، وأن الله تعالى لو سلّم أحداً من البلاء لسلّم منه خيرة الأولياء، ولكنها متلازمةٌ قدرية، ليمحص الله الذين آمنوا، ويرفع درجاتهم، ولتكون نفوسهم متهيأة لحمل رسالات الله تعالى؛ فإنها ثقيلة لا يقوى على حملها إلا أقوياء الإيمان، صِلابُ الظهور، وإذا تأملتَ فيما قصّه الله تعالى عن نبيه يوسف عليه الصلاة السلام؛ عرفتَ كيف يصنعُ البلاءُ النفوسَ الكبار، وكيف يربيها الصبر، وعندها ستدرك شيئاً من معاني هذه القاعدة: «وما أعطي أحدٌ عطاءً خيراً وأوسع من الصبر».

---

(١) ينظر: خلق المسلم ص(١١٧).





لقد ذاق يوسف عليه الصلاة والسلام ما ذاق، وأصابه ما أصابه، ومع ذلك قابله بالصبر والصفح والعفو، «وذلك شأن أولي الفضل من الناس، لا يفقدون صفاء دينهم إن فقدوا صفاء دنياهم، ولا يهونون أمام أنفسهم لنكبة حلت بهم» [(١)].

- ومن مواضع الصبر – التي تلوح حاجة المؤمن إلى تذكير نفسه بها: ما دلّت عليه قصةُ ورود هذا الحديث، فعن أبي سعيد الخدري أن ناساً من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ؛ فأعطاهم، ثم سألوه؛ فأعطاهم، حتى نفد ما عنده! ثم قال: «ما يكون عندي من خيرٍ فلن أدّخره عنكم، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يُغنِه الله، **ومن يتصبر يصبره الله، وما أُعطي أحدٌ عطاء هو خير وأوسع من الصبر**».

إن المؤمن قد يُبتلى بضيق في رزقه، أو دَيْنٍ يرهقه، ولربما دعا ربَّه فلم يتسع رزقه، أو لم يُقض جميع دَينه، وقد لا يجد من يقرضه، أو يسدد دَينه، فهنا ينبغي له أن يتدثر بالصبر، وأن يجعل هذه الوصية التي أوصى بها النبي ﷺ نُصبَ عينيه.

وهنا تتحامل النفوس الكريمة، وتصبر حتى لا تُريق ماء وجهها في سؤال الخَلق، ولو كان في شيء يسير، بل **ربما ارتقى به الحال، حتى يترفع عن السؤال في أمرٍ يسير، كما وقع ذلك لطائفة من أصحاب النبي ﷺ، أخبر عنهم** عوف بن مالك رضي الله عنه «أن النبي ﷺ بايعه في طائفة، وأسرّ

(١) المصدر السابق: (١٢٣).





إليهم كلمة خُفيةً: أن لا تسألوا الناس شيئاً؛ فكان بعضُ أولئك النفر يسقط السوط من يد أحدهم؛ ولا يقول لأحد: ناولني إياه»![1].

وهذا إنما يوفّق له من قوي طمعه في فضل الله ورحمته، ورجائه لقضاء حاجته ودفع ضرورته؛ فإن قوة الطمع في ذلك تَقْوى معها عبوديةُ الإنسان لمولاه، وحريته مما سواه؛ «فكما أن طمعه في المخلوق يوجب عبوديته له؛ فيأسه منه يوجب غنى قلبه عنه، كما قيل: استغن عمن شئت تكن نظيره، وأفضل على من شئت تكن أميره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره»[2].

«**وإنما كان الصبر أعظم العطايا**: لأنه يتعلق بجميع أمور العبد وكمالاته، وكل حالة من أحواله تحتاج إلى صبر؛ فإنه يحتاج إلى الصبر على طاعة الله، حتى يقوم بها ويؤديها، وصبر عن معصية الله حتى يتركها لله، وصبر على أقدار الله المؤلمة، فلا يتسخطها، بل صبر على نعم الله ومحبوبات النفس، فلا يدع النفس تمرح وتفرح الفرحَ المذموم، بل يشتغل بشكر الله، فهو في كل أحواله يحتاج إلى الصبر، وبالصبر ينال الفلاح»[3].

وفي هذا المعنى قال ابن الجوزي: وإنما جُعل الصبر خير العطاء؛ لأنه حبسُ النفسِ عن فعل ما تحبه وإلزامها بفعل ما تكره في العاجل، مما لو فعله أو تركه لتأذى به في الآجل.[4]

أيها الأخ المبتلَى! إن من أعظم ما يعين العبد على الصبر والتصبر: أن

---

(١) مسلم ح(٢٤٥٠).

(٢) مجموع الفتاوى: (١٠/ ١٨٣-١٨٤).

(٣) بهجة قلوب الأبرار: (ص١٢٧-١٢٩).

(٤) فتح الباري لابن حجر: (١١/ ٣٠٤).





يتفكر فيما أعدّه الله للصابرين من الثواب الجزيل، وحسن العاقبة في الدنيا، ولو لم يكن للصابر حافز سوى قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠] لكفاه بذلك حافزاً ومشجعاً! فكيف وقد وعد الله الصابرين بما هو أعظم وأجلّ!

فقد وعد الله الصابرين في كتابه وعلى لسان رسوله أموراً عالية جليلة: وعدهم بالإعانة في كل أمورهم، وأنه معهم بالعناية والتوفيق والتسديد، وأنه يحبهم ويثبّت قلوبهم وأقدامهم، ويلقي عليهم السكينة والطمأنينة، ويسهّل لهم الطاعات، ويحفظهم من المخالفات، ويتفضل عليهم بالصلوات والرحمة، والهداية عند المصيبات، وأنه يرفعهم إلى أعلى المقامات في الدنيا والآخرة، ووعدهم النصر، وأن ييسرهم لليسرى، ويجنبهم العسرى، ووعدهم بالسعادة والفلاح والنجاح، وأن يوفيهم أجرهم بغير حساب، وأن يخلف عليهم في الدنيا أكثر مما أخذ منهم من محبوباتهم وأحسن، وأن يعوِّضهم عن وقوع المكروهات عِوضاً عاجلاً يقابل أضعافَ أضعاف ما وقع عليهم من كريهة ومصيبة، وهو في ابتدائه صعبٌ شديد، وفي انتهائه سهلٌ حميد العواقب، كما قيل:

والصبر مثل اسمه مر مذاقته لكن عواقبه أحلى من العسل[1]

قال الحسن: وجدتُ الخير فى صبر ساعةٍ.[2]

كأني بك – أيها المبارك – قد اشتقت إلى تحصيل هذه الأعطيات، ونيل

---

(١) ينظر: بهجة قلوب الأبرار: (ص١٢٧-١٢٩).

(٢) شرح صحيح البخاري لابن بطال: (١٠/ ١٨٣).





هذه الهبات؛ فتساءلت: **كيف لي أن ألحق بركب الصابرين؟**

فيقال –زيادة على ما سبق–: لقد بيّنه عليه الصلاة والسلام في نفس الحديث الذي وردت فيه هذه القاعدة فقال: «ومن يتصبر يصبره الله» «أي: يطلب توفيق الصبرِ من الله؛ لأنه قال تعالى: ﴿ **وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ** ﴾[النحل: ١٢٧]، أو يأمر نفسَه بالصبر ويتكلف في التحمل عن مشاقه، فمن يفعل ذلك الاجتهاد والطلب: «يُصبّره الله» أي: يسهل عليه الصبر»[(١)].

فلا بد من بذل الجهد والمشقة، مع سؤال الله تعالى والتضرع له أن يبلغك مدارج الصابرين؛ فالصبر إذاً يحتاج منا إلى صبر!

خلاصة القاعدة:

- كل العبادات تفتقر إلى الصبر.
- الحياة طبعت على كدر، ومن لا صبر له كيف يعيش؟!
- إن لم تصبر فلا يفوتنك التصبر.
- الصبر رصيد مفتوح من الثواب بغير حساب.



(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: (٤/ ١٣١١) بتصرف يسير.





القاعدة النبوية التاسعة عشرة:
من حسن إسلام المرء ترْكُه ما لا يعنيه

من اشتغل بما لا يعنيه فاته ما يعنيه، ومن لم يستغن بما يكفيه فليس في الدنيا شيء يغنيه. (بعض الحكماء)

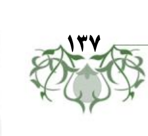
هذه قاعدة من القواعد النبوية المحكمة، وردت فيما رواه الترمذي وابن ماجه وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»(١).

وهذا الحديث – من جهة الصناعة الحديثية – مرسلٌ من مراسيل علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب – المشهور بزين العابدين – كما قاله الأئمة: أحمد، وابن معين، والبخاري، والترمذي، والدارقطني وغيرهم من الحفاظ، إلا أنه مع هذا فهو كما قال ابن رجب: «**أصلٌ عظيم من أصول الأدب**»(٢).

وسبق لنا في أول قاعدة من هذه القواعد كلمة الإمام أبي داود – رحمه الله – صاحب السنن أنه قال: كتبت عن رسول الله ﷺ خمس مائة ألف حديث، انتخبتُ منها ما ضمنْتُه هذا الكتاب – يعني: كتاب السنن – جمعتُ

(١) الترمذي ح(٢٣١٧)، ابن ماجه ح(٣٩٧٦).

(٢) جامع العلوم والحكم: (١/٢٨٨).





منه أربعة آلاف وثمان مائة حديث، ذكرت الصحيح وما يشبهه ويقاربه، ويكفي الإنسان لدينه من ذلك أربعة أحاديث...، وذكر منها هذه القاعدة: **«من حسن إسلام المرء، تركه ما لا يعنيه»**(١).

وقد قال أبو محمد بن أبي زيد – إمام المالكية في زمانه –: **جماع آداب الخير وأزمّته تتفرع من أربعة أحاديث... وذكر منها** هذا الحديث الذي يمثل هذه القاعدة العظيمة: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»(٢).

ومعنى هذه القاعدة: أن من حسن إسلام الإنسان، وكمال دينه: أن يترك الخوض فيما لا يعنيه من قول وفعل، ومعنى يعنيه: أنه تتعلق عنايتُه به، ويكون من مقصده ومطلوبهِ شرعاً أو قدَراً، فتحديد كون الأمر يعني أو لا يعني مردّه الشرع والحاجة الكونية، لا الهوى أو النفس.

والمقصود: أنه إذا حسن إسلام المرء؛ تركَ ما لا يعنيه في الإسلام من الأقوال والأفعال؛ فإن الإسلام يقتضي فعل الواجبات؛ كما بيّنه النبي ﷺ في حديث جبريل المشهور، الذي سأل فيه النبي ﷺ عن الإسلام فأخبره عنه.(٣)

قال ابن القيم رحمه الله: «وقد جمع النبي ﷺ الورعَ كلَّه في كلمة واحدة فقال: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» فهذا يعم الترك لما لا يعني من الكلام، والنظر، والاستماع، والبطش، والمشي، والفكر، وسائر الحركات

---

(١) طبقات الحنابلة: (١/١٦١).

(٢) جامع العلوم والحكم: (١/٢٨٨).

(٣) ينظر: جامع العلوم والحكم (١/٢٨٩).





الظاهرة والباطنة، فهذه الكلمة كافية شافية في الورع»[١].

إن الإنسان وهو يقرأ في كتب السير والتراجم، أو يقرأ في صفحات الحياة اليومية؛ ليجد أمثلة كثيرة تدل على **خَرْقٍ عجيبٍ وظاهرٍ لهذه القاعدة**، التي تكاثرت النصوص في التأكيد على معناها، ومن تلك الصور التي لا تكاد تخطئها العين والأذن:

١- الدخول في علم الكلام والمباحث الكلامية التي أضرّت بأصحابها كثيراً؛ فزلزت اليقين الذي كان عندهم، وأدخلتهم في دهاليز الشكوك، فأصبح بعضهم حيارى في عقائدهم، مترددون في بعض ما كانوا يوقنون به من الاعتقاد، بل بلغ ببعضهم أنه تمنى أن يموت على دين العجائز اللاتي لا يعرفن الشك ولا التردد! وعافاهن الله من هذه الأمور.

قال الذهبي - رحمه الله - في ترجمة أحد العلماء الكبار[٢]: «أحد الأعلام، وفرد زمانه علماً ونقلاً وذكاءً وتفنناً، إلا أنه خالف السلف، ووافق المعتزلة في عدة بدع، نسأل الله العفو والسلامة **فإن كثرة التبحر في الكلام ربما أضر بصاحبه**، ومن حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه»[٣].

وها نحن اليوم نجد أمثال هذا الخَرْق لهذه القاعدة في فئام من الشباب الذين أصبحوا لا يفرقون في قراءاتهم، بل يقرأون لكل أحد، بحجة الاطلاع

(١) مدارج السالكين: (٢/٢٣).

(٢) هو ابن عقيل الحنبلي، وقد ثبت رجوعه إلى طريقة السلف رحم الله الجميع.

(٣) لسان الميزان: (٤ / ٢٤٣).





والثقافة! وقد يقرأون لأناس مشهورين بالفكر المنحرف، ثم لا يزال هذا المسكين يُنقَل من شبهة إلى شبهة، ومن ضلالة إلى ضلالة، ثم يفزع بعدها – إن بقي فيه بقية من وازع – إلى أهل العلم ليكشفوا له تلك الشبهات العويصة، وقد ينجح أولئك العلماء وقد لا ينجحون؛ لأن الشُبَه عادةً ما تكون خطّافةً، تخطف لب الإنسان وعقلَه، ويكون كشفها وإزالةُ أثرها صعباً.

لقد حدّثني أحد أستاذة الجامعات – وهو من العلماء الفضلاء – أنه عاش سنوات مع هذه الكتب الفكرية المنحرفة؛ وأنه تعب منها جداً، وطاف به طائف من الشك والقلق، حتى أعانه الله على التخلص من آثارها، بسبب تدبر القرآن، والإفادة من كتب أئمة السنة، وعلى رأسهم ابن القيم رحمه الله.

مع العلم أنه بدأ يقرأ في هذه الكتب، وهو محاضرٌ في الجامعة ومتخصص في الشريعة، فما الظن بمن يقرأها من الشباب الصغار في علمهم وتحصينهم العلمي؟ إنها لأكثر وأعظم تأثيراً.

وإنني – بهذه المناسبة – لأنصح أحبتي الشباب ألا يُقْدِموا على قراءة هذا النوع من الكتب إلا عند الحاجة، وبشرط مهم: وهو التحصين العلمي القوي الذي يدفع غوائل الشُبَه، فإن أغلى ما عند الإنسان دينُه وعقيدتُه، وليس من الحكمة ولا من العقل في شيء أن يجعلهما في مهب الريح؛ تتخطفه شبهات الذين لا يوقنون!

٢- ومن صور خرق هذه القاعدة الشرعية: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»:

السؤال عما لا يعني الإنسان من تفاصيل المسائل التي أخفى الله





ورسوله شأنهما، ويوضح هذا المعنى ما جاء في ترجمة أحد تلاميذ الإمام مالك – رحمهم الله – حين جاءه كتاب من بعض الملوك يسأله عن كفتي الميزان، أمن ذهب هي أم من وَرِق؟ فكتب في الجواب: حدثنا مالك عن الزهري أن رسول الله ﷺ قال: **من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه!**

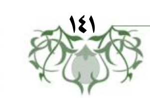
وهذا يقع كثيراً لبعض الطلبة – خاصة منهم المبتدئين – حين يسألون عن تفاصيل لا أثر لها، بل لا داعي لها في العلم، أو البحث فيما كان يسميه العلماء: الأغلوطات، وهذا المسلك مما يَحرِم طالب العلم بركة ما يعلم، ويقطعه عن تحصيل النافع المفيد.

ومن ذلك: الاشتغال بالمسائل التي لا يترتب عليها عمل؛ مثل مسائل المفاضلة بين بعض الأعيان، ولهذا لما أشار العلامة الشوكاني إلى مسألة **المفاضلة بين الأنبياء والملائكة** قال: «وقد اشتغل بهذه المفاضلة قومٌ من أهل العلم، ولا يترتب على ذلك فائدة دينية ولا دنيوية، بل الكلام في مثل هذا من الاشتغال بما لا يعني، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[1].

٣- ومن صور خرق هذه القاعدة الشرعية – «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» –:

ما يقع لبعض الناس من تتبع الصغيرة والكبيرة من خصوصيات الناس، وهذا لو لم تأت به الشريعة لنبذته الفطرة السليمة، ولنفرت منه النفوس المستقيمة، وهو مما يوجب العداوة والبغضاء، ويحمل على العدوان

(١) فتح القدير: (٢/١٣٥).





بين الناس، وهو في الحقيقة أحد صور التجسس، وتتبع العورات، والفضول من القول والعمل، وهي معانٍ جاءت بها نصوصٌ خاصة، كلها تدل على سعة معنى هذه القاعدة: **«من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعينه»**.

٤- ومن صور خرق هذه القاعدة، الانشغال بعيوب الناس عن عيب النفس، وقد قال بعض أهل العلم: «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وويلٌ لمن نسي عيبَه وتفرّغ لعيوب الناس، فالأَول علامة السعادة، والثاني علامة الشقاوة»[(١)].

٥- ومن صور خرق هذه القاعدة ما نبّه إليه أبو عبدالرحمن السلمي - وهو يتحدث عن عيوب النفس - حيث يقول: «ومن عيوبها: تضييع أوقاتها بالاشتغال بما لا يعني من أمور الدنيا، والخوض فيها مع أهلها، ومداواتُها: أن يعلم أن وقته أعز الأشياء فيشغله بأعز الأشياء، وهو ذكر الله، والمداومة على الطاعة، ومطالبة الإخلاص من نفسه؛ فإنه روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»، وقال الحسن بن منصور: عليك بنفسك فإن لم تشغلها شغلتك»[(٢)].

وأختم هذه الحلقة بهذه اللطيفة المتعلقة بهذه القاعدة، فقد جاء في ترجمة أحمد الغزالي - أخي أبي حامد الغزالي - أنه قال على رأس منبره

---

(١) طريق الهجرتين: (١٧٢).

(٢) الجواهر الحسان في تفسير القرآن المعروف بتفسير الثعالبي: (٥/٤٣٧).





ببغداد، في شعبان سنة خمس عشرة وخمس مئة: سمعت شيخي أبا بكر، حكى عن الشيخ أبي القاسم الكركان قال: في بداءة أمري سمعت هذا الخبر: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**» فبقيت ثمانين سنة أُفْتي بمقتضى هذا الحديث.[1]

اللهم أشغل أوقاتنا بطاعتك، واجعل سكوننا وحركتنا فيما يعنينا ويرضيك.

خلاصة القاعدة:

- ترك ما لا يعني يوفر عليك جهداً ووقتاً.
- التكلم فيما لا يعني يفتح باباً من الخلاف لا يغلق.
- اشتغال البعد بما يعنيه، لا يدع له وقتاً يتكلم فيما لا يعنيه.



(١) طبقات الشافعية: (١/٣٩٩).






القاعدة النبوية العشرون:
احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز[1]

> قيل: احذر مجالسة العاجز، فإنه من سكن إلى عاجز أعداه من عجزه، وأمده من جزعه، وعوّده قلة الصبر، ونسّاه ما في العواقب، وليس للعجز ضدّ إلا الحزم. (الإبشيهي)

هذه قاعدة نبوية محكمة، جليلة الفائدة، عظيمة المعاني، انطوت على «كلامٍ جامعٍ نافع، مُحتوٍ على سعادة الدنيا والآخرة.

فالأمور النافعة قسمان: أمور دينية، وأمور دنيوية، والعبد محتاج إلى الدنيوية كما أنه محتاج إلى الدينية؛ فمدار سعادته وتوفيقه على الحرص والاجتهاد في الأمور النافعة منهما، مع الاستعانة بالله تعالى، فمتى حرص العبد على الأمور النافعة واجتهد فيها، وسلك أسبابها وطرقها، واستعان بربه في حصولها وتكميلها؛ كان ذلك كماله، وعنوان فلاحه، ومتى فاته واحد من هذه الأمور الثلاثة؛ فاته من الخير بحسبها، فمن لم يكن حريصاً على الأمور النافعة، بل كان كسلاناً؛ لم يدرك شيئاً، **فالكسل هو أصل الخيبة والفشل**، فالكسلان لا يدرك خيراً، ولا ينال مكرمة، ولا يحظى بدين ولا

---

(١) مسلم ح(٢٦٦٤).





دنيا، ومتى كان حريصاً، ولكن على غير الأمور النافعة – إما على أمور ضارة، أو مفوّتة للكمال – كان ثمرة حرصه الخيبة، وفوات الخير، وحصول الشر والضرر، فكم من حريص على سلوك طرقٍ وأحوالٍ غيرَ نافعة لم يستفد مِن حرصه إلا التعبَ والعناءَ والشقاءَ.

ثم إذا سلك العبد الطرقَ النافعة، وحرص عليها، واجتهد فيها؛ لم تتم له إلا بصدق اللجأ إلى الله، والاستعانة به على إدراكها وتكميلها، وأن لا يتكل على نفسه وحَوْله وقوته، بل يكون اعتماده التام بباطنه وظاهره على ربه؛ فبذلك تهون عليه المصاعب، وتتيسر له الأحوال، وتتمّ له النتائج والثمرات الطيّبة في أمر الدين وأمر الدنيا، لكنّه في هذه الأحوال محتاج – بل مضطر غاية الاضطرار – إلى معرفة الأمور التي ينبغي الحرص عليها، والجد في طلبها.

فالأمور النافعة في الدين ترجع إلى أمرين: علم نافع، وعمل صالح»[1].

لقد كانت هذه القاعدة الجليلة: «احرص على ما ينفعك ولا تعجز» وصية أوصى بها النبي عليه الصلاة والسلام أحد أصحابه رضي الله عنهم؛ يقول ابن القيم رحمه الله: «فأمره بالحرص على الأسباب، والاستعانة بالمسبب، ونهاه عن العجز، وهو نوعان: **تقصير في الأسباب، وعدم الحرص عليها**، وتقصير في الاستعانة بالله وترك تجريدها، فالدين كله – ظاهره

(١) بهجة قلوب الأبرار: (ص٣٤).





وباطنه، شرائعه وحقائقه – تحت هذه الكلمات النبوية، والله أعلم»[1].

وقال الشافعي – رحمه الله تعالى–: احرص على ما ينفعك، ودع كلام الناس؛ فإنه لا سبيل إلى السلامة من ألسنة العامة.

ومثله قول مالك بن دينار: من عرف نفسه لم يضره ما قال الناس فيه.[2]

يقول ابن تيمية – رحمه الله: «وفي قوله ﷺ: «احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز» أمرٌ بالتسبب المأمور به؛ وهو الحرص على المنافع، وأمرٌ مع ذلك بالتوكل – وهو الاستعانة بالله – فمن اكتفى بأحدهما فقد عصى أحد الأمرين، ونهى عن العجز الذي هو ضد الكَيس، وكما في الأثر: «الكيّس: من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز: من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله» فالعاجز في الحديث مقابل الكيّس، فمن فعل ما أمر به من التزود؛ فاستعان به على طاعة الله وأحسن منه إلى من يكون محتاجاً؛ كان مطيعاً لله في هذين الأمرين»[3].

ويقول ابن رجب: «ومن ترَكَ الاستعانة بالله، واستعان بغيره؛ وكَلَه الله إلى من استعان به فصار مخذولاً، وكتب الحسنُ إلى عمر بن عبدالعزيز: لا تستعن بغير الله فيَكِلُك الله إليه، ومن كلام بعض السلف: يا رب! عجبتُ

---

(١) مدارج السالكين: (٣/ ٤٦٤).

(٢) العقد الفريد: (٢/ ٣٤٢).

(٣) مجموع الفتاوى: (١٨/ ١٨١-١٨٢) بتصرف.





لمن يعرفك كيف يرجو غيرك! وعجبت لمن يعرفك كيف يستعين بغيرك!»[1].

«وكل مَا يستعان بِهِ على الطَّاعَة فَهُوَ طَاعَة وَإِن كَانَ من جنس الْمُبَاح؛ قَالَ النبي ﷺ فِي الحَدِيث الصَّحِيح لسعد: «إِنَّك لن تنْفق نَفَقَة تبتغي بهَا وَجه الله إِلَّا ازددت بهَا دَرَجَة ورفعة، حَتَّى اللُّقْمَة تضعها فِي فِي امْرَأَتك»[2].

لقد قيل: إن أصدق كلمة قيلت بعد القرآن والسنة هي كلمة علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «قيمة كل امرء ما يحسنه»، وهذه الكلمة إنما هي تُجَلّي معنى العبارة الأولى من هذه القاعدة النبوية وهي: **«احرص على ما ينفعك»** فاحرص على أن يكون هذا الذي تحسنه هو مما ينفعك في الدنيا والآخرة، وإياك أن تجعل قيمتك تافهة ساقطة؛ فلا تجعل قيمتك فيما لا تطمع أن تراه في صحيفة حسناتك من اللهو والعبث المحرم.

وكم هو جميل! قبل أن تُقدم على تسنّمِ أمرٍ أن تحرص على شيء مهمٍ أرشدك إليه نبيك عليه الصلاة والسلام في هذه القاعدة؛ وهو: «ما ينفعك» فسل نفسك: هل هذا العمل ينفعني في الدنيا والآخرة، وليس فيه عليّ ضرر؟ فإن كان كذلك فأقدِم، لكن هل تستطيع أن تُقدم عليه وحدك؟ قد تسقط في حفرة ما! قد يؤذيك قطاع الطرق! قد تعرض لك عوارض من حيث لا تحتسب! فما الحيلة؟ عليك بالشطر الثاني من هذه القاعدة النبوية

(١) جامع العلوم والحكم: (١/ ٤٨٢).
(٢) التحفة العراقية: (ص٥٠).







العظيمة: «واستعن بالله ولا تعجز» إنك إن استعنت بالله فلن تعجز بإذن الله، ومن توكل على الله فهو حسبه.

ومن أعظم ما يعين على اختيار النافع من الأعمال والأقوال والمشاريع:

١- العلم؛ فإنه يهدي إلى الفرقان بين الأمور النافعة والضارة، وبين النافع والأنفع، وأصل هذا العلم: علم الشريعة، وما يعين عليه من علوم دنيوية تتصل بالأمر الذي سيقدم عليه الإنسان، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧].

٢- الاستشارة؛ فكم من رأي يبدو للإنسان سدادُه، ثم بعد الاستشارة يتبين له خلاف ذلك! ولهذا كان من حكمة الله تعالى أن يأمر نبيه ﷺ بالاستشارة مع أنه نبي يوحى إليه! ليقتدي به من بعده من الأئمة فضلاً عن عامة الناس، وقد قيل: ما ندم من استشار، ولا خاب من استخار.

وتشتد الحاجة إلى الاستشارة كلما عظم شأن الأمر الذي يُقدم عليه الإنسان، كزواجٍ، أو مشروع علمي أو تجاري كبير.

٣- أن يعلم العبد أن ما ينفع لفلانٍ من الناس فقد لا ينفع لك؛ فالنفوس ليست واحدة، والمواهب والملكات ليست سواء بين الناس، والقدرات والإمكانات ليست على نسقٍ واحد، فرب عملٍ يُنصح به زيد ولا ينصح به عبيد، والعكس صحيح.





ولهذا كان من حكمة الله تعالى أن نوّع بين العبادات في الشريعة؛ لأن من الناس من ينشط للصلاة ولا ينشط للصيام، وآخر ينشط لقيام الليل ما لا ينشط لكثرة قراءة القرآن، وفي هذا القصة المشهورة التي وقعت للإمام مالكٍ – رحمه الله – حين كتب إليه عبدالله العمري العابد يحضه على الانفراد والعمل! فكتب إليه مالك: إن الله قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، فرب رجلٍ فُتح له في الصلاة، ولم يُفتح له في الصوم، وآخر فُتح له في الصدقة ولم يُفتح له في الصوم، وآخر فُتح له في الجهاد، **فنشر العلم من أفضل أعمال البر، وقد رضيتُ بما فُتح لي فيه، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنتَ فيه،** وأرجو أن يكون كلانا على خيرٍ وبرّ.(١)

وفي باب طلب العلم، قد يُنصح إنسان بالتفرغ لطلب العلم، وآخر يُنصح بأن يتفرغ للإغاثة والعمل الخيري؛ لأنه ليس من أحلاس العلم، وليس ممن خُلق له.

وفي أمور الدنيا؛ قد تصلح التجارة الفلانية لشخصٍ ولا تصلح لآخر وهكذا، أو في التخصص العلمي الدقيق؛ فقد يناسب أن يدرس إنسانٌ الطب، وآخر يكون علم الحاسب أنسب له: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠].

---

(١) التمهيد: (٧/ ١٨٥).





خلاصة القاعدة:

- بالحرص على ما ينفع، والاستعانة بالله؛ تكتمل فصول الحياة السعيدة.
- منك الحرص على النفع وبذل السبب، ومن الله العون والتوفيق.
- ليس من المعقول أن تكون مواهب الناس واحدة، فالتنويع سنة كونية وشرعية.
- لا تقتل مواهبك في تقمص شخصيات الآخرين.







القاعدة النبوية الحادية والعشرون:
من تشبه بقومٍ فهو منهم [(١)]

«كنا في وليمة، فجاء أحمد بن حنبل، فلما دخل نظر إلى كرسي في الدار عليه فضة، فخرج فلحقه صاحب الدار؛ فنفض يده في وجهه وقال: زي المجوس! زي المجوس»!.
(علي بن أبي صالح السواق).

هذه قاعدة من القواعد النبوية المحكمة في أبواب الاعتقاد والسلوك، وهي قاعدة تبرز عظمة هذا الدين الذي يريد من أهله أن يكونوا أعزّة في كل شيء، أليس مبدأهم أقوى؟ أليس منهجهم أسمى؟ أليس سندهم أعلى؟ ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩] فلم يتشبهون بغيرهم من أممٍ غضب الله عليها ولعنها، وضلت ضلالاً مبيناً؟!

ألا ما أحوج المسلمين اليوم – وقد انفتحت عليهم الدنيا، واتصلوا بأمم الأرض بواسطة وسائل التقنية – إلى فقه هذه القاعدة النبوية الشريفة

---

(١) أبو داود ح(٤٠٣١) وغيره من طريق أبي منيب الجُرشي، عن ابن عمر رضي الله عنهما، وفي سنده عبدالرحمن بن ثوبان، والأقرب أنه لا بأس به، ولذا قال عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء (٣٠٩/١٥): «إسناده صالح»، وصححه العراقي في «المغني» (٣١٨/١)، وقال ابن حجر: «وقد ثبت أنه قال: «من تشبه بقوم فهو منهم»»، ينظر: فتح الباري (٢٧٤/١٠). وقد بسط شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتابه «اقتضاء الصراط المستقيم» الكلام في موضوع التشبه.





«من تشبه بقوم فهو منهم» خصوصاً والإنسان يرى أنواعاً كثيرة من خرق هذه القاعدة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

لنرجع بالذاكرة إلى الوراء قليلاً، إلى تلك السنين الزاهية من عصور هذه الأمة، حين دخل المسلمون بلاد الأندلس، فقد كانت لهم شخصيتهم الإسلامية المستقلة، التي تميزوا بها عن غيرهم من الشعوب والأمم، وقد ظلوا خلال القرون الثلاثة الأولى للوجود الإسلامي هناك محافظين على تلك الشخصية التي تأصلت فيها الأخلاق والقيم النبيلة، ولكن حينما اعترى وجودهم الضعف، وعصفت بهم الفتن، وخف الوازع الديني عند بعضهم؛ بدؤوا بالتخلي عن بعض تلك الأخلاق، والتأثر بأخلاق وعادات غريبة عليهم وعلى مجتمعهم، الأمر الذي جعل شخصيتهم الإسلامية تأخذ بالاضمحلال، ويسري فيها الضعف.

يعلق ابن خلدون رحمه الله على هذا فيقول: (إن المغلوب مولع بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه وتخلقه، وسائر أحواله وعوائده؛ والسبب في ذلك: أن النفس أبداً تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه... حتى إذا كانت أمة تجاور أخرى، ولها الغلب عليها، فيسري إليهم من هذا التشبه والاقتداء حظ كبير، كما هو في الأندلس لهذا العهد مع أمم الجلالقة، فإنك تجدهم يتشبهون بهم في ملابسهم وشاراتهم، والكثير من عوائدهم وأحوالهم، **حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة أنه من علامات الاستيلاء** والأمر لله)[1] ا.هـ.

بل ذكر أحد المؤرخين أن جند مسلمي الأندلس تشبهوا بالنصارى في

---

(١) ينظر: بدائع السلك في طبائع الملك (٢/ ٢٦٧).





زيهم وأسلحتهم، ولم يقتصر الأمر على هذا، بل إن بعض مسلمي الأندلس قلّد النصارى في الاحتفال بأعيادهم ومناسباتهم الدينية![1].

ومما لا شك فيه أن هذا الانهزام الذي مُنِيَ به المسلمون في ذلك الوقت – حينما تأثروا بالنصارى – **قد تمخض عنه** كسر الحاجز النفسي الذي كان موجوداً عند المسلمين إزاء العدو النصراني؛ الأمر الذي جعل مخالطتهم أو التأسي بهم أمراً مألوفاً عند بعض المسلمين هناك، ولهذا خرجوا إلى ميادين الجهاد وهم غير آبهين بالعدو ولا مستعدين لحربه.

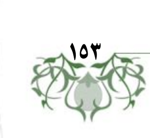
وهكذا زالت مهابة المسلمين عند النصارى؛ حينما تخلوا عن أصالتهم وقِيَمهم الإسلامية، حيث أصبحوا حقيرين في عين العدو، وأقل من أن يهتم بهم، وقد بيَّن هذا الأمر أحدُ ملوك النصارى حيث قال لرسول المعتمد بن عَبّاد لما قدم إليه: **(كيف أترك قوماً مجانين! تَسَمَّى كلٌّ واحد منهم باسم خلفائهم وملوكهم، وكل واحد منهم لا يُسِل في الذب عن نفسه سيفاً، وكيف يحل لبشر أن يُقِر منهم على رعيته أحداً وأن يدعها بين أيديهم سدى)**[2].

وكيف يرجو مسلمٌ من عدوّه أن يحترمه، وعدّوه يراه يقلده في أمورٍ كثيرة؛ ليصل إلى محاكاته؟! وهل صارت الصورة يوماً بمنزلة الأصل؟

إن من المحزن ما يشاهده الإنسان من تهافت شباب الأمة من الجنسين

(١) وقد أدى التشبه بالعدو وتقليده عند أولئك القوم – كما يقول أحد المؤرخين – أن (ذل الرئيس والمرؤوس، وافتقرت الرعية، وفسدت أحوال الجميع بالكلية، وزالت من النفوس الأنفة الإسلامية).

(٢) ينظر: دولة الإسلام في الأندلس (٧٤/٢).





بالذات على التشبه بالكفار في أمور كثيرة، مع وضوح هذا الحكم الشرعي، وتفاقمت هذه المحنة في السنوات الأخيرة التي صاحبت هذا الانفتاح الإعلامي والتقني، وهذا الحزنُ مبعثه أن كثيراً من هؤلاء الشباب يجهلون مصدر عزتهم الذي هو دينهم، ويجهلون أو يتجاهلون حقيقة مَنْ يتشبهون بهم من أعداء الله تعالى، حتى رأينا بأعيننا صدق حديث النبي ﷺ: «**حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه**»، فوصل الحد ببعض هؤلاء إلى التشبه بالعدو في شيء من مناسكه وعبادته! – عياذاً بالله تعالى –.

ومع هذا الانهماك في التشبه بأعداء؛ ترى أحدهم يستحي أن يتشبه بالنبي ﷺ وصحابته الكرام! فما أعظم الخير الذي حرمه هؤلاء المتشبهين بالكفار! وما أعظم الأوزار التي يحملونها بتشبههم ذلك، ومن أوزار من يضلونهم بغير علم!

لو كان هؤلاء المتشبهون بأعداء الله من اليهود والنصارى يتدبرون ما يقرؤون؛ لفهموا أن سورة الفاتحة تنقض عليهم جميع صور التشبه بأهل الكتاب – فضلاً عن غيرهم من الكفّار –! فإن المصلي إذا قرأ الفاتحة، فإنه يقول في كلِّ مرة: ﴿ **ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧** ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] فتأمل كيف طلبوا ربهم أولاً أن يهديهم سبيل الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين – لأن من عرف الحق؛ عرف أهله فتشبه بهم – ثم طلبوا ربهم – في المقابل – أن يقيهم التشبه بمن انحرفوا عن منهج الله – اليهود والنصارى – الذي حذّر النبي ﷺ من سلوك سبيلهم بقوله: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم، شبراً شبراً، وذراعاً**





بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم» قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: **«فمن»**؟[1].

إن من المهم – ونحن نتحدث عن التشبه – أن نحرر المعنى الذي يدخل في التشبه بالكفار، فيقال: هو **مضاهاة الكفار فيما هو من خصائصهم،** فدخل في هذا التشبه بهم في الأمور الاعتقادية، والأمور الظاهرة: من أقوال، أو أفعال قد تكون عبادات، وقد تكون أيضاً عادات خاصةً بهم.

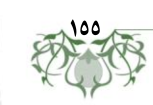
وهنا تساؤل سمعتُه من بعض الشباب: وماذا يضر أن أتشبه بهم في أمورهم الظاهرة ما دام أني مؤمن في الباطن؟! ماذا تضر قَصةُ شَعْرٍ، أو تقليدٌ في لباس، ونحو ذلك مما اختصوا به أو صار شعاراً لهم؟

فيقال: إن مصدر هذه الكلمات هو الجهل بارتباط الظاهر بالباطن، واعتقاد أنه لا تأثير للظاهر على الباطن، ولا للباطن على الظاهر! وإن أدلة القرآن والسنة لتؤكد ارتباط الباطن بالظاهر، وتأثيرِ كل واحدٍ منهما على الآخر؛ لهذا يقول ابن تيمية رحمه الله: «**وهذه الأمور الباطنة والظاهرة بينهما ارتباط ومناسبة؛ فإن ما يقوم بالقلب من الشعور والحال يوجب أموراً ظاهرة، وما يقوم بالظاهر من سائر الأعمال؛ يوجب للقلب شعوراً وأحوالاً.**

وقد بعث اللهُ محمداً ﷺ بالحكمة التي هي سنته، وهي الشرعة والمنهاج الذي شرعه له، فكان من هذه الحكمة: أن شرع له من الأعمال والأقوال ما يباين سبيل المغضوب عليهم والضالين»[2] ثم أخذ يبين شيئاً مِن حِكَم النهي عن مخالفة الكافرين في هذه الأمور الظاهرة فقال:

(١) البخاري ح(٣٤٥٦)، مسلم ح(٢٦٦٩).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم: (١/ ٩٢).





«**منها**: أن المشاركة في الهدي الظاهر تورث تناسباً وتشاكلاً بين المتشابهين، يقود إلى موافقة ما في الأخلاق والأعمال، وهذا أمر محسوس؛ فإن اللابس ثياب أهل العلم يجد من نفسه نوعَ انضمامٍ إليهم، واللابس لثياب الجند المقاتلة – مثلاً – يجد من نفسه نوعَ تخلقٍ بأخلاقهم، ويصير طبعه متقاضياً لذلك، إلا أن يمنعه مانع.

ومنها: أن المخالفة في الهدي الظاهر توجب مباينةً ومفارقةً توجب الانقطاع عن موجبات الغضب وأسباب الضلال، والانعطاف على أهل الهدى والرضوان، وتحقق ما قطع الله من الموالاة بين جنده المفلحين، وأعدائه الخاسرين.

وكلما كان القلب أتمّ حياة، وأعرف بالإسلام – الذي هو الإسلام، لست أعني مجرد التوسم به ظاهراً أو باطناً بمجرد الاعتقادات من حيث الجملة – كان إحساسه بمفارقة اليهود والنصارى باطناً وظاهراً أتم، وبُعده عن أخلاقهم الموجودة في بعض المسلمين أشد.

ومنها: أن مشاركتهم في الهدي الظاهر؛ توجب الاختلاط الظاهر، حتى يرتفع التميز ظاهراً بين المهديين المرضيين، وبين المغضوب عليهم والضالين، إلى غير ذلك من الأسباب الحكمية.

هذا إذا لم يكن ذلك الهدي الظاهر إلا مباحاً محضاً لو تجرد عن مشابهتهم، فأما إن كان من موجبات كفرهم؛ كان شعبة من شعب الكفر، فموافقتهم فيه موافقة في نوع من أنواع معاصيهم، فهذا أصل ينبغي أن يتفطن له»[1] ا.هـ.

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٩٢-٩٤).





وحتى تتجلى الصورة أكثر؛ دعونا نبرز هنا **نموذجين عمليين في النهي عن التشبه بالكافرين:**

النموذج الأول:

ذكره الله تعالى في كتابه الكريم فقال: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا** ﴾ [البقرة: ١٠٤] «فنهى الله المؤمنين عن هذه الكلمة سَدّاً لهذا الباب»[(١)] أي: باب التشبه باليهود ولو كان ذلك في كلمة واحدة!

النموذج الثاني:

يتضح من قصة قدوم رسول الله ج المدينة، وكان لهم يومان يلعبون فيهما، فقال: «ما هذان اليومان»؟ قالوا: كنا نلعب فيهما في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله قد أبدلكم بهما خيراً منهما: يوم الأضحى ويوم الفطر»[(٢)].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فوجه الدلالة: أن العيدين الجاهليين لم يقرهما رسول الله ﷺ، ولا تركهم يلعبون فيهما على العادة، بل قال: **«إن الله قد أبدلكم بهما يومين آخرين» والإبدال من الشيء يقتضي ترك المبدل منه** .. لا سيما وقوله: **«خيراً منهما»** يقتضي الاعتياض بما شرع لنا، عما كان في الجاهلية...وأيضاً فقوله لهم: «إن الله قد أبدلكم» لما سألهم عن اليومين

---

(١) تفسير السعدي: (ص٦١).

(٢) أبو داود ح(١١٣٤).






فأجابوه...**دليل** على أنه نهاهم عنهما اعتياضاً بيومي الإسلام؛ إذ لو لم يقصد النهي لم يكن ذِكر هذا الإبدال مناسباً؛ إذ أصل شرع اليومين الإسلاميين كانوا يعلمونه، ولم يكونوا ليتركوه لأجل يومي الجاهلية»[(١)].

وتتسع هذه القاعدة لتشمل النهي عن التشبه بأهل الفسق والضلال؛ خشية أن يكون الإنسان منهم، ومما يدخل تحت هذا المعنى: سدّ الشريعة لباب التشبه بين الجنسين، حيث لعن النبي ﷺ المتشبهين من النساء بالرجال، والمتشبهات من النساء بالرجال[(٢)].

كما يفهم من معنى هذه القاعدة أيضاً: الحض على التشبه بأهل الصلاح والبر والتقوى؛ عسى الله أن يلحقه بهم:

فتشـبهوا إن لم تكونـوا مثلـهم ... إن التشـــبه بـــالكرام فـــلاح

إذا تبيّن هذا المعنى؛ فلعلنا نختم هذه الإشارات العابرة عن هذا الموضوع الكبير ببيان حُكم التشبه بالكفار؛ لأن النبي ﷺ قال في الشطر الأخير من قاعدتنا هذه: «**فهو منهم**»: أي في الإثم والخير[(٣)].

يوضح ذلك الحكم الإمامُ ابن تيمية – رضي الله عنه – فيقول: «وهذا الحديث أقلّ أحواله أن يقتضي تحريم التشبه بهم، وإن كان ظاهره يقتضي كفر المتشبِّه بهم؛ كما في قوله: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ فقد يُحمل هذا على التشبه المطلق؛ فإنه يوجب الكفر، ويقتضي تحريم أبعاض ذلك، وقد

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم: (١/ ٤٨٦-٤٨٨) بتصرف يسير.

(٢) كما ثبت هذا في صحيح البخاري من حديث ابن عباس ح(٥٨٨٥).

(٣) مرقاة المفاتيح: (٧/ ٢٧٨٢).





يحمل على أنه منهم في القدر المشترك الذي شابههم فيه، فإن كان كفراً، أو معصية، أو شعاراً لهم؛ كان حكمه كذلك»[١].

ويقول ابن كثير رحمه الله عن هذه الجملة «**فهو منهم**»: «ففيه دلالة على النهي الشديد والتهديد والوعيد، على التشبه بالكفار في أقوالهم وأفعالهم، ولباسهم وأعيادهم، وعباداتهم، وغير ذلك من أمورهم التي لم تشرع لنا ولا نُقَرَّر عليها»[٢].

اللهم اجعلنا ممن يتأسون بنبيك وعبادك الصالحين، وجنبنا التشبه بأعداء الدين.

خلاصة القاعدة:

- التشبه بالأفراد كالتشبه بالأقوام، يستويان في المدح والذم.
- المسلم له دين يرسم عقيدته وسلوكه ومظهره، فلم التشبه بالكافرين!
- ما أقبح أن تنصهر شخصية المسلم في شخصية الكافر.
- كن قدوة يُتَشَبَّهُ بك في كل خير ونفع.



(١) اقتضاء الصراط المستقيم: (١/ ٢٧٠) بتصرف يسير.

(٢) تفسير ابن كثير: (١/ ٣٧٤).





القاعدة النبوية الثانية والعشرون:
لا يُلدغ المؤمن من جحرٍ واحدٍ مرتين [1]

إن المؤمن لا تراه إلا قائماً على نفسه: ما أردتُ بكلمة كذا؟ ما أردتُ بأكلة كذا؟ ما أردت بمدخل كذا ومخرج كذا؟...والله لا أعود إلى هذا. (ابن القيم).

هذه قاعدة نبوية محكمة في أبواب الأدب والأخلاق، التي تحث المسلم على أن يكون يقظاً نبيهاً، لقد ذكر أهل العلم في ضبط كلمة (يلدغ) وجهين يحسن التنبيه إليهما؛ لأثرهما في فهم هذه القاعدة:

«**الوجه الأول:** لا يُلدغُ – بضم الغين – على أن **(لا)** نافية، فيكون هذا على وجه الخبر، ومعناه: أن المؤمن هو الكيّس الحازم، الذي لا يؤتى من جهة الغفلة فيُخدع مرةً بعد أخرى ولا يفطن، **والمراد في أمر الدين**.

الوجه الثاني: لا يُلدغِ – بكسر الغين – على أن **(لا)** ناهية، فعلى هذا يكون المعنى: لا يُخْدَعن المؤمنُ، ولا يُقربنّ من ناحية الغفلة، فيقع في مكروهٍ أو شرٍ وهو لا يشعر، وليكن فطناً حذراً، وهذا التأويل يصلح أن يكون لأمر الدين والدنيا»[2].

---

(١) البخاري ح(٥٧٨٢)، مسلم ح(٢٩٩٨)، قال المناوي في (فيض القدير: ٦/ ٤٥٤): «وذا من جوامع كلمه التي لم يسبق إليها».

(٢) ينظر: كشف المشكل من حديث الصحيحين (٣٢٩/٣)، الآداب الشرعية (٣٠٦/١).





إن هذه القاعدة النبوية «أدبٌ شريف، أدّب به النبي ﷺ أمته، ونبههم كيف يحذرون ما يخافون سوءَ عاقبته، وهذا الكلام مما لم يُسبق إليه النبي ﷺ»[(١)] **أي في التعبير عنه،** وإلا فمعناه مركوز في الفطر، ومستقر لدى العقلاء – فضلاً عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام – ولهذا لما طلب إخوة يوسف عليه الصلاة السلام من أبيهم أن يبعث معهم أخاهم بنيامين، قال لهم يعقوب عليه الصلاة والسلام كلمة هي ترجمة حرفية لهذه القاعدة النبوية: ﴿ **قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ** ﴾[يوسف: ٦٤] وفي خواتيم سورة التوبة؛ نعى الله على المنافقين عدم اعتبارهم وادكارهم فقال تعالى: ﴿ **أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ** ﴿١٢٦﴾ ﴾[التوبة: ١٢٦].

ولما بوّب البخاري على هذا الحديث أعقبه بقول معاوية – رضي الله عنه – : (لا حكيم إلا ذو تجربة)، أي: لا تحصل الحِكمة حتى يجرِّب الأمور، ويعثر فيها؛ فيعتبر بها، ويستبين مواضع الخطأ ويجتنبها.

ويروى هذا الحرف بلفظ: **(لا حليم إلا ذو تجربة)** والمعنى: لا يكون حليماً كاملاً إلا من وقع في زلة وحصل منه خطأ؛ فحينئذ يخجل، فينبغي لمن كان كذلك أن يستر من رآه على عيب؛ فيعفو عنه[(٢)].

وكما أن هذا المعنى الذي دلت عليه هذه القاعدة مطلوبٌ في أمر

---

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال: (٩/ ٣٠٧).

(٢) ينظر: فتح الباري: (١٠/ ٥٢٩-٥٣٠).





الدنيا؛ فكذا في أمر الآخرة، فالمؤمن يمتنع من اقتراف السيئات التي تضره مقارفتُها، ثم متى وقع في شيءٍ منها؛ فإنه في الحال يبادر إلى الندم والتوبة والإنابة، ولهذا لما سئل الإمام أحمد بن حنبل – رحمه الله – عن معنى هذه القاعدة النبوية: «**لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين**»، نبّه على معنى شريف من أشرف معانيها، وقلّ من ينتبه له: فقال: إن وقع مرة في ذنب فلا يعد فيه[(1)] ا.هـ.

ومن تمام الاعتبار بهذه القاعدة في هذا الباب: أن يحذر غاية الحذر من ذلك السبب الذي أوقعه في الذنب، كحال من أدخل يده في جُحرٍ فلدغته حَيَّة؛ فإنه بعد ذلك لا يكاد يُدخِل يَده في ذلك الجُحر؛ لما أصابه فيه أول مرة.

وفي التنصيص على «**المؤمن**» في هذا الحديث، إشارة إلى أن الإيمان كما يَحمِلُ صاحبَه على فعل الطاعات، ويرغّبه فيها، ويحزنه لفواتها؛ فكذلك يزجره عن مقارفة السيئات، وإن وقعت بادر إلى النزوع عنها، ولم يَعُد إلى مثل ما وقع فيه.

ومن دلالات هذه القاعدة النبوية:

– الحث على الحزم والكَيْس في جميع الأمور، ومن لوازم ذلك: تعرف الأسباب النافعة ليقوم بها، والأسباب الضارة ليتجنبها.

– والحثّ على تجنب أسباب الرِّيب التي يخشى من مقاربتها الوقوع في الشر.

---

(١) طبقات الحنابلة: (١/١٢٤).





- وأن الذرائع معتبرة، وقد حذّر اللهُ المؤمنين من العود إلى ما زيّنه الشيطان من الوقوع في المعاصي، فقال: ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [النور:١٧]؛ ولهذا فإن من ذاق الشر من التائبين تكون كراهته له أعظم، وتحذيره وحذره عنه أبلغ؛ لأنه عرف بالتجربة آثاره القبيحة»[(١)].

وبعد: فإن المؤمن إن لدغ من جهة توبته، ووقع مرةً أخرى في الذنب، فإن ذلك لا ينبغي أن يحمله على الاستمرار؛ فإن الربّ تواب يحب التوابين، وليعلم أن هذا العودَ للذنب يفتحُ له باباً من أبواب العبودية، والتواضع، والخشوع والذل، والشعور بالضعف والقصور، وفي المقابل: استشعار كمال الله تعالى، وشدة افتقاره إلى ربه، وأن هذا العوْدَ ينبغي أن يورثه رغبةً في كثرة الأعمال الصالحة، ونفرةً قويةً عن السيئات؛ فإن النبي ﷺ قال: «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين»[(٢)].

ولهذا تجد التائب الصادق أثبت على الطاعة، وأرغب فيها، وأشد حذراً من الذنب، مِن كثير من الذين لم يبتلوا بذنب، كما في الصحيحين من حديث أسامة بن زيد، فإنه لما قتل رجلاً بعد أن قال: لا إله إلا الله، فقال النبي ﷺ: «أقتلته بعد أن قال: لا إله إلا الله»؟! أثّر هذا فيه جداً حتى تمنى أنه لم يسلم إلا يومئذ! وبقي هذا الأثر معه إلى أن وقعت الفتنة بين الصحابة

---

(١) بهجة قلوب الأبرار: (ص: ١٥٨).

(٢) مسلم ح(٢٧٤٩)عن أبي هريرة.





رضي الله عنهم، فامتنع أن يقتل أحداً يقول: لا إله إلا الله»[(١)].

ومما سبق يتبين أن الإيمان لا يتفق مع الغفلة، بل يقتضي الحذر والحيطة.

وينبغي للمؤمن أن يفرق بين سلامة القلب وبين البَلَه والغفلة، «فسلامة القلب تكون من عدم إرادة الشر بعد معرفته، فيسلم قلبه من إرادته وقصده لا من معرفته والعلم به، وهذا بخلاف البله والغفلة؛ فإنها جهل وقلة معرفة، وهذا لا يُحمد؛ إذ هو نقص، وإنما يَحمَد الناسُ من هو كذلك لسلامتهم منه، والكمال أن يكون القلب عارفاً بتفاصيل الشر، سليماً من إرادته، قال عمر بن الخطاب –رضي الله عنه–: «**لست بخِبٍ ولا يخدعني الخِب**»، وكان عمر أعقل من أن يُخْدَع، وأورع من أن يَخْدع»[(٢)].

ودلّت القاعدة: على أن الذين لا يتعظون بالمَثُلات، ولا يستفيدون من التجارب؛ لم يكمل الإيمان بعدُ في نفوسهم، وإن كانوا في أنفسهم صالحين، ولكثير من العبادات محققين، فالمؤمن كيّس فطِن، شيمته الاعتبار بالتجارب.

وتتسع دلالات هذه القاعدة النبوية لتشمل الدولة والأمة بأكملها، فإن من علامة توفيق الله للدول والأمة والأئمة والحكام: أن يعتبروا بما مضى من الحوادث والتجارب، التي مرّت بهم أو مرّت بغيرهم، ولهذا كان من لطيف خطابات الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – لأممهم: تذكيرهم بما جرى

(١) منهاج السنة النبوية: (٢/ ٤٣١-٤٣٢).

(٢) كتاب الروح (٢٤٣) .





لغيرهم، فهذا هود يقول لقومه: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾ [الأعراف: ٦٩]، وهذا صالح يذكر قومه: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ﴾ [الأعراف: ٧٤]، وتأمل قوله تعالى: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١٣٧﴾ [آل عمران: ١٣٧] وما جاء في معنى هذه الآية الكريمة؛ فإنك تجد من أعظم فوائده وعبره: عدم تكرار الأخطاء، والاعتبار بأسباب هلاك الأمم، وسقوط الدول.

ومن دلالات هذه القاعدة: الإرشاد إلى الاستشارة، سواء في أمر الدين أو الدنيا، وسواء على مستوى الفرد أو الأمة؛ فإن الأمور فيها العظيم وفيها الحقير، وفيها الخاص وفيها العام، والخطأ في بعضها ليس كالخطأ في الآخر، والاستشارة تقلل فرصة الخطأ، وإن وقع لم يندم؛ لأنه بذل وسعه وطاقته.

وبالجملة: فهذه القاعدة النبوية الشريفة شاملة لأمر الدين والدنيا، وأمر الفرد والجماعة.

خلاصة القاعدة:

- المؤمن ينبغي أن يتميز بالحيطة والحذر.
- الناجح: من يبني مستقبله بدروس الماضي والحاضر، والفاشل: من يهدم مستقبله بأخطاء الماضي والحاضر.
- للشيطان مصائد .. فما أدركت منها فاحذر أن تقع فيه مرة أخرى.







القاعدة النبوية الثالثة والعشرون:

من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب [(١)]

> مِن الحب في الله عز وجل حبُّ أولياء الله، وهو حب الأتقياء الأولياء منهم، المعلّمون لدين الله عز وجل العاملون به. (ابن عبد البر)

هذه قاعدة جليلة، تفيض على قلوب المؤمنين أنهاراً من اليقين والإخلاص لربٍ يدافع عن أحبابه، ويحمي أولياءه، إنها قاعدة في الحب! وأي حبٍ هذا؟ لو ذاقه امرئ القيس لتبرأ من: (قفا نبكِ)، ولو عرفه مجنون ليلى لشفي من جنونه ونجا، ولو عايشه عنترة لما ذكر عند التقاء الرماح غير ربه العزيز الأعلى.

تأمل هذه الجملة المهيبة! «**من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب**» فقد أخبر الله تعالى – ولي المؤمنين – أن معاداة أوليائه معاداة له ومحاربة له، والويل لمن كان متصدياً لعداوة الله، ومحاربة مالك الملك، فليبشر بالخذلان، وفي المقابل: فمن تكفل الله بالدفاع عنه فهو منصور ولا بد، «فهذه سنة الله في خلقه في قديم الدهر وحديثه: أنه ينصر عباده المؤمنين في الدنيا، ويقر أعينهم ممن آذاهم»[(٢)].

---

(١) ولعلامة اليمن الشوكاني رحمه الله كتاب قيّم في شرح هذا الحديث، جدير بالمطالعة، وهو: (قطر الولي في حديث الولي ولاية الله والطريق إليها).

(٢) تفسير ابن كثير: (٧/ ١٥٠).





فمن هو هذا الولي الذي تكفل الله بالدفاع عنه، وبأن ينتقم من أعدائه؟

لقد بين صاحب الشأن سبحانه في كتابه الكريم صفة أوليائه فقال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢ – ٦٣].

فالإيمان والتقوى هما شرطا ولاية الحق سبحانه، فمن آمن بالله واتقاه؛ تولاه الله.

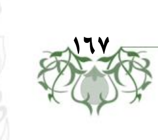
«ودل قوله: ﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ على أن التقوى ملازمة لهم؛ أخذاً من صيغة (كانوا)، وأنها متجددة منهم؛ أخذاً من صيغة المضارع في قوله: (يتقون) – قال ابن عاشور –: وقد كنت أقول في المذاكرات منذ سنين خلت في أيام الطلب: أن هذه الآية هي أقوى ما يعتمد عليه في تفسير حقيقة الولي شرعاً، وأن على حقيقتها يحمل معنى قوله في الحديث القدسي: «قال الله تعالى: من عادى لي ولياً فقد آذنته بحرب»[(١)].

إن «الولي» في اللغة مشتق من (الولْي) وهو: القرب، كما أن العدو من (العَدْو) وهو: البعد، فولي الله من والاه بالموافقة له في محبوباته ومرضياته، وتقرب إليه بما أمر به من طاعاته[(٢)].

---

(١) التحرير والتنوير: (١١/ ٢١٨)بتصرف يسير.

(٢) مجموع الفتاوى: (١١/ ٦٢).





والولي لا يكون ولياً لله إلا بمتابعة الرسول باطناً وظاهراً، فعلى قدر المتابعة للرسول يكون قدر الولاية لله ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١][(١)].

بهذا نعلم أن «ولاية الله سبحانه وتعالى لا تأتي بالدعوى – كما يفعله بعض الدجالين الذين يموهون على العامة بأنهم أولياء لله وهم أعداء والعياذ بالله – فتجد في بعض البلاد الإسلامية أناساً يموِّهون للعامة؛ يقولون: نحن أولياء! ثم يفعل من العبادات الظاهرة ما يموِّه به على العامة وهو من أعداء الله، لكنه يتخذ من هذه الدعوة وسيلة إلى جمع المال، وإلى إكرام الناس له، وإلى تقربهم إليه وما أشبه ذلك»[(٢)].

فإن قلتَ: هل من شرط الولي أن لا يقع في ذنب؟

فالجواب: لا! فليس «من شرط أولياء الله المتقين ألا يكونوا مخطئين في بعض الأشياء خطأً مغفوراً لهم؛ بل ولا من شرطهم ترك الصغائر مطلقاً»[(٣)]، بل قد يقعون في كبيرة من الكبائر؛ فقد قال الله عن أوليائه المتقين: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، إذا عرفت هذا؛ فما هي **صور معاداة أولياء الله**؟ حتى يسعى المسلم لاجتنابها، وينفض عنه ما علق به من غبارها.

---

(١) مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية (جمع رشيد رضا): (٦٢/٤).

(٢) شرح رياض الصالحين للعثيمين: (٦٠/٢).

(٣) مجموع الفتاوى: (١١/ ٦٦).





إن معاداة أولياء الله تقع من أربعة أوجه:

أحدها: أن يعاديهم الإنسان عصبية لغيرهم، كما يعادي الرافضي أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، وهؤلاء من أخسر الناس حظاً يوم القيامة؛ كما تحدثنا سورة الأحزاب: ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأحزاب: ٦٧، ٦٨]، وتأمل ماذا جاء بعد هذا مباشرة؟ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأحزاب: ٦٩] دفاع عن وليٍّ من أولياء الله تعالى.

ثانيها: أن يعاديهم بمخالفة مذهبهم في الاعتقاد والإيمان، كما يعادي أهلُ البدع أهلَ الحق، قال الحق سبحانه: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [النساء: ١١٥] فانظر كيف ذكرهم بعد ذكر من يشاقق الرسول المعصوم!

ثالثها: يعاديهم باحتقارهم والتنقص منهم؛ فيكون الفعل بهم فعل الأعداء، كما كان بعض الجهال يحصب أويساً القرني، بل كما كان أبو لهب وزوجته يضعان الأذى في طريق سيد الأولياء ﷺ.

رابعها: أنه قد يكون بين الولي وبين الناس معاملات وخصومات[1]؛ فيعاديه لأمور دنيوية، وهذه قد لا يسلم منها أحدٌ، ولا هي مجال حديثنا هنا.

وقد نبه على هذا الوزير ابن هبيرة فقال: «ولا أرى المعنى إلا من

---

(١) أصل هذه الأربعة في: كشف المشكل (٣/ ٥٢٥)لابن الجوزي.





عاداه لأجل ولاية الله، وأما إذا كانت لأحوال تقتضي نزاعاً بين وليين لله – محاكمة أو خصومة راجعة إلى استخراج حق غامض – فإن ذلك لا يدخل في هذا الحديث؛ فإنه قد جرى بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما خصومة، وبين العباس وعلي رضي الله عنهما، وبين كثير من الصحابة، وكلهم كانوا أولياء لله عز وجل»[١].

إن التعدي على أولياء الله من المؤمنين ذنبٌ شنيع، ودَينٌ ثقيل يحمله صاحبه على كاهله، «ولهذا غضب الله لجبريل على من عاداه، فقال: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾»[٢] وأين سيفر هذا المؤذي لأولياء الله – والساعي في إذلالهم – من قول الله: «فقد آذنته بالحرب»؟![٣]

فقد يصيبه الله ببلية، أو يرزؤه بمرض، أو يفجعه بمهانة وذلة بعد عز، أو يسلط عليه عدواً، أو يعذبه بحبيب...! وما يعلم جنود ربك إلا هو!

قال السدي: لم يبعث الله رسولاً قط إلى قومٍ فيقتلونه، أو قوماً من المؤمنين يدعون إلى الحق فيُقتلون، فيذهب ذلك القرن؛ حتى يبعث الله لهم من ينصرهم، فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم في الدنيا، قال: فكانت الأنبياء والمؤمنون يُقتلون في الدنيا، وهم منصورون فيها.[٤]

---

(١) شرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد (ص: ١٢٧)نقلاً عن صاحب (الإفصاح) ابن هبيرة.

(٢) تفسير ابن كثير: (١/ ٣٤٢).

(٣) «وقد يُقال: وكيف يتصور الحرب بين الخالق والمخلوق؟ والمحارب مناظر، وهذا المخلوق في أسر قبضة الخالق؟ فالجواب: أن الإنسان إنما خوطب بما يعقل، ونهاية العداوة الحرب، ومحاربة الله عز وجل للإنسان أن يهلكه، وتقدير الكلام: فقد تعرّض لإهلاكي إياه». كشف المشكل: (٣/ ٥٢٦)بتصرف يسير.

(٤) تفسير ابن كثير: (٧/ ١٥٠).





ولله در البقاعي – رحمه الله – حين أخذ العبرة من قول الحق سبحانه: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢﴾ [الفيل: ٢] فقال: «وهذا مشير إلى أن كل من تعرّض لشيء من حرمات الله – كبيت من بيوته أو ولي من أوليائه أو عالم من علماء الدين وإن كان مقصراً نوع تقصير – وقع في مَكْرِه، وعاد عليه وبالُ شرِّه «**من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب**»»[1].

إذا تبين هذا؛ فقد أخذ أهل العلم بمفهوم هذا الحديث فقالوا: «وإذا ثبت هذا في جانب المعاداة؛ ثبت في جانب الموالاة: فمن والى أولياء الله أكرمه الله»[2].

اللهم اجعلنا من أوليائك المتقين، ومن حزبك المفلحين، إنك سميع قريب.

خلاصة القاعدة:

- إيمان + تقوى = ولاية.
- ليس من لوازم الولاية ثوب ممزق، وجسد نحيل، لكن الولاية شيء في القلب يصدقه العمل.
- حينما يعظم الغنم يعظم الغرم، فمن والى أولياء الله حاز الفضل من الله، كما أن من عادى أولياء الله حرَبه الله.
- ولي الله منصور، وعدو الله مخذول.





(١) نظم الدرر: (٢٢/ ٢٥٥).

(٢) فتح الباري: (١١/ ٣٤٣).





القاعدة النبوية الرابعة والعشرون: من غشنا فليس منا

> أول النصح أن ينصح الإنسان نفسَه، فمن غشها فقلما ينصح غيرَه!
> (الراغب الأصفهانى)

هذه من القواعد النبوية المحكمة في شيء من أدب التعامل مع الخلق، وكان لورودها سبب، وهو أن النبي ﷺ مرَّ على صُبرة طعام[1]، فأدخل يده فيها؛ فنالت أصابعُه بللاً! فقال: ما هذا يا صاحب الطعام؟! قال: أصابته السماءُ يا رسول الله! قال: أفلا جعلتَه فوق الطعام؛ كي يراه الناس؟! «من غشنا فليس منا»[2].

هكذا أطلق النبي عليه الصلاة والسلام هذه القاعدة العظيمة، وأعلن هذه العقوبة النفسية الأليمة، لمن يغش الناس في معاملته وأخلاقه، «فالذين يَغشون في البيع أو في الشراء يرتكبون محظورين:

المحظور الأول: العدوان على إخوانهم المسلمين؛ بأخذ أموالهم بغير حق.

---

(١) وفي التهذيب: وإذا أطلق أهل الحجاز لفظ (الطعام) عنوا به البر خاصة، وفي العُرف: الطعام اسم لما يؤكل، مثل: الشراب؛ اسم لما يشرب.[المصباح المنير: ٥/ ٤٠٦].

(٢) مسلم ح(١٠١).





المحظور الثاني: أنهم ينالون تبرؤ النبي ﷺ منهم، وبئس البضاعة بضاعة يلتحق فيها صاحبها بالبراءة من رسول الله ﷺ!: «من غشنا فليس منا»[(١)].

يا له من وعيد ترتعد له فرائص المؤمن الذي يحب النبي ﷺ ويحب دينه! وسبحان من آتى نبيه ج جوامع الكلم! ذلك أن قوله: «من غشنا فليس منا» كلمةٌ جامعة في كل غاش»[(٢)] في بيع أو شراء، أو علم أو تعليم، أو حُكم، أو تربية، أو نصيحة، أو أي معاملة كانت؛ فيحرم فيها الغش والتدليس[(٣)].

ومع هذا الوعيد الشديد، إلا أنه من المؤلم أن يرى الإنسان خرقاً ظاهراً لهذه الحرمة في صورٍ كثيرة، منها:

١- الغشّ في البيوع، والإجارات، والديون، والأنكحة، والذبائح، وغيرها من المعاملات، والعقود، وعدم تبيينها وتوضيحها، أوترك العمل بما فيها، أو تغرير بعض الناس بعقود مزيفة، أو ضمانات كاذبة يأكل بها من أموال المسلمين بغير حق.

٢- الغشّ في النّصح، وإبداء الحقائق، والنقص في النصيحة، أو

---

(١) شرح رياض الصالحين للعثيمين: (٢/ ١١٩) بتصرف يسير.

(٢) مجموع الفتاوى: (٢٩/ ٣٧١).

(٣) حتى قال الذهبي في: تاريخ الإسلام(١١/ ٥١) بعد ذِكر أحد مدلسي الحديث: «قلت: والمدلس داخل في عموم قوله: ﴿ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا﴾[آل عمران: ١٨٨]، وداخل في قوله عليه السلام: «من غشنا فليس منا»؛ لأنه يوهم السامعين أن حديثه متصل! وفيه انقطاع، هذا إذا دلس عن ثقة، أما إذا دلس خبره عن ضعيف يوهم أنه صحيح؛ فهذا قد خان الله ورسوله، وقد قال عبدالوارث بن سعيد: التدليس ذل».





الكذب فيها، أو يخفي عن المستنصح أموراً كان من الواجب إظهارها.

٣- الغشّ للرّعيّة الصغرى أو الكبرى، وتأمل هذا الحديث الذي يقشعر له بدن من يرجو الله واليوم الآخر، ففي الصحيحين من حديث سليمان بن يسار رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «ما من عبدٍ يسترعيه الله رعيةً، يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته؛ إلا حرّم الله عليه الجنة»[(١)] فدخل في هذا: الحاكم الغاش لرعيته، والأب الغاش لأولاده وأهله، والأم الغاشة لزوجها وأولادها، وكل مسئول عن شأن من شئون المسلمين كـ: المدراء والمدرسين، والمفتشين، وغيرهم.

وبقدر المسؤولية التي يتلقدها المسؤول تعظم جريرة الغش، فمن يغش أسرة مكونة من أفراد معدودين ليس كمن يغش قبيلة، ومن يغش الناس في دائرة حكومية ولا ينصح لهم، ليس كمن يغش في وزارة، وهكذا، فليتق الله امرؤ في نفسه، وليتذكر ساعة وقوفه بين يدي مولاه، حيث لا ينجيه يومئذٍ إلا الصدق، وليس إلا الصدق.

لقد حفل تاريخنا وواقعنا بنماذج مشرقة من نصح الناصحين، وحرصهم على البعد عن أدنى شيءٍ يمتُّ إلى الغش بصلة، ومن ذلك:

١- روى مسلم في صحيحه عن جرير رضي الله عنه أنه قال: بايعت النبي ﷺ على النصح لكل مسلم، ما استطعت.

وهذه البيعة ظهر أثرها في حياة جرير رضي الله عنه، وإليكم موقفاً يجلي ذلك:

---

(١) البخاري ح(٧١٥٠)، مسلم ح(١٤٢)واللفظ له.





فقد روى الطبراني في «المعجم الكبير» من حديث إبراهيم بن جرير البجلي، قال: غدا أبي إلى الكناسة ليبتاع منها دابة، وغدا مولىً له فوقفَ في ناحية السوق، فجعلتْ الدواب تمر عليه، فمر به فرس فأعجبه، فقال: لمولاه انطلق فاشتر ذلك الفرس، فانطلق مولاه، فأعطى صاحبه به ثلاثمِائة درهم، فأبى صاحبه أن يبيعه فماكسه، فأبى صاحبه أن يبيعه، فقال: هل لك أن تنطلق إلى صاحب لنا ناحية السوق؟ قال: لا أُبالي! فانطلقا إليه، فقال له مولاه: إني أعطيت هذا بفرسه ثلاثمائة درهم فأبى، وذكر أنه خير من ذلك، قال صاحب الفرس: صدق أصلحك الله! فترى ذلك ثمناً؟ قال: لا! فرسك خير من ذلك، تبيعه بخمسمائة؟ حتى بلغ سبعمائة درهم أو ثمانمائة، فلما أن ذهب الرجل أقبل على مولاه، فقال له: ويحك انطلقت لتبتاع لي دابة، فأعجبتني دابة رجل، فأرسلتك تشتريها، فجئت برجل من المسلمين يقوده وهو يقول: ما ترى، ما ترى! وقد «بايعت رسول الله ﷺ على النصح لكل مسلم»[1].

٢- وهذا موقف آخر يجلي صدق المعاملة، وحسن الأداء: فقد باع ابنُ سيرين شاةً له، فقال للمشتري: أبرأ إليك من عيب فيها! قال: وما هو؟ قال: تقلب العلف برجلها!

٣- وهذا موقف ثالث، صاحبه الحسن بن صالح رحمه الله، فقد باع جاريةً، فقال للمشتري: إنها قد تنخمتْ مرةً عندنا دماً!

(١) «المعجم الكبير» للطبراني: (٢/ ٣٣٤).





فهذا من دقائق الإعلام والبيان لما لا يعلمه المشتري أو المستعمِل، وهو من النصح والصدق، وذلك يكون عن التقوى والورع في البيوع والإجارات ونحوها، ويكون الكسب عن ذلك أحلّ وأطيب، فليجتنب المسلم محرَّمَ ذلك كله، وكلَّ مكروه، فهذه سيرة السلف وطريقة صالحي الخلف.(١)

وبعدُ: ألا فليعلم كل من وقع في غشٍّ مسلمٍ في أي نوع من أنواع الغش – وهو يعلم –؛ أنه سيُسأل يوم يقوم الناس لرب العالمين، عن علمه ذلك: ماذا عملت به؟(٢) كما يُسأل من كان على علمٍ من الدين والإيمان.(٣)

فالغاش لن يجد في طريقه إلا كل عاقبة وخيمة، ولن يرجع من غشه للناس إلا ببراءة محمد ﷺ منه، وخُبْثِ النفس ودناءتها، ونقص الإيمان، وحرمان البركة في الرزق، وبغضةٌ في قلوب الخلق – كما هو مشاهد «وقد اطردت سنته الكونية سبحانه فى عباده، بأن من مكر بالباطل مكربه، ومن احتال احتيل عليه، ومن خادع غيره خدع. قال الله تعالى: قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ [فاطر: ٤٣]، فلا تجد ما كراً إلا وهو ممكور به، ولا مخادعا إلا وهو مخدوع، ولا محتالا إلا وهو محتال عليه»(٤).

فلينج كل مسلم ومسلمة بنفسه، فمن غش مسلماً في قولٍ أو فعلٍ، أو مال، أو غير ذلك؛ فليتحلله اليوم، قبل أن لا يكون درهمٌ ولا دينار، وليطلب مسامحته ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

---

(١) قوت القلوب: (٢/ ٤٤٥)بتصرف.

(٢) حديث (لا تزول...وعن علمه فيم فعل) عند الترمذي ح(٢٤١٧) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) ينظر: قوت القلوب(٢/ ٤٤٦).

(٤) إغاثة اللهفان (١/٣٦٠).





وتأمل في هذه القصة التي رواها البخاري عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: «كان لأبي بكر غلام يُخرج له الخراج، وكان أبو بكر يأكل من خراجه، فجاء يوماً بشيء فأكل منه أبو بكر، فقال له الغلام: أتدري ما هذا؟ فقال أبو بكر وما هو؟ قال: كنت تكهّنت لإنسان في الجاهليّة، وما أُحسن الكهانة، إلّا أنّي خدعته فأعطاني بذلك! فهذا الّذي أكلتَ منه؛ فأدخل أبو بكر يده فقاء كلّ شيء في بطنه)![1]، وما أحسن قول أبي العتاهية:

لــيس دنيــاً إلا بــدين، وليــ ـس الدين إلا مكارم الأخـلاق
إنمــا المكــر والخديعــة في النــار هما مـن خصـال أهـل النفـاق

وَأخرج ابن أبي الدنيا عَن يزِيد العيص قال: سَأَلت مُوسَى بن أعين عن قوله عز وجل ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ قال: تنزهوا عَن أشياء من الحَلَال مَخَافَة أَن يقعوا فِي الحرَام؛ فسماهم الله متقين.[2]

خلاصة القاعدة:

- (فليس منا) كيف يرضى بهذا الغاش!
- ما ترتب على الغش كلُّه شر وممحوق البركة.
- بين الغش والصدق: مراقبة الله.



(١) البخاري ح(٣٦٢٩).

(٢) الدر المنثور: (٣/ ٥٧).






القاعدة النبوية الخامسة والعشرون:
إن الله كتب الإحسان على كل شيء[1]

«كتَبَ الإحسان على كلِّ شيء» ولم يقل: إلى كل شيء! أي: أن الإحسان ليس خاصاً بشيء معين من الحياة، بل هو في جميع الحياة.

هذه لَبِنة من لبنات الكمال في بناء هذا الدين العظيم، المبني على كمال الحكمة، وكمال العلم، وكمال الرحمة.

«**إن الله كتب الإحسان على كل شيء**» هل تأملتَ هذا العموم «**على كل شيء**»؟

هذا عموم لا ينخرم منه شيءٌ! فلنلقِ نظرةً على بعض ما يشمله معنى هذه القاعدة الجليلة:

١- فالإحسان في عبادة الله، وفي العلاقة مع الله، هو من أعظم هذه المعاني التي تشملها هذه القاعدة، وهو الذي فسّره النبي ﷺ بقوله: «أن تعبدالله كأنّك تراه»، ومن وفّق للإحسان فقد بلغ من الكمال مبلغاً عظيماً من مقامات العبودية.

---

(١) مسلم ح(١٩٥٥).





٢- الإحسان إلى الخلق من الآدميين، في التعامل معهم، وعلى رأسهم الوالدان، ثم من له حق على الإنسان – من قريب، وشيخٍ، وجار، وصاحب – قال تعالى: ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾[النساء: ٣٦] **فأمر بالإحسان إلى جميع هؤلاء.**

وسبحان الله! حتى في حال القتل والذبح – إذا استحقه الإنسان – فيجب على القاتل أن يحسن القتل والذبح، ولا يجوز له أن يقتله قتلة يتعذب بها.

٣- الإحسان إلى الخلق من الحيوانات، ومن اللافت للنظر أن النبي ﷺ نص على هذا النوع من الإحسان؛ وفي ذلك فائدتان:

الأولى: التنبيه على أن الإحسان معنى عام لا يتخلف عنه آدمي ولا حيوان، ولهذا لما أساءت المرأة في حبسها لتلك الهرة فلم تطعمها ولم تتركها تأكل من خشاش الأرض؛ عذّبها الله في النار، وفي مقابل ذلك: غفر الله لتلك المرأة البغيّ التي أحسنت إلى ذلك الكلب!

الثانية: التنبيه بالأدنى على الأعلى، فإذا كان هذا مطلوباً في حق الحيوان، فكيف بالإنسان؟

فإن سألتَ – أيها القارئ الكريم – عن معنى الإحسان الذي نتحدث عنه؟ فيقال:





الإحسان: هو بذلُ جميع المنافع من أي نوعٍ كان، لأي مخلوق يكون، ولكنه يتفاوت بتفاوت المحسَن إليهم، وحقهم ومقامهم، وبحسب الإحسان، وعظم موقعه، وعظيم نفعه، وبحسب إيمان المحسن وإخلاصه، والسبب الداعي له إلى ذلك.

ومن أجَلِّ أنواع الإحسان: الإحسان إلى من أساء إليك بقول أو فعل، قال تعالى: ﴿ **ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾** ﴾ [فصلت:٣٤-٣٥]، ومن كانت طريقته الإحسان أحسن الله جزاءه: ﴿ **هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾** ﴾ [الرحمن:٦٠]، ﴿ **لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ** ﴾ [يونس:٢٦]، ﴿ **لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ** ﴾ [الزمر:١٠]، ﴿ **إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ** ﴾ [الأعراف: ٥٦] أي: المحسنين في عبادة الله، المحسنين إلى عباد الله»[(١)].

واعلم أن الإحسان له ميادين عدة يتجلى فيها، لا يحصره ميدان واحد، ولا تسعه حلْبة[(٢)] واحدة من حَلَبات هذه الحياة الدنيا، دعونا نتأمل في أهم ميادين الإحسان التي نص عليها القرآن:

١- الإحسان في: مواجهة الملمّات بالصّبر عليها، قال تعالى: ﴿ **وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾** ﴾ [هود: ١١٥].

---

(١) بهجة قلوب الأبرار: (ص١٤١-١٤٢)بتصرف.

(٢) والحَلْبَة بالتَّسْكِين: خَيْلٌ تُجْمع للسِّباقِ من كلِّ أَوْبٍ لا تَخْرُجُ من مَوْضِعٍ واحِدٍ ولكن من كلِّ حَيٍّ. [لسان العرب: ١/ ٣٣٢].





٢– في: أداء الدّية لوليّ القتيل، قال تعالى: ﴿ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ﴾[البقرة:١٧٨].

٣– في: معاملة المطلّقات أو من ينوي طلاقهنّ، قال تعالى: ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ ﴾ [البقرة:٢٣٦]، وقال سبحانه: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ﴾ [البقرة:٢٢٩].

٤– في: الحرب والجهاد، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [البقرة:١٩٥].

وهنا يذكر القرآن الكريم معنى آخر للإحسان، فالأمم لا تخدم رسالتها بالبخل وكراهية الإنفاق في سبيل الله! والحروب قديماً وحديثاً تتطلّب مالاً كثيراً ... والعرب والمسلمون مكلّفون بمعرفة هذه الحقيقة، ولن يَسلَم لهم دينُهم وتبقى لهم بلادهم حرّة أبيّة إلّا إذا توسّعوا في الإنفاق الحربيّ، وأحسنوا تهيئةَ كلّ شيءٍ لكسب المعركة، ويشهد لذلك ما جاء في آيات أخرى عن حقيقة الإحسان، ودائرته الرّحبة، فهي تتطلّب الصّمود والبسالة إلى الرّمق الأخير، يقول المولى عزّ وجلّ: ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ (آل عمران: ١٤٧– ١٤٨)[1].

---

(١) المحاور الخمسة للغزالي ص(١٩٣) بتصرف.





٥- ونحتاج إلى الإحسان في الحوار الفكريّ والتّواصل الثّقافيّ، وقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿ **وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ** ﴾[الإسراء:٥٣].

٦- ونحتاج إلى الإحسان في التّحاور بين المسلمين وأهل الكتاب، قال تعالى: ﴿ **وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ** ﴾ [العنكبوت:٤٦].

٧- ونحتاجه في معاملة اليتامى والضّعفاء، يقول سبحانه: ﴿ **وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ** ﴾ [الأنعام:١٥٢].

٨- ونحتاجه في العلاقات السّياسيّة والحربيّة، قال تعالى: ﴿ **حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًاۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ** ﴾ [الكهف:٨٦- ٨٨].

٩- ونحن مضطرون إليه في العلاقات الاجتماعيّة - وخاصّة ما يتعلّق بتبادل التّحيّة وردّ السّلام - يقول تعالى: ﴿ **وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ** ﴾[النساء:٨٦].

١٠- ونحن محتاجون إلى الإحسان في العلاقات الاقتصاديّة، يقول المولى عزّ وجلّ في قصّة قارون: ﴿ **وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ** ﴾ [القصص:٧٧]، ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ **وَأَنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِۛ وَأَحْسِنُوٓاْۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾** ﴾ [البقرة:١٩٥] لقد تمّ الرّبط في هذه الآية الكريمة بين الإنفاق - وهو المظهر الاقتصاديّ للإحسان - وبين التّهلكة (خراب المجتمع)، وسبب ذلك كما يقول بعض الباحثين: إنّ





المجتمعات الّتي تقوم على الاستغلال والاحتكار تفرز الطّبقيّة، وتبذر بذور الصّراع الاجتماعي في الدّاخل، وتؤدّى إلى الصّراعات العالميّة في الخارج، وينتج عن ذلك شقاء الفريقين جميعاً، المستغِلّون والمستغَلّون.

إنّ تمكّن هذه الآفات الاجتماعيّة في كلتا الطّبقتين هو التّهلكة الّتي تشير إليها الآية الكريمة وتحذّر منها وتدعو إلى معالجتها بالإحسان والإنفاق[(١)].

وهكذا نرى الإحسان يشمل الفرد والمجتمع، والدّولة والحياة بأسرها، وأنّه لن تقوم تربية راشدة إلّا إذا غرسنا معنى الإحسان في النّفوس على أنّه من محابّ الله تعالى، وقد تضمّن الإحسان كما رأينا: النّوايا والمقاصد والعبادات، كما تناول الأقوال والأفعال، ليس هذا فحسب؛ وإنّما شمل أيضاً الإحسان إلى المخلوقات كافّة من حيوان وجماد ونبات»[(٢)].

خلاصة القاعدة:

- ليكن لك في كل ميدان من ميادين الإحسان نصيب.
- أحسن ثم لا يضرك مع من أحسنت؛ فالإحسان كله خير.
- الإحسان طريق سالك إلى الجنة.
- كل أنواع الإحسان ومتعلقاته تتوافق ولا تتخالف، وتتكامل ولا تتآكل.



(١) باختصار وتصرف عن (فلسفة التربية الإسلامية: ص١٤٣) د .ماجد عرسان الكيلاني.

(٢) نضرة النعيم: (٢: ٧٤)بتصرف.







القاعدة السادسة والعشرون:
ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاءً

> الحق أن مَن وثِق بالله وأيقن أن قضاءه عليه ماضٍ لم يقدح في توكله تعاطيه الأسبابَ اتباعاً لسنته وسنة رسوله؛ فقد ظاهر نبي الله بين درعين، ولبس على رأسه المغفر. (الشوكاني)

هذه قاعدة من القواعد النبوية المحكمة في أبواب العلاج الحسي والمعنوي، إنها قاعدة ترسم البسمة على شفتي كل مريض، وتبعث الأمل في قلب كل مبتلى، وتمسح الدمعة عن خدِّ كل مصاب، وتفتح الآفاق لكل من يعاني مشكلة معنوية في حياته الخاصة والعامة.

قال القرطبي: «هذه الكلمة صادقة العموم؛ لأنها خبر عن الصادق البشير عن الخالق القدير ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٤ ﴾ فالداء والدواء خلقه، والشفاء والهلاك فعله، وربْطُ الأسباب بالمسببات حكمته وحُكْمه، فكل ذلك بقدرٍ لا مَعدِل عنه».(١)

فإن قيل: ما معنى الإنزال المذكور في هذه القاعدة: «ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء»؟

يجيب على ذلك الحافظ ابن حجر رحمه الله، بعد أن ذكر عدة أحاديث

---

(١) فيض القدير: (٢/ ٢٥٦).





في هذا الباب؛ فيقول: «وفي مجموع هذه الألفاظ ما يُعرف منه أن المراد بالإنزال في حديث الباب هو: إنزال علم ذلك على لسان المَلَك للنبي ﷺ مثلاً، أو عبَّر بالإنزال عن التقدير»(١).

إن هذه القاعدة «أصلٌ عظيمٌ ثابت بالكتاب والسنة، ويؤيده العقلُ والفطرة؛ فالمنافع الدينية والدنيوية والمضار كلها بقضاء الله وتقديره، قد أحاط بها علماً، وجرى بها قلمُه، ونفذت بها مشيئتُه، ويسّر العبادَ لفعل الأسباب التي توصلهم إلى المنافع والمضار، فكلٌ ميسّر لما خلق له – مِن مصالح الدين والدنيا، ومضارهما – والسعيد من يسَّره اللهُ لأيسر الأمور وأقربها إلى رضوان الله، وأصلحها لدينه ودنياه، والشقي من انعكس عليه الأمر.

وعموم هذا الحديث يقتضي: أن جميع الأمراض الباطنة والظاهرة لها أدوية تقاومها، تدفع ما لم ينزل، وترفع ما نزل بالكلية، أو تخففه.

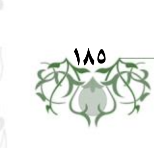
وفي هذا: الترغيب في تعلّم طب الأبدان(٢)، كما يُتعلم طبُّ القلوب، وأن ذلك من جملة الأسباب النافعة، وجميعُ أصول الطب وتفاصيلُه، شرحٌ لهذا الحديث؛ لأن الشارع أخبرنا أن جميع الأدواء لها أدوية، فينبغي لنا أن نسعى إلى تعلمها، وبعد ذلك إلى العمل بها وتنفيذها.

وقد كان بعض الأمراض يظن كثيرٌ من الناس أنه ليس له دواء – كالسِّل ونحوه – وعندما ارتقى علم الطب، ووصل الناس إلى ما وصلوا إليه

---

(١) فتح الباري: (١٠/ ١٣٥).

(٢) فتح الباري (١٠/ ١٣٤): والطب نوعان: نوع لا يحتاج إلى فكر ونظر بل فطر الله على معرفته الحيوانات، مثل ما يدفع الجوع والعطش، ونوع يحتاج إلى الفكر والنظر؛ كدفع ما يحدث في البدن مما يخرجه عن الاعتدال».





من علمه؛ عرف الناسُ مصداق هذا الحديث، وأنه على عمومه[(١)] – إلا الهرم والموت فلا شفاء لهما.

وأصول الطب: تدبير الغذاء؛ بأن لا يأكل حتى تصدق الشهوةُ، وينهضم الطعامُ السابق انهضاماً تاماً، ويتحرى الأنفع من الأغذية، وذلك بحسب حالة الأقطار والأشخاص والأحوال، ولا يمتلئ من الطعام امتلاء يضره مزاولتُه، والسعيُ في تهضيمه، بل الميزان قوله تعالى: ﴿ **وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا** ﴾[الأعراف: ٣١] [(٢)].

ومن القصص التي يَحسُن إيرادها في هذا المقام: أنه نُقل أن الرشيد كان له طبيب نصراني حاذق، فقال لعلي بن الحسين بن واقد: ليس في كتابكم من علم الطب شيء! فقال علي: قد جمع الله تعالى الطب في نصف آية من كتابنا! قال: ما هي؟ قال: قوله تعالى: ﴿ **وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا** ﴾ قال النصراني: ولا يؤثر عن نبيكم شيء من الطب! فقال: قد جمع رسولُنا علمَ الطب في ألفاظ يسيرة، قال: وما هي؟ قال: «المعدة بيت الداء، والحمية رأس الدواء، وعوِّدوا كل بدن ما اعتاد»[(٣)] فقال النصراني: ما ترك كتابُكم ولا نبيُكم لجالينوس طباً![(٤)]

---

(١) قال ابن حجر: «ويدخل في عموم الأحاديث أيضاً الداء القاتل الذي اعترف حذاق الأطباء بأن لا دواء له، وأقروا بالعجز عن مداواته، ولعل الإشارة في حديث ابن مسعود بقوله: «وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ» إلى ذلك فتكون باقية على عمومها» فتح الباري: (١٠/ ١٣٥).

(٢) بهجة قلوب الأبرار: (ص ١٤٧–١٤٨).

(٣) قال الزيلعي في (تخريج أحاديث الكشاف: ١/ ٤٦٠): «غَرِيب جداً»، وقال السخاوي في المقاصد (ص: ٦١١): لا يصح رفعه إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل هو من كلام الحارث بن كلدة طبيب العرب، أو غيره.

(٤) زاد المسير (٢/ ١١٤) ثم قال: «قال المصنف: هكذا نقلتُ هذه الحكاية، إلا أن هذا الحديث المذكور فيها عن النبي صلى الله عليه وسلم لا يثبت، وقد جاءت عنه في الطب أحاديث قد ذكرتها في كتاب: «لقط المنافع في الطّب» .





وقبل أن يبحث الإنسان عن العلاج، فإن عليه أن «يستعمل الحمية عن جميع المؤذيات في مقدارها، أو في ذاتها، أو في وقتها، ثم إن أمكن الاستفراغ، وحصل به المقصود من دون مباشرة الأدوية؛ فهو الأولى والأنفع، فإن اضطر إلى الدواء؛ استعمله بمقدار، وينبغي أن لا يتولى ذلك إلا عارفٌ وطبيبٌ حاذق.

واعلم أن طيبَ الهواء، ونظافةَ البدن والثياب، والبعدَ عن الروائح الخبيثة؛ خيرُ عونٍ على الصحة، وكذلك الرياضة المتوسطة؛ فإنها تقوي الأعضاء والأعصاب والأوتار، وتزيل الفضلات، وتهضم الأغذية الثقيلة، وتفاصيل الطب معروفة عند الأطباء، ولكن هذه الأصول التي ذكرنا يحتاج إليها كل أحد» [1].

وفي هذه القاعدة النبوية – «ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء» – «**إثبات الأسباب**[2]، وأن ذلك لا ينافي التوكل على الله لمن اعتقد أنها بإذن الله ومشيئته، وأنها لا تنفع بذواتها، بل بما قدره الله فيها، بل إن الدواء قد ينقلب داءً إذا قدّر اللهُ ذلك، وإليه الإشارة بقوله في حديث جابر: – «لكل

---

(١) بهجة قلوب الأبرار: (ص ١٤٨).

وفي فتح الباري(١٠/ ١٣٤):«ومدار ذلك على ثلاثة أشياء: حفظ الصحة، والاحتماء عن المؤذي، واستفراغ المادة الفاسدة، وقد أشير إلى الثلاثة في القرآن؛ فالأول: من قوله تعالى: ﴿فمن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾ وذلك أن السفر مظنة النصب وهو من مغيرات الصحة، فإذا وقع فيه الصيام ازداد فأبيح الفطر إبقاء على الجسد، وكذا القول في المرض الثاني وهو: الحمية من قوله تعالى: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ فإنه استنبط منه جواز التيمم عند خوف استعمال الماء البارد، والثالث من قوله تعالى: ﴿أو به أذى من رأسه ففدية﴾ فإنه أشير بذلك إلى جواز حلق الرأس الذي منع منه المحرم لاستفراغ الأذى الحاصل من البخار المحتقن في الرأس».

(٢) وقد جاء عند الترمذي ح(٢٠٣٨) «يا عباد الله! تداووا...» وقال: حديث حسن صحيح.





داء دواء، فإذا أصيب دواءُ الداء بَرِأ بإذن الله عز وجل»[١] – فمدار ذلك كله على تقدير الله وإرادته، والتداوي لا ينافي التوكل، كما لا ينافيه دفعُ الجوع والعطش بالأكل والشرب، وكذلك تجنب المهلكات، والدعاء بطلب العافية، ودفع المضار، وغير ذلك.

ومما يدخل في قوله ﷺ: «وجهله مَنْ جَهِلَهُ» ما يقع لبعض المرضى، أنه يتداوى من داءٍ بدواءٍ فيبرأ، ثم يعتريه ذلك الداء بعينه فيتداوى بذلك الدواء بعينه فلا ينجع! **والسبب في ذلك:** الجهل بصفةٍ من صفات الدواء؛ فرُب مَرَضين تشابها، ويكون أحدهما مركباً لا ينجع فيه ما ينجع في الذي ليس مركباً! فيقع الخطأ من هنا، وقد يكون متّحداً لكن يريد الله أن لا ينجع فلا ينجع، ومن هنا ***تخضع رقاب الأطباء!***»[٢].

ولهذا قيل:

إن الطبيب لـذو عقـل ومعرفـة	ما دام في أجل الإنسـانِ تـأخير
حتى إذا ما انقضـت أيـامُ مدتـه	حار الطبيـبُ وخانتـه العقـاقير

إذا تبين هذا، فليعلم الجميعُ أن النبي ﷺ قال في هذا الباب: «إن الله لم يجعل شفاءكم فيما حَرّم عليكم»[٣]، فلا يجوز لمريض أو ممرض أن يستعمل شيئاً حرمه اللهُ تعالى أو رسولُه؛ زاعماً أن فيه شفاؤه! وأنه داخل في هذه القاعدة «ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء»! كالسحر، أو الخمر، أو الموسيقى

(١) مسلم ح(٢٢٠٤).

(٢) فتح الباري: (١٠/ ١٣٥) بتصرف.

(٣) البخاري ح(١٢٢٧٠).





- خاصة عند أطباء المرضى النفسيين -...أو غير ذلك مما حرمه ديننا الحنيف؛ فكلام رسول الله يفسِّر بعضُه بعضاً، وعمومُ هذه القاعدة يخصصها قوله: «لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم».

إن «التمريض ضروري، والمهنة لا بد منها، لكن بشرط: أن نبقى متمسكين بأحكام ديننا، فلا نُغضِب ربنا لنَشفي مريضَنا، والشفاء من الله، والله لا يشفي بمعصيته، بل يشفي بطاعته، وإذا زال المرض عن الجسد مؤقتاً في هذه الحياة الدنيا بالمعصية؛ فإن الحياة الحقيقية الطويلة هي الآخرة، فماذا ينفعنا شفاءُ المرض هنا وأن نبتلى بمرض الحريق بنار جهنم؟!»[1].

خلاصة القاعدة:

- لِم تهتم وتغتم وأنت تعلم أن لكل داء دواء!
- التداوي مطلب شرعي وعقلي.
- الدين الحق يفتح لك أفق البحث العلمي.
- إذا نزل الشفاء نفع الدواء.



---

(١) ذكريات الطنطاوي: (٤/ ٢٩٤) في مقال جدير بالأطباء قراءته وهو: (هجوم على الأطباء).





القاعدة النبوية السابعة والعشرون:
من لا يَرْحم لا يُرْحم [1]

أقرب الناس من رحمة الله أرحمهم بخلقه.
(محمد السفيري)

هذه قاعدة جليلة، ترسم للبشرية خطوطَ الحياة السعيدة؛ لينعم كلُّ فردٍ بما وهبه الله في هذه الدنيا من عُمُر، بل ويجد المسلم اللذتين: في الدنيا والآخرة.

«فرحمة العبد للخلق من أكبر الأسباب التي تُنال بها رحمة الله، التي من آثارها خيرات الدنيا، وخيرات الآخرة، وفقْدُها من أكبر القواطع والموانع لرحمة الله، فمتى أراد أن يستبقيها ويستزيد منها؛ فليعمل جميع الأسباب التي تنال بها رحمته، وتجتمع كلها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦]، وهم المحسنون في عبادة الله، المحسنون إلى عباد الله، والإحسان إلى الخلق أثر من آثار رحمة العبد بهم.

والرحمة التي يتصف بها العبد نوعان:

النوع الأول: رحمة غريزية، قد جبل اللهُ بعضَ العباد عليها، وجعل في

(١) البخاري ح(٥٦٥١)، مسلم ح(٢٣١٨).





قلوبهم الرأفةَ والرحمةَ والحنانَ على الخَلْق؛ ففعلوا بمقتضى هذه الرحمة جميعَ ما يقدرون عليه من نفعهم بحسب استطاعتهم، فهم محمودون مثابون على ما قاموا به، معذورون على ما عجزوا عنه، وربما كتب الله لهم بنياتهم الصادقة ما عجزت عنه قواهم.

والنوع الثاني: رحمة يكتسبها العبد بسلوكه كل طريق ووسيلة، تجعل قلبَه على هذا الوصف، فيعلم العبدُ أن هذا الوصف مِن أجلِّ مكارم الأخلاق وأكملها؛ فيجاهد نفسَه على الاتصاف به، ويعلم ما رتَّب الله عليه من الثواب، وما في فواته من حرمان الثواب؛ فيرغب في فضل ربه، ويسعى بالسبب الذي ينال به ذلك، فلا يزال العبد يتعرّف الأسبابَ التي يدرك بها هذا الوصف الجليل، ويجتهد في التحقق به؛ حتى يمتلئ قلبه من الرحمة، والحنان على الخلق، ويا حبذا هذا الخُلق الفاضل، والوصف الجليل الكامل.

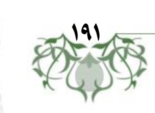
وهذه الرحمة التي في القلوب: تظهر آثارُها على الجوارح واللسان، في السعي في إيصال البر والخير والمنافع إلى الناس، وإزالة الأضرار والمكاره عنهم»[1].

فإن قلت: كيف أعرف أن الرحمة موجودة في قلبي؟

فالجواب: أن لذلك علامة، وهي أن تكون محباً لوصول الخير لكل الخلق، وللمؤمنين خصوصاً، وفي مقابل ذلك: أن تكره حصول الشر والضرر عليهم.

---

(١) بهجة قلوب الأبرار: (ص: ١٨٨) باختصار.





ومن صور الرحمة التي قد تختفي عند بعض الناس: الرحمة بالأطفال الصغار والرقة عليهم، وإدخال السرور عليهم، وأما عدم المبالاة بهم، وعدم الرقة عليهم؛ فجفاء وغلظة، كما قال بعض جُفاة الأعراب –حين رأى النبي ﷺ وأصحابَه يقبِّلون أولادَهم الصغار–: إنّ لي عشرة من الولد ما قبَّلت واحداً منهم! فقال النبي ﷺ: «**أو أملك لك شيئاً أن نزع الله من قلبك الرحمة؟**»[(١)].

وتأمل معي كيف كان خلق الرحمة سبباً في رحمة الله تعالى لامرأة لم تعرف إلا بأسوأ ما يمكن أن تُوصف به المرأة، إنها البغي من بني إسرائيل، حين رحمت ذلك الكلب الذي كان يأكل الثرى من العطش؛ فسقته فغفر الله لها، بسبب تلك الرحمة!

وفي مقابل هذا: تأمل كيف عذّب الله امرأةً بالنار، حين ربطت الهرة، لا هي أطعمتها وسقتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض[(٢)]، حتى ماتت، وفي هذا المعنى يقول العلامة السعدي – رحمه الله –: «ومن ذلك ما هو مشاهد مجرب: أن من أحسن إلى بهائمه بالإطعام والسقي والملاحظة النافعة؛ أن الله يبارك له فيها، ومن أساء إليها: عوقب في الدنيا قبل الآخرة»ا.هـ[(٣)].

قال مُطَرِّفٍ بن عبدالله: «إِنَّ اللَّهَ لَيَرْحَمُ بِرَحْمَةِ الْعُصْفُورِ»[(٤)].

---

١) البخاري: (٥٦٥٢)، مسلم: (٢٣١٧).

(٢) حشراتها وهوامها.

(٣) بهجة قلوب الأبرار: (ص: ١٩٠).

(٤) الزهد لهناد بن السري: (٢/ ٦١٩).





هذا في حيوان! فكيف بمن يحنو ويرأف ويرفق بوالديه، وأرحامه، وزوجته...؟!

لقد كانت هذه الرحمة حاضرةً في حياة النبي ﷺ في كل حين من أحيانه، حتى إذا كان في مقام الصلاة الذي يستولي عليه مقام المناجاة لربه تعالى، يقول النبي ﷺ: «إنّي لأقوم في الصّلاة أريد أن أطوّل فيها، فأسمع بكاء الصّبيّ فأتجوّز في صلاتي كراهية أن أشقّ على أمّه»[1].

وتأتي إليه حفيدته – ابنة ابنته – تزوره، فتتعلق به، فيأبى أن يكسر خاطرها، فيخرج على أصحابه وأُمامة بنت أبي العاص على عاتقه فصلّى، فإذا ركع وضعها، وإذا رفع رفعها.[2]

إنها الرحمة النبوية! فصلوات الله وسلامه على من قال فيه ربه: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

تأمل أمثال هذه المواقف النبوية، وقارنها بما رُوي في بعض كتب التاريخ أن محمد بن عبدالملك الزيات كان شديد الظلم، كثير المصادرة للناس قل ما يرحم أحداً، وكان يقول: **الرحمة خَوَر في الطبيعة!**

وكان قد عمل في آخر أيام الواثق تنّورَ حديدٍ مشبّك بقطعتين، وله مسامير إلى داخل ليقعد فيه المصادرين؛ فاتفق قضاءُ الله تعالى وقدَرُه أن كان هو أول من أُقعد فيه! فلما دخلت المسامير في لحمه قال: آه! فقال له الخادم الموكّل بعذابه: أما سمعت أن من حفر لأخيه المؤمن بئراً أوقعه الله فيها؟! أما علمت أن من لا يَرحم لا يُرحم؟! فقال: وأيّ شيء نفع البرامكة وقد فعلوا

(١) البخاري ح(٧٠٧).

(٢) البخاري ح(٥٩٩٦)واللفظ له، مسلم ح(٥٤٣).





من الخيرات ما فعلوا وكانت عاقبتهم مثل هذا؟ فقال له ذلك الخادم: يكفهم ذكرك لهم بفعل الجميل وأنت على مثل هذه الحال! وهل يبقى بعد الإنسان إلا ذِكرٌ جميل أو قبيح، وهل بعد الموت سوى منزلين: إما الجنّة أو النار!»[(١)].

فعوِّد نفسك الرحمةَ أيها المؤمن؛ فإنك مضطرٌ إلى رحمة الله، ودرّب نفسك وهذّبها على الرحمة وإذهاب القسوة، واحرص على مخالطة الرحماء عسى أن تُرحم، وأن تكون رحيماً، وتسلم من ضدها قال ﷺ: «لا تنزع الرحمة إلا من شقي»[(٢)].

اللهم املأ قلوبنا رحمة لأنفسنا ولعبادك، واجعلنا من عبادك الرحماء، واهدنا يا ربنا لأحسن الأخلاق والأعمال، وجنبنا سيئها؛ لا يملك ذلك إلا أنت.

خلاصة القاعدة:

- إن كمال الرحمة أن تتعامل مع الخلق بما يمليه عليك دينُك.
- الجزاء من جنس العمل؛ فاطلب رحمة الله برحمة خلقه.
- كاشف وجود الرحمة في القلب هو إرادة الخير للخلق.



---

(١) الإنباء في تاريخ الخلفاء: (ص ١١٦).

(٢) أبو داود ح(٤٩٤٢)، الترمذي ح(١٩٢٣)وقال: هذا حديث حسن.





القاعدة النبوية الثامنة والعشرون:
ليس الشديد بالصُّرَعة[1]

> أطفئوا نار الغضب بذِكر نار جهنم.
> (بكر بن عبد الله)

هذه قاعدة من قواعد العلاج النفسي في السنة النبوية، وهي من قواعد الحياة التي تضبط تصرفات المرء مع غيره، وتعينه ليهنأ بحياته، ويطيب بعيشه، ويرتقي بنفسه في درج الكمال.

وقبل الدخول في بيان شيء من هدايات هذه القاعدة؛ يحسن بنا أن نعرف من هو الصُّرَعة؟

فيقال: «الصُّرَعة: هو الذي يصرع الناسَ ويَكثُر منه ذلك، كما يقال للكثير النوم: نُوَمة، وللكثير الحفظ: حُفَظة، فأراد عليه الصلاة والسلام أن الذي يقوى على مِلك نفسه عند الغضب، ويردها عنه هو القوي الشديد والنهاية في الشدة؛ لغلبته هواه المُرْدي، الذي زيَّنه له الشيطانُ المُغوي، فدل هذا على أن مجاهدة النفس أشد من مجاهدة العدو؛ لأن النبي عليه الصلاة

(١) البخاري ح(٦١١٤)، مسلم ح(٢٦٠٩). تنوير الحوالك (٢/ ٢١٣): قَالَ الْبَاجِيّ: وَلم يُرِد نفيَ الشدَّة عَنهُ؛ فَإِنَّهُ يعلم بِالضَّرُورَةِ شدته! وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنه لَيْسَ بالنهاية فِي الشدَّة وَأَشد مِنْهُ الَّذِي يملك نَفسه عِنْد الْغَضَب.





والسلام جعل للذي يملك نفسه عند الغضب من القوة والشدة ما ليس للذي يغلب الناس ويصرعهم[(١)]، ومن هذا الحديث قال الحسن البصري «حين سئل أي الجهاد أفضل؟ فقال: جهادك نفسك وهواك»[(٢)].

يقول ابن القيم رحمه الله: «سمعت شيخنا – يعني ابن تيمية – يقول: جهاد النفس والهوى أصل جهاد الكفار والمنافقين؛ فإنه لا يقدر على جهادهم حتى يجاهد نفسه وهواه أولاً حتى يخرج إليهم، فمن قهر هواه عز وساد، ومن قهره هواه ذل وهان، وهلك وباد».[(٣)]

ولعظيم أمر الغضب عطف اللهُ بذكره بعد ذكر كبائر الذنوب والفواحش فقال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ٣٧ ﴾ [الشورى: ٣٧][(٤)].

لقد جاء هذا الاهتمام البالغ بأمر الغضب؛ لما يجنيه على صاحبه من جنايات عظيمة إن لم يكظمه ويدافعه[(٥)].

وقال بعض العلماء: الكفر في أربعة أشياء: في الغضب، والشهوة، والرغبة، والرهبة، ثم قال: رأيت منهن اثنتين: رجلاً غضب فقتل أمّهُ، ورجلاً عشق فتنصّر.[(٦)]

---

(١) قال ابن عبدالبر: على أن مجاهدة النفس أصعب مراماً، وأفضل من مجاهدة العدو، والله أعلم. التمهيد(٦/ ٣٢٣).

(٢) شرح صحيح البخاري لابن بطال: (٩/ ٢٩٦)بتصرف يسير.

(٣) روضة المحبين: (٤٧٨).

(٤) ينظر: فتح الباري: (١٠/ ٥١٩).

(٥) شرح صحيح البخاري لابن بطال: (٩/ ٢٩٧).

(٦) غذاء الألباب: (٢/ ٤٥٨).





فالغضب مجمع شرور عظيمة، «وينشأ عنه من الأفعال المحرمة: كالقتل، والضرب، وأنواع الظلم والعدوان، وكثير من الأقوال المحرمة: كالقذف، والسب، والفحش، وربما ارتقى إلى درجة الكفر! كما جرى لجبلة بن الأيهم، وكالأيمان التي لا يجوز التزامها شرعاً، وكطلاق الزوجة الذي يعقب الندم»[(١)].

وهو – أيضاً – يخرج بالإنسان من اعتدال حاله، ويتكلم بالباطل، ويرتكب المذموم، وينوي الحقد والبغضاء، وغير ذلك من القبائح المحرمة[(٢)]، قال جعفر بن محمد: الْغَضَبُ مِفْتَاحُ كُلِّ شَرٍّ.[(٣)]

قال محمد بن جحادة: كان الشعبي من أولع الناس بهذا البيت:

ليست الأحلام في حين الرضا ... إنما الأحلام في حال الغضب[(٤)]

ولهذا اقتصر النبي ﷺ في وصيته لذلك الرجل الذي استوصاه على قوله: «لا تغضب»؛ وهذا يتضمن أمرين عظيمين:

أحدهما: الأمر بفعل الأسباب، والتمرن على حسن الخلق، والحلم والصبر، وتوطين النفس على ما يصيب الإنسان من الخَلق، من الأذى القولي والفعلي، فإذا وُفّق لها العبد، وورد عليه واردُ الغضب؛ احتمله بحسن

---

(١) جامع العلوم والحكم: (١/ ٣٦٩).

(٢) شرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد: (ص٧١).

(٣) إحياء علوم الدين: (٣/ ١٦٦)، وفيه: وقيل لعبدالله بن المبارك: أجمل لنا حسن الخلق في كلمة؟ فقال: اترك الغضب.

(٤) الاستذكار: (٨/ ٢٨٧). سبل السلام (٢/ ٦٥٧): «والغضب يترتب عليه تغير الباطن والظاهر كتغير اللون والرعدة في الأطراف، وخروج الأفعال على غير ترتيب، واستحالة الخِلقة حتى لو رأى الغضبان نفسه في حالة غضبه لسكن غضبه حياء من قبح صورته، واستحالة خلقته! هذا في الظاهر، وأما في الباطن فقبحه أشد من الظاهر؛ لأنه يولد حقداً في القلب، وإضمار السوء على اختلاف أنواعه، بل قبح باطنه متقدم على تغير ظاهره؛ فإن تغير الظاهر ثمرة تغير الباطن».





خُلُقه، وتلقاه بحلمه وصبره، ومعرفته بحسن عواقبه؛ فإن الأمر بالشيء أمرٌ به وبما لا يتم إلا به، والنهيُ عن الشيء أمرٌ بضده وأمرٌ بفعل الأسباب التي تعين العبد على اجتناب المنهي عنه، وهذا منه.

الثاني: الأمر – بعد الغضب – أن لا يُنفِذ غضبَه؛ فإن الغضب غالباً لا يتمكن الإنسانُ من دفعه وردِّه، ولكنه يتمكن من عدم تنفيذه، فعليه إذا غضب أن يمنع نفسه من الأقوال والأفعال المحرمة التي يقتضيها الغضب.

فمتى منع نفسَه مِن فعل آثار الغضب الضارة؛ فكأنه في الحقيقة لم يغضب، وبهذا يكون العبد كامل القوة العقلية، والقوة القلبية؛ كما في قاعدتنا هذه: «**إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**».

فكمال قوة العبد: أن يمتنع من أن تؤثر فيه قوة الشهوة وقوة الغضب الآثارَ السيئة، بل يصرف هاتين القوتين إلى تناول ما ينفع في الدين والدنيا، وإلى دفع ما يضر فيهما.

فخير الناس: من كانت شهوته وهواه تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ، وغضبُه ومدافعتُه في نصر الحق على الباطل.

وشر الناس: من كان صريعَ شهوته وغضبه»[1].

ومما ينصح به الغاضب أمور:

١. الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا

---

(١) بهجة قلوب الأبرار: (ص١٤٦)بتصرف.





﴿... يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٠٠ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۝٢٠١﴾ [الأعراف: ٢٠٠-٢٠١]، قال سعيد بن جبير: هو الرجل يغضب الغضبة فيذكر الله تعالى فيكظم الغيظ»[(١)]، «وقيل النزغ: الإزعاج، وأكثر ما يكون عند الغضب، وأصله الإزعاج بالحركة إلى الشر»[(٢)].

وقال سليمان بن صرد: كنت جالساً مع النبي ﷺ، ورجلان يستبان، فأحدهما احمر وجهه، وانتفخت أوداجه، فقال النبي ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها ذهب عنه ما يجد! لو قال: أعوذ بالله من الشيطان، ذهب عنه ما يجد»[(٣)].

٢. السكوت: قال ميمون بن مهران: جاء رجل إلى سلمان، فقال: يا أبا عبدالله! أوصني، قال: لا تغضب، قال أمرتني أن لا أغضب وإنه ليغشاني ما لا أملك! قال: فإن غضبت، فاملك لسانك ويدك[(٤)].

٣. أن يجلس إن كان قائماً، ففي كتب الأخلاق والآداب: «الغضب من الشيطان فإذا وجده أحدكم قائماً فليجلس، وإن وجده جالساً فليضطجع»[(٥)].

٤. أن يتوضأ، فقد روي: «إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان

(١) تفسير البغوي: (٢/ ٢٦٢).

(٢) تفسير الرازي: (١٥/ ٤٣٥).

(٣) البخاري ح(٣٢٨٢)، مسلم ح(٢٦١٠).

(٤) جامع العلوم والحكم: (١/ ٣٦٨).

(٥) الزواجر عن اقتراف الكبائر: (١/ ٨٤)، الآداب الشرعية: (١/ ١٨٢).





خلق من النار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ»[(١)]، هذا المعنى واقع وصحيح.

٥. كظم الغضب: فإذا كظم الغاضب غضبَه لله ولم ينفذه؛ فليبشر بفضل الله تعالى وحسن نواله، فلما بين الله من صفات المتقين ذكر منها: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ وختمها بهذا التشريف فقال: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وأما الحديث الذي يروى عن النبي ﷺ: **«مَن كظم غيظاً - وهو يستطيع أن يُنفِّذه - دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق، حتى يخيِّرَه من أي الحُور شاء»**، ففيه ضعف[(٢)].

وههنا تنبيه ينبغي التفطن له: وهو أن النبي ﷺ إنما أراد أن لا يغضب المسلمُ لأمور دنياه ومعاملته التي يمكن استدراكها، وأما فيما يعود إلى القيام بالحق؛ فالغضب فيه قد يكون واجباً، وهو الغضب على الكفار، والمبالغة فيهم بالجهاد، وكذلك الغضب على أهل الباطل، وإنكاره عليهم بما يجوز، ولهذا بوّب البخاري - رحمه الله تعالى - باباً فقال: (باب ما يجوز من الغضب والشدة لأمر الله)[(٣)].

وقد يكون مندوباً إليه: وهو الغضب على المخطئ إذا علمت أن في إبداء غضبك عليه ردعاً له وباعثاً على الحق.

---

(١) أبو داود ح(٤٧٨٤)، أحمد ح(١٧٩٨٥).

(٢) أبو داود ح(٤٧٧٧)، الترمذي ح(٢٤٩٣) وقال: «حديث حسن غريب»، وسبب غرابته أن فيه راويان: أبو مرحوم، وسهل بن معاذ بن أنس، وليسا بالقويين.

(٣) وهو أحد أبواب كتاب الأدب من صحيحه، ينظر: ح (٦١٠٩).





وقد روى زيد بن خالد الجهني «أن رسول الله ﷺ لما سأله رجلٌ عن ضالة الإبل غضب حتى احمرت وجنتاه، أو احمر وجهه»[1].[2]

«وإنما المحمود غضبٌ ينتظر إشارة العقل والدين، فينبعث حيث تجب الحمية، وينطفئ حيث يحسن الحلم، وحفظه على حدِّ الاعتدال هو الاستقامة التي كلف الله بها عبادَه، وهو الوسط الذي وصفه رسول الله ﷺ»[3].

اللهم أعنا على أنفسنا وأهوائنا والشيطان، وقنا شر الغضب، واجعل أهواءنا تبعاً لما جئتَ به، لا حول ولا قوة إلا بك.

خلاصة القاعدة:

- مجاهدة الغضب شاق كمجاهدة النفس..فاستعن بالله عليهما.
- مفتاح أبواب الشر البشري والشيطاني الغضب.
- تصحيح المصطلحات مطلب شرعي.
- الغضب داء وفي الشرع الدواء.



(١) البخاري ح(٩١)، مسلم ح(١٧٢٢).

(٢) ينظر: المنتقى شرح الموطأ: (٧/ ٢١٤) بتصرف.

(٣) إحياء علوم الدين: (٣/ ١٦٨)، ثم قال(٣/ ١٦٩): «ويقف على الوسط الحق بين الطرفين، فهو الصراط المستقيم، وهو أرق من الشعرة، وأحد من السيف! فإن عجز عنه فليطلب القرب منه، قال تعالى: ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة﴾ فليس كل من عجز عن الإتيان بالخير كله ينبغي أن يأتي بالشر كله! ولكن بعض الشر أهون من بعض، وبعض الخير أرفع من بعض».





القاعدة النبوية التاسعة والعشرون:
وليأتِ إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه

لو أن الناس مشوا على هذه القاعدة في التعامل فيما بينهم؛ لنالوا خيراً كثيراً. (ابن عثيمين).

هذه قاعدة من القواعد النبوية المحكمة في أبواب المعاملة بين الخلق.

وأصل هذه القاعدة وردت ضمن حديث طويلٍ تضمن عدة وصايا نبوية عظيمة، رواه الإمام مسلم في صحيحه من حديث عبدالله بن عمرو ب، وفيه: «فمن أحب أن يزحزح عن النار، ويدخل الجنة، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه»[1].

هكذا يختصر النبي ﷺ آلافاً من الكلمات والعبارات، والخطب والمقالات – في باب التعامل مع الخلق – في هذه القاعدة الجامعة، بل هي قاعدة من قواعد السعادة، إنه ميزان عادل منصف ينصبه النبي ﷺ لكل من يتعامل مع الناس، الذين في تنوع أخلاقهم، وتفاوت معاملاتهم كما بين السماء والأرض.

يقول النووي رحمه الله: «هذا من جوامع كلمه ﷺ وبديع حِكَمه،

---

(١) مسلم ح(١٨٤٤).





وهذه قاعدة مهمة[١]؛ فينبغي الاعتناء بها، وإن الإنسان يلزم أن لا يفعل مع الناس إلا ما يحب أن يفعلوه معه»[٢].

ولعمر الله إن هذا لهو الميزان الصحيح للإحسان وللنصح لعباد الله، فكلما أشكل عليك شيء مما تعامل به الناس؛ فانظر هل تحب أن يعاملوك بتلك المعاملة أم لا؟ فإن كنت تحب ذلك؛ كنت محباً لهم ما تحب لنفسك، وإن كنت لا تحب أن يعاملوك بتلك المعاملة؛ فقد ضيعت هذا الواجب العظيم.[٣]

إن من يهتدي بهذه القاعدة في معاملاته الاجتماعية تستقيم حالُه، وتجمُل خصالُه، وترقى مع الناس أفعالُه «فلا يؤذيهم؛ لأنه لا يحب أن يؤذوه، ولا يعتدي عليهم؛ لأنه لا يحب أن يعتدوا عليه، ولا يشتمهم؛ لأنه لا يحب أن يشتموه، وهلم جراً: لا يغشهم في البيع والشراء وغير ذلك، ولا يكذب عليهم؛ لأنه لا يحب أن يفعل به ذلك، وهذه قاعدة لو أن الناس مشوا عليها في التعامل فيما بينهم لنالوا خيراً كثيراً، ويشبه هذا قول الرسول ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه»[٤].

---

(١) الفتاوى الكبرى: (٦/ ١٥٦) عند كلامه على الحديث التي وردت فيه هذه القاعدة: «فهذه الوظائف الثلاث التي جمعها في هذا الحديث من قواعد الإسلام».

(٢) شرح مسلم: (١٢/ ٢٣٣).

(٣) انظر: بهجة قلوب الأبرار: (ص٢٠٦).

(٤) انظر: شرح رياض الصالحين للعثيمين: (٦/ ٢٣٥).







لقد كانت حياة نبينا عليه الصلاة والسلام ترجمة لهذه القاعدة العظيمة، بل لقد استعملها النبي ﷺ دواءً تربوياً فكان من أنجع الأدوية وأشفاها، تابعوا معنا هذه القصة التي رواها لنا الصحابي الجليل أبو أمامة رضي الله عنه فقال:

إن فتىً شاباً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا! فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه! مه! فقال: «ادنه»، فدنا منه قريباً، قال: فجلس قال: «أتحبه لأمك»؟ قال: لا! والله جعلني الله فداءك! قال: «ولا الناس يحبونه لأمهاتهم»! قال: «أفتحبه لابنتك؟» قال: لا! والله، يا رسول الله، جعلني الله فداءك! قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم»! قال: «أفتحبه لأختك»؟ قال: لا! والله، جعلني الله فداءك! قال: «ولا الناس يحبونه لأخواتهم»! قال: «أفتحبه لعمتك»؟ قال: لا! والله، جعلني الله فداءك! قال: «ولا الناس يحبونه لعماتهم»! قال: «أفتحبه لخالتك»؟ قال: لا! والله جعلني الله فداءك! قال: «ولا الناس يحبونه لخالاتهم»! قال: فوضع يده عليه وقال: «اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه، وحصن فرجه» قال: فلم يكن بعدُ ذلك الفتى يلتفت إلى شيء.[(١)]

إن هذه القاعدة الجليلة هي نداء الفطرة السليمة التي فطر الله تعالى الناس عليها، علم ذلك النبي ﷺ فنادى ذلك الشاب بهذا النداء؛ فما كان إلا الاستجابة العاجلة لهذا النداء.

---

(١) أحمد ح(٢٢٢١١).





قيل للأحنف: ممن تعلمت الحلم؟ قال: من نفسي! كنتُ إذا كرهتُ شيئاً من غيري لا أفعل مثلَه بأحد[1].

وكان محمد بن واسع يبيع حماراً له، فقال له رجل: أترضاه لي؟ قال: لو رضيتُه لم أبعه!

قال ابن رجب: «وهذه إشارة منه إلى أنه لا يرضى لأخيه إلا ما يرضى لنفسه – حيث أجابه بحقيقة الأمر دون تدليس أو خداع – وهذا كله من جملة النصيحة لعامة المسلمين التي هي من جملة الدين»[2].

وعندما نتأمل في القرآن الكريم نجده قد رسخ هذه القاعدة بأساليب متنوعة:

وأقرب مثال على ذلك قول الحق سبحانه: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ ﴾، «الذم إنما لحقهم بمجموع أنهم يأخذون زائداً، ويدفعون ناقصاً... وعن قتادة: «أوفِ يا ابن آدم الكيل كما تحب أن يُوفى لك، واعدل كما تحب أن يُعدَل لك» وعن الفضيل: بخس الميزان سواد الوجه يوم القيامة! وقال أعرابي لعبدالملك بن مروان: قد سمعت ما قال الله تعالى في المطففين! أراد بذلك أن المطفف قد تَوَجّه عليه الوعيد العظيم في أخذ القليل[3]، فما ظنك بنفسك وأنت تأخذ الكثير، وتأخذ أموال المسلمين بلا كيل ولا وزن»[4].

---

(١) فيض القدير: (١/ ٦٥).

(٢) جامع العلوم والحكم: (١/ ٣٠٥).

(٣) لأنه قيل أن التطفيف مأخوذ من سرقة الشيء الطفيف.

(٤) تفسير الرازي: (٣١/ ٨٣-٨٤).







وهذا مثال آخر من القرآن يرسخ هذه القاعدة النبوية: «وليأتِ إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه»؛ وهو قوله تعالى في حق الزوجات: ﴿ **وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ** ﴾ [البقرة: ٢٢٨][(١)].

قال ابن كثير: أي: ولهن على الرجال من الحق مثل ما للرجال عليهن، فليؤد كلٌّ واحد منهما إلى الآخر ما يجب عليه بالمعروف[(٢)]، ولهذا قال ابن عباس: إني لأتزين لامرأتي كما تتزين لي.[(٣)]

الله أكبر! ما أجلها من قاعدة! وما أحرى المسلم بتدبرها وتأملها، وأن يبادر إلى تطبيقها في نفسه ومَن حوله!

طبِّقها – أيها المؤمن – في بيعك وشرائك، وأخذك وعطائك، في البيت والشارع والسوق، والمسجد والمدرسة، وفي وسائل النقل وساحات الاستراحات، وإن خالفتها فعاملتَ غيرك بما تكره أن تُعامَل به؛ فقد علمت ما قال الله في المطففين! وكنت من المتناقضين الذين ذمهم الله تعالى بقوله: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣** ﴾ [الصف: ٢، ٣].

---

(١) التحرير والتنوير (٢/ ٣٩٦): «وكان الاعتناء بذكر ما للنساء من الحقوق على الرجال، وتشبيهه بما للرجال على النساء؛ لأن حقوق الرجال على النساء مشهورة، مسلمة من أقدم عصور البشر، فأما حقوق النساء فلم تكن مما يلتفت إليه أو كانت متهاونا بها، وموكولة إلى مقدار حظوة المرأة عند زوجها، حتى جاء الإسلام فأقامها، وأعظم ما أسست به هو ما جمعته هذه الآية... ».

(٢) تفسير ابن كثير: (١/ ٦٠٩).

(٣) تفسير القرطبي: (٣/ ١٢٣).





يروى أن رجلاً لبّاناً – كان بالبادية – يخلط اللبنَ بالماء، فجاء السيل؛ فذهب بالغنم، فجعل يبكي ويقول: اجتمعت تلك القطرات، فصارت سيلاً! ولسان الجزاء يناديه: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحج: ١٠]»[1].

ليكن كل واحد منا حكماً على نفسه أمام هذه الجملة: «وليأتِ إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه» وليضع نفسه دوماً في مكان الطرف الآخر ولينظر! هل يحب أن تقدره زوجته؟ وهل يحب أن يقدره الناس؟ وهل يحب أن يحترم الناس مواعيده؟ أسئلة كثيرة إجابتها معلومة عند كل عاقل، فإذا كان كذلك، فليعلم أن الناس أيضاً كذلك.

وأيضاً .. إذا كان هذا الأدب مطلوباً في حق الخلق؛ فهو في حق الخالق سبحانه وتعالى من باب أولى! كيف تطلب من ربك أن يعطيك ما تحب، وينجيك مما تكره، وأنت مقيم على ما يكره، تارك لما يحب؟ **يقول ابن الجوزي رحمه الله:** «ويحك! لو ابتلاك في مالك فقلَّ لاستغثت، أو في بدنك ليلةً بمرضٍ لشكوت، فأنت تستوفي مطلوباتك منه، ولا تستوفي حقه عليك! ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ﴾ [المطففين: ١]»[2]، لهذا قال سلمان رضي الله عنه: الصلاة مكيال، فمن وفى وفي له، ومن طفف فقد علمتم ما قال الله تعالى في حق المطففين![3]

---

(١) بحر الدموع: (ص: ١٤٧).

(٢) صيد الخاطر: (ص: ٤٢٣).

(٣) تفسير التستري: (ص: ١٨٩).







اللهم اهدنا لأحسن الأخلاق والأقوال والأعمال؛ لا يهدينا لأحسنها إلا أنت، وجنبنا عن أسوأ الأخلاق والأقوال والأعمال؛ لا يجنبنا عن أسوأها إلا أنت، إياك نعبد وإياك نستعين.

خلاصة القاعدة:

- عامِل كما تحب أن تُعامَل..قمة الإنصاف.
- من طلب رحمة الله وهو مقيم على معاصيه فهو مغرور.
- من وصل الناس بما يحب، وصله الله بما يحب.
- إن أسأت إلى الناس فعاملوك بالمثل فلا تلمهم؛ فهذا ما اخترته لنفسك.







القاعدة النبوية الثلاثون:
كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل [1]

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾
هذه الآية أصل في بيان صفة الغرباء.

هذه قاعدة من القواعد النبوية المحكمة في أبواب الزهد، ومعرفة حقيقة هذه الحياة الدنيا، وهي نص وصيةٍ جامعة مختصرة أوصى بها النبيُّ ﷺ أحدَ صحابته النجباء، إنه عبدالله بن عمر – رضي الله عنهما.

ولقد صحبها من الاهتمام النبوي أن أخذ بمنكب ابن عمر وهو يوصيه بهذه الكلمات المختصرة؛ رغبة في رسوخها، وهكذا كان، فلقد كانت حياة ابن عمر بترجمة عملية لهذه الوصية، فهو الذي رأى الخلافة تنتقل من رجل إلى رجل – وهو ينظر وهو أحق بها من بعض من أدركهم من الخلفاء – لكن مفعول هذه الوصية ما زال قوياً حتى لقي ربه زاهداً عابداً ورعاً، راغباً فيما عند الله، معرضا عن هذه الدنيا إعراض القادر على نيلها وحيازتها.

---

(١) البخاري ح(٦٤١٦).





لقد فقه ابن عمر – رضي الله عنه – هذا المعنى عملياً – كما تقدم – وفقهه علميا؛ ولذا كان يقول بعد أن روى لتلاميذه هذه الوصية: «**إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك**»، وممن خصهم بذلك تلميذه النجيب مجاهد رحمه الله، حيث قال له: «يا مجاهد! إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح، وخذ من صحتك قبل سقمك، ومن حياتك قبل موتك، فإنك لا تدري ما اسمك غدا؟»(١).

لقد كانت وصيةُ ابن عمر لمجاهد تفسيراً لهذه القاعدة التي رواها عن النبي ﷺ، وهو تفسير في غاية النفاسة والأهمية؛ حتى لا يتوهم متوهمٌ أن معنى قوله: «كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل» أن يتخلى عن كل أسباب الحياة الكريمة، وأن لا يبني له داراً تؤويه وأهلَه؛ لأن عابر السبيل كذلك! ولا يتخذ له إخوة يجالسهم ويأنس بهم؛ لأن الغريب كذلك! فبيّن راوي الحديث ابنُ عمر رضي الله عنه أن هذا ليس مراداً من قول المعصوم عليه الصلاة والسلام: «**كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل**»، وإنما مراده: أن يبقى دائم التيقظ والترقب ليوم الدين والحساب، فمن كان كذلك: أكثر ذكرَ الموت؛ فأحسن السير إليه، واستعان بما وهبه الله من النِّعَم على تحسين وقوفه هناك بين يديه.

إن هذه القاعدة النبوية تُرشِّد مسير المرء في الحياة، وتحد من شراهة نفسه، وتخلصه من مرض الانبهار الزائف للذات هذه الحياة الدنيا ومُتَعها؛ ليعرف قدرها، ويستعد للتي هي خير وأبقى.

---

(١) الزهد لوكيع (ص: ٢٣٣).





قال بعض أهل العلم – مبيناً معنى هذه القاعدة: لا تركن إلى الدنيا، ولا تتخذها وطناً، ولا تحدث نفسك بطول البقاء فيها، ولا بالاعتناء بها، ولا تغتر بها؛ فإنها غرارة خداعة، ولا تتعلق إلا بما يتعلق به الغريب في غير وطنه، ولا تشتغل فيها إلا بما يشتغل به الغريب الذي يريد الذهاب إلى أهله، وبالله فاستعن.[1]

ويقول ابن الجوزي: «من الناس من يثبت الدليل، ولا يفهم المقصود الذي دل عليه الدليل! ومن هذا الجنس قوم سمعوا ذم الدنيا فتزهدوا، وما فهموا المقصود، فظنوا أن الدنيا تذم لذاتها، وأن النفس تجب عداوتها، فحملوا على أنفسهم فوق ما يطاق، وعذبوها بكل نوع، ومنعوها حظوظها، جاهلين بقوله ﷺ: «إن لنفسك عليك حقًّا»، وفيهم من أدته الحال إلى ترك الفرائض، ونحول الجسم، وضعف القوى! وكل ذلك لضعف الفهم المقصود، والتلمح للمراد»[2]ا.هـ.

إذاً .. ما الزهد الذي جاءت النصوص بمدحه والثناء على أهله؟

فيقال هو: «ترك الفضول الَّتِي لا يستعان بها على طَاعَة الله – من مطعم وملبس وَمَال وَغير ذَلِك – كما قال الإمام أحمد: (إنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، وصبر أيام قلائل) وجماع ذلك: خُلُق رَسُول الله ﷺ كَمَا ثَبت عَنهُ فِي الصَّحِيح أنه كَانَ يَقُول: «خير الحديث كتَاب الله،

---

(١) تسلية أهل المصائب. للمنبجي (ص٢٤٠).

(٢)صيد الخاطر (ص/٢٢٥).







وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة»[(١)] فقد كانت عادته في يالمطعم: أنه لا يرد موجوداً، ولا يتكلّف مفقوداً، ويلبس من اللباس ما تيسّر – من قطن وصوف وَغير ذَلِك – وكان القطن أحب إليه، وكان إذا بلغه أن بعض أصحابه يريد أن يعتدي فيزيد فِي الزهد أو العبادة على المشروع ويقول: (أيّنا مثل رَسُول الله ﷺ)؟! يغْضب لذلك! ويقول: «والله إني لأخشاكم لله، وأعلمكُم بحدود الله تعالى»[(٢)].

وَقد أنزل الله تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٨٧ ﴾ [الْمَائِدَة: ٨٧]، وتأمل العدل الإلهي في هذه الآية العظيمة: ﴿ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾ فحتى لا يُفهم من هذا التوسع في لذائذِ الدنيا ومتاعها؛ عطف بقوله: ﴿ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ ﴾ فكان عطفاً في منتهى اللطافة وتمام الحكمة؛ فله الحمد سبحانه.

والعاقل هو من يعلم «أنه في الدنيا ضيف، وما في يده عارية، وأن الضيف مرتحلٌ، والعارية مردودة[(٣)]، والدنيا عرَضٌ حاضر، يأكل منها البر والفاجر، وهي مبغَّضَة لأولياء الله، محبَّبة لأهلها، فمن شاركهم في محبوبهم أبغضوه»[(٤)].

---

(١) البخاري ح(٧٢٧٧)، مسلم ح(٨٦٧) واللفظ له.

(٢) مجموع الفتاوى: (١٠/ ٦٤٢). اقتضاء الصراط المستقيم(١/ ٣٢٥): والأحاديث الموافقة لهذا كثيرة، في بيان أن سنته التي هي: الاقتصاد في العبادة، وفي ترك الشهوات؛ خير من رهبانية النصارى، التي هي: ترك عامة الشهوات من النكاح وغيره، والغلو في العبادات صوما وصلاة.

(٣) إلى هنا من كلام ابن مسعود – رضي الله عنه – عدة الصابرين: (ص٢٣٩).

(٤) شرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد (ص١٠٥).





إذاً .. فصاحب الغربة – في هذه القاعدة – هو الصالح في زمانٍ فاسدٍ بين قوم فاسدين، أو العالم بين قومٍ جاهلين، أو الصادق المخلص بين قومٍ منافقين.

والغريب هنا كذلك، هو: الغريب في طلب الحق، في زمان تأمَّر فيه الهوى، وحَكَم فيه التقليدُ، وطغى على أهله التعصب المذموم.(١)

وتتجلى في هذه القاعدة النبوية أهميةُ قِصَر الأمل، وقد قيل: مَن قَصُر أملُه أكرمه الله تعالى بأربع كرامات:

إحداها: أن يقويه على طاعته؛ لأن العبد إذا علم أنه يموت عن قريب لا يهتم بما يستقبله من المكروه، ويجتهد في الطاعات فيكثر عمله.

والثاني: يُقِل همومَه، وهذا بيّن.

والثالث: يجعله راضياً بالقليل؛ لأنه إذا علم أنه يموت عن قريب فإنه لا يطلب الكثرة، وإنما يكون همه هم آخرته.

والرابع: أن ينوّر قلبَه؛ فمن رضي بالقليل، واجتهد في العمل وأخلص؛ استنار قلبه بإذن ربه(٢).

فإن قلت: فما الذي يعين العبد حتى يقصُر أمله؟

يبين ذلك ابن القيم بأنه يكون في : «قوة رغبته في المطلب الأعلى، الذي ليس شيء أعلى منه، ومعرفته بخسة ما يؤمِّل دونه، وسرعة ذهابه، وأنه

---

(١) ينظر: مدارج السالكين (٣/ ١٩٢-١٩٣).

(٢) ينظر: تنبيه الغافلين. للسمرقندي (ص٢٢٥).





في الحقيقة كخيال طيف، أو سحابة صيف، فهو ظل زائل، ونجم قد تدلى للغروب؛ فهو عن قريب آفل.

قال عمر بن الخطاب – رضي الله عنه –: لو أن الدنيا من أولها إلى آخرها أوتيها رجل، ثم جاءه الموت؛ لكان بمنزلة من رأى في منامه ما يسرُّه، ثم استيقظ فإذا ليس في يده شيء!

ومن حدّق بعين بصيرته في الدنيا والآخرة: علم أن الأمر كذلك.

فكيف يليق بصحيح العقل والمعرفة أن يقطعه عن طلب من نسبة هذا النعيم الدائم إلى نعيم معرفته ومحبته، والأنس به، والفرح بقربه؛ كنسبة نعيم الدنيا إلى نعيم الجنة؟ قال الله تعالى: ﴿ **وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ** ﴾ [التوبة: ٧٢] فيسير من رضوانه – ولا يقال له يسير – أكبر من الجنات وما فيها.

وفي حديث الرؤية: «**فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل**»(١)

فمن قطعه عن هذا أملٌ؛ فقد فاز بالحرمان، ورضي لنفسه بغاية الخسران، والله المستعان!»(٢).

ونختم بهذا المثل التطبيقي لهذه القاعدة النبوية من حياته عليه الصلاة والسلام:

---

(١) مسلم ح(١٨١).

(٢) ينظر: مدارج السالكين: (٣/ ٩٢-٩٣).





يقول عمر – رضي الله عنه: دخلتُ على رسول الله ﷺ وهو مضطجع على حصير، فجلست؛ فأدنى عليه إزاره وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثّر في جنبه، فنظرتُ ببصري في خزانة رسول الله ﷺ؛ فإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع، ومثلها قَرَظاً[(١)] في ناحية الغرفة، وإذا أَفِيقٌ مُعلَّق[(٢)]، قال: فابتدرتُ عيناي، قال: «ما يبكيكَ يا ابن الخطاب»؟ قلت: يا نبي الله! وما لي لا أبكي وهذا الحصير قد أثّر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى؟! وذاك قيصر وكسرى في الثمار والأنهار! وأنت رسول الله وصفوته، وهذه خزانتك؟! فقال: «يا ابن الخطاب! ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا»؟[(٣)]

فلما فتح اللهُ عليه الفتوح، لم يستأثر بما أعطاه الله، بل قام فقال ﷺ: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن تُوفي من المؤمنين فترك دَيناً فعليّ قضاؤه، ومن ترك مالاً فلورثته»[(٤)].

اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا غاية رغبتنا، واجعل الحياة زيادة في كل خير، والموت راحة لنا من كل شر، ونجنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

---

(١) القرَظ: ورق السَّلَم يدبغ به.

(٢) هو الجلد الذي لم يتم دباغه.

(٣) البخاري ح(٤٩١٣) مسلم ح(١٤٧٩) واللفظ له.

(٤) البخاري ح(٢٢٩٨)، مسلم ح(١٦١٩).







خلاصة القاعدة:

- ليس من لوازم الغربة الدينية ألا يكون لك دار وزوجة وأولاد وتجارة، لكن الذي يلزم هو ألا تُعلق قلبك بها .
- من باع الباقي بالفاني فما شم رائحة الزهد .
- من أعظم النصائح لحياة القلوب: بيان حقيقة الدنيا .







القاعدة النبوية الحادية و الثلاثون:

إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً [1]

مِن أعظم ما يحصل به طيبة الأعمال للمؤمن طيب مطعمه، وأن يكون من حلال، فبذلك يزكو عملُه. (ابن رجب).

ما أطيب هذه القاعدة! التي ترشد إلى شيء مما ينبغي أن تكون عليه العلاقة بين العبد وربه.

إن في النفوس المؤمنة رغبةً في التصدق والبذل، وميلاً قوياً لإخراج بعض ما رزقها الله من فضله الواسع، فتأتي هذه القاعدة لترسم المنهج الذي يجب أن يدركه كلُّ مؤمن، وأن مقياس القبول عند الله ليس بكثرةٍ ولا عدد، بل بصفة ذلك الذي يخرجه الإنسان ويبذله.

ولئن كانت هذه القاعدة النبوية «**إن الله طيبٌ لا يقبل إلا طيباً**» ظاهرةَ الارتباط بالشأن المالي؛ فهي تتسع – أيضاً – لتشمل ما هو أوسع من ذلك، فيدخل فيها كل الأعمال والأقوال، بل حتى الذوات، تأمل معي – أيها القارئ – هذه الآيات الكريمة:

قال تعالى في سياق غزوة أحد: ﴿ **مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ**

---

(١) مسلم ح(١٠١٥).





عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٧٩] فهذا ذِكر الطيب في تمييز القلوب الطيبة من ضدها.

وقال سبحانه في سياق غزوة بدر: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٦، ٣٧] إنه تمحيص الطيب من الخبيث في الأموال، فتأمل كيف أن هذه الأموال العظيمة التي ينفقها الكفار في حرب الإسلام يجمعها وصف واحد: وهو الخبث، وإن بلغت المليارات!

وفي مقام طيب الأعمال والأقوال والعقائد؛ يقول الله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ [فاطر: ١٠].

إذن: فهذه القاعدة **«إن الله طيبٌ لا يقبل إلا طيباً»** تتسع لتشمل هذه المعاني كلها، فهي حِكمة نبوية تضع الأساس لحياة طيبة، وآخرة سعيدة.

ولعظيم مدلول هذه القاعدة؛ قال الإمام أبو داود السجستاني – صاحب السنن –: نظرتُ في الحديث المسند؛ فإذا هو أربعة آلاف حديث! ثم نظرت؛ فإذا مدار أربعة آلاف حديث على أربعة أحاديث، وذكر منها هذه





القاعدة «**إن الله طيبٌ لا يقبل إلا طيباً**»، ثم قال: فكل حديث من هذه ربع العلم»[1]! فقاعدتنا هذه – **أيها الأخ الكريم** – هي رُبع العلم! ومن عرف سعة العلم وتبحُّرَه بان له قدرُ هذه القاعدة العظيمة، ومعنى كونها ربع العلم.

إن الطيب الذي عناه النبي ﷺ في هذه القاعدة: «**إن الله طيبٌ** لا يقبل إلا طيباً» يعني: الطاهر المنزّه عن النقائص، الذي لا يعتريه الخُبث بأي حالٍ من الأحوال[2]، «وإذا وُصِف به العبدُ مطلقاً أُريدَ به: أنه المتعري عن رذائل الأخلاق، وقبائح الأعمال، والمتحلي بأضداد ذلك، وإذا وُصف به الأموالُ أريدَ به كونه حلالاً من خيار الأموال»[3].

فهو في حق الله تعالى يعني أنه سبحانه وتعالى طيّب في ذاته، طيّب في أسمائه، طيب في صفاته، طيب في أفعاله، طيب في أحكامه، ذاته هي الطاهرة المقدسة، وأسماؤه هي الحسنى البالغة في الحسن منتهاه، وصفاته هي العلية البالغة في العلو أقصاه، وأفعاله هي الحائزة من الخير أزكاه، وأحكامه هي العدل الذي لن تجد البشرية طريقاً إلى العدل سواه: ﴿ **سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى** ۝١ ﴾ [الأعلى: ١].

ولما كان سبحانه وتعالى طيباً لم يقبل أن يصعد إليه من العباد إلا ما كان طيباً «لا يقبل من الأعمال إلا ما كان طيباً طاهراً من المفسدات كلها – كالرياء والعجب –ولا من الأموال إلا ما كان طيباً حلالاً؛ فإن الطيب

---

(١) ينظر: جامع العلوم والحكم: (١/ ٦٢).

(٢) ينظر: شرح الأربعين. للعثيمين: (ص: ١٤١).

(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: (٥/ ١٨٨٩).





يوصَف به الأعمال والأقوال والاعتقادات، فكل هذه تنقسم إلى طيِّبٍ وخبيث.

وقد قيل: إنه يدخل في قوله تعالى: ﴿ **قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ** ﴾[المائدة: ١٠٠]هذا كلُّه.

وقد قسّم اللهُ تعالى الكلام إلى طيِّب وخبيث؛ فقال: ﴿ **ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ** ﴾ [إبراهيم: ٢٤]، ﴿ **وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ** ﴾[إبراهيم: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿ **إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ** ﴾ [فاطر: ١٠]، وَوُصف الرسولُ ﷺ بأنه يُحل الطيبات ويُحرِّم الخبائث»[1].

فانظر – أيها المحب لله ورسوله – فيما تأتي وتذر: أهو طيب فتكثر منه؟ أم خبيث فتتجنبه؟

إنه ميزان يجيب عن كثير من التساؤلات التي قد يطرحها بعض المجادلين بغير حق، ولو أنهم طبقّوا هذه القاعدة لاستراحوا وأراحوا!

تجد بعض الناس المبتلين بالتدخين – مثلاً – يجادلك في حِلّه وحرمته، ومن أقصر الطرق لذلك أن يُذكّر هذا المسلم بمثل هذه القاعدة: **«إن الله طيبٌ لا يقبل إلا طيباً»** فبالله عليك، مع أي القسمين تضع هذا الشراب؟ مع الطيب أم الخبيث؟ فلن يتردد عاقل بأنه خبيث، إذن: فالله تعالى لا يقبله ولا يحبه!

إذا تبين هذا: فاعلم – أيها الموفق – أن هذا «الطيب» الذي لا يقبل

---

(١) جامع العلوم والحكم: (١/ ٢٥٩).





الله سواه، يمتد زمانه إلى الدار الآخرة، فلن يدخل الجنة إلا نفسٌ طيبة، وهي النفس المؤمنة، فالنفوس الخبيثة لا تصلح أن تكون في الجنة الطيبة التي ليس فيها من الخبث شيء، بل إذا كان في النفس خبثٌ – وصاحبُها من أهل التوحيد – طُهّرت وهُذّبت حتى تصلح لسكنى الجنة، كما في الصحيح من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «**إن المؤمنين إذا نجوا من النار – أي عبروا الصراط – وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار؛ فيقتص لبعضهم من بعض؛ مظالمَ كانت بينهم في الدنيا، فإذا هُذّبوا ونُقّوا: أُذن لهم في دخول الجنة**»[1] [2].

فليحرص كل مؤمن أن يكون «كلُّه طيّبا: قلبُه ولسَانُه وجسَدُه؛ بما سكن في قلبه من الإيمان، وظهرَ على لسانه من الذِّكر، وعلى جوارحه من الأعمال الصالحة، التي هي ثمرةُ الإيمان، وداخلةٌ في اسمه، فهذه الطيبات كلها يقبلها الله عز وجل.

ومن أعظم ما يحصل به طِيب الأعمال للمؤمن: طِيب مطعمه، وأن يكون من حلال؛ فبذلك يزكو عملُه»[3]، وهذا – لعمر الله – من أهم المطالب وأعلاها عند أهل الإيمان، ولو كان أحدٌ يستغني عن الوصية بذلك لاستغنى الرسل عليهم الصلاة والسلام، الذين خاطبهم الله بقوله: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا** ﴾[المؤمنون: ٥١].

والطيبات – كما يقول الشنقيطي رحمه الله –: «هي الحلال الذي لا

---

(١) ينظر: البخاري ح(٦٥٣٥).

(٢) ينظر: مجموع الفتاوى: (١٤/ ٣٤٣-٣٤٤).

(٣) جامع العلوم والحكم: (١/ ٢٦٠).





شبهة فيه، وأن يعملوا العمل الصالح، وذلك يدل على أن الأكل من الحلال له أثر في العمل الصالح، وهو كذلك» ثم قال: «وتأثير الأكل من الحلال في الأعمال معروف»[1].

فإن قلتَ: كيف نميز بين الطيب والخبيث؟

فالجواب عن ذلك: أن مدار معرفة الطيب من الخبيث وضابطه: هو شرعُ الله تعالى، ولا يمكن أن يُرَد هذا إلى عقول الناس؛ لأنه يفتح من الشر والخلاف ما الله به عليم، فمن الناس مثلاً من يستقذر ويستخبث بعض المباحات، ومنهم – ممن انتكست فطرته – من يستطيب المحرمات!

اللهم اجعلنا طيبين مطيَّبين، في اعتقادنا وأقوالنا وأفعالنا، واجعل حياتنا طيبة، وقلوبنا سليمة، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

خلاصة القاعدة:

- كل طيب مقبول ولو قل، وكل خبيث مردود ولو عظم.
- الطيب ما طيبه الشرع، والخبيث ما استخبثه الشرع.
- أطب عملك يطب أجرك.



(١) أضواء البيان: (٥/ ٣٣٤).





القاعدة النبوية الثانية والثلاثون:
مثل الجليس الصالح والجليس السوء:
كحامل المسك، ونافخ الكير [1]

كونوا مع الله، فإن لم تقدروا أن تكونوا مع الله فكونوا مع من يكون مع الله.
(بعض العارفين)

إنها قاعدة قصيرة العبارات، كثيرة العبر والعظات.

وهي من جهة البيان البلاغي فيها: «لفٌّ ونشرٌ مرتّب؛ فأصل الكلام: مثل الجليس الصالح كحامل المسك، ومثل الجليس السوء كنافخ الكير، والمعنى: أن النبي ﷺ شبّه الجليس الصالح في دينه وخُلقه بمن يحمل معه مسكاً، وشبّه جليس السوء بمن ينفخ كيراً – وهو آلة من الجلد ينفخ بها الحداد على النار»[2].

إن دلالة هذه القاعدة النبوية في الحث على اختيار الصحبة الصالحة والتحذير من ضدهم بيّنةٌ واضحة، وهذا المثل يختصر عبارات كثيرة لبيان حال الصحبتين:

---

(١) البخاري ح(٢١٠١)، مسلم ح(٢٦٢٨).

(٢) منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري: (٥/ ١٧٥).







أما الجليس الصالح – وهو المثل الأول – فأنت معه في غُنمٍ على كل حال، كحامل المسك الذي تنتفع بما معه من المسك، إما ببيع، أو هبة، وأقلُّ أحواله أن تجد منه الرائحة الطيبة.

وهذه المغانم من صحبته، قد تكون دينية أو دنيوية، فلن تعدم منه إما علماً، أو تنبيهاً على خطأ، أو دلالة على خير في دينك أو دنياك، أو يحذِّرك مما يضرك، ويبصِّرك بعيوب نفسك، ويدعوك إلى مكارم الأخلاق بقماله وفعاله وسمته وهديه، فإن الإنسان – بطبعه – مجبول على التأثر بصاحبه، والأرواح جنود مجندة، والناس – كما قيل – كأسراب القطا، يتبع بعضها بعضا.

«**وأقلُّ ما تستفيده** من الجليس الصالح – وهي فائدة لا يُستهان بها –: أن تكف بسببه عن السيئات والمعاصي؛ رعاية للصحبة، ومنافسة في الخير، وترفعاً عن الشر، وأن يحفظك في حضرتك ومغيبك، وأن تنفعك محبتُه ودعاؤه في حال حياتك وبعد مماتك، وأن يدافع عنك بسبب اتصاله بك، ومحبته لك، وفوائد الأصحاب الصالحين لا تُعد ولا تحصى»[(١)].

وأما المثل الثاني – وهو جليس السوء، فهو ضرر من جميع الوجوه، لا غُنم فيه، بل كله غُرم وخسارة عاجلة وآجلة! ولله كم هلكت أديان أناس وضاعت دنياهم بسبب جلساء السوء! وكم قادوا أصحابهم إلى المهالك شعروا أم لم يشعروا! ألم يكن أصدقاء السوء سبباً من أسباب بقاء عم النبي ﷺ على ملة الكفر؟ ألم يكونوا سبباً في خواتيم سوء لعدد من أصدقائهم،

---

(١) بهجة قلوب الأبرار: (ص١٥٦).





حين زيّنوا لهم حياة الفحش والبذاء، بعد أن كانوا أعفةً كرماء؟!

ولهذا فإن من أعظم نعم الله على العبد: أن يوفقه لصحبة الأخيار، ومن أعظم صور العقوبات: أن يبتليه بصحبة الأشرار.

وما أجمل أن يتأمل المؤمن ويتدبر هذه الآية المخيفة! ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان:٢٧-٢٩] لقد بلغ به الندم مبلغه، بحيث لم يكتف بعض أصبع أو أصبعين أو ثلاثة، بل عض كلتا يديه! لشدة ما يعانيه من الندم الذي عبّر عنه بعض اليدين، وهي حركة معهودة يرمز بها إلى حالة نفسية ظهرت آثارها على الجسد! وهذا شيء يلحظه الإنسان في الدنيا، حينما يعيش الإنسان لحظات قلق، أو خوف، فاللهم لا توقفنا ذلك الموقف.

وَصَاحِبْ إذا صَاحَبْتَ حُرّاً فإنما يَـزِينُ وَيُـزري بـالفتى قُرَنَـاؤُهُ

إن من أجلِّ ما ترشدك إليه هذه القاعدة الجليلة:

التحذيرُ من مجالسة من يتأذى بمجالسته - كالمغتاب والخائض في الباطل -، والندب إلى من ينال بمجالسته الخير: مِن ذكر الله، وتعلُّم العلم، وأفعال البرِّ كلِّها، وقد قيل في الحكمة: «مصاحبة الأخيار تورث الخير، ومصاحبة الأشرار تورث الشر، كالريح إذا هبّت على الطِيْب عبقت طيباً، وإن مرت على النَّتَن حملت نتناً، وقيل: إذا جالستَ الحمقى علِق بك من حماقتهم ما لا يعلَق لك من العقل إذا جالست العقلاء؛ لأن الفساد أسرع إلى الناس وأشد اقتحاماً في الطبائع»[1].

---

(١) مرقاة المفاتيح: (٨/ ٣١٣٦).





«وقالوا: إياك ومجالسة الأشرار؛ فإن طبعك يسرق منهم وأنت لا تدري، وليس إعداء الجليسِ جليسَه بمقالِه وفعالِه فقط، بل بالنظر إليه! والنظرُ في الصور يورث في النفوس أخلاقاً مناسبة لخُلُق المنظور إليه؛ فإن من دامت رؤيتُه للمسرور سُرّ، أو للمحزون حزِن، وليس ذلك في الإنسان فقط؛ بل في الحيوان والنبات، فالجمل الصعب يصير ذَلولاً بمقاربة الجمل الذَّلول، والذلول قد ينقلب صعباً بمقارنة الصعاب، والريحانة الغضة تذبل بمجاورة الذابلة، ولهذا يلتقط أهل الفلاحة الرمم عن الزرع لئلا تُفسدها، ومن المُشاهد أن الماء والهواء يفسدان بمجاورة الجيفة، فما الظن بالنفوس البشرية التي موضعها لقبول صور الأشياء خيرها وشرها؟ فقد قيل: سمي الإنس لأنه يأنس بما يراه خيراً أو شراً»(1).

وأنشد بعضهم:

تجنب قريب السوء واصرم حباله(2) ... فإن لم تجد منه محيصاً فداره

ولازم حبيب الصدق واترم راءه ... تنل منه صفو الود ما لم تُماره

ومن يزرع المعروف مع غير أهله ... يجده وراء البحر أو في قراره

ولله في عرض السماوات جنةٌ ... ولكنها محفوفةٌ بالمكاره

قال ابن حبان - رحمه الله: «وصحبة الأشرار: تورث سوءَ الظن بالأخيار، ومَن خادَنَ الأشرار لم يسلم من الدخول في جملتهم، فالواجب على العاقل أن يجتنب أهل الرِّيَب لئلا يكون مريباً.

---

(1) فيض القدير: (5/ 507).

(2) أي: اقطع .





عليـك بـإخوان الثقـات فـإنهم قليلٌ فصلهم دون من كنـت تصـحب
ونفسك أكرمهـا وصـُنْها فإنهـا متى ما تجالس سفلة الناس تغضب (1)

والحاصل: أن الصحبة تؤثر ولا بد؛ ولذا أمر الله الصحابة ومن بعدهم – بعد قصة تخلف الثلاثة عن غزوة تبوك – بأمرٍ ذي دلالة بالغة لمن عرف مجمل القصة، فإن الله تعالى قال: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ** ﴿١١٩﴾ ﴾ [التوبة: ١١٩]، فإنك إذا تأملتَ – أيها المؤمن – في سبب نجاة كعب وصاحبيه – مع شدة ما عانوا طيلة خمسين ليلة – هو صدقهم وصحبتهم للصادقين، وما أهلك من هلك من المنافقين إلا كذبهم وصحبتهم لأمثالهم من أهل النفاق.

جميل – أيها المسلم – أن تجعل هذه القاعدة الشريفة دائمًا على بالك وأنت تخالط الناس، سواءٌ كانوا أقارب أم أباعد، في العمل أو التجارة، أو غيرها، وأن تعتبر بما سمعتَ من قصص في الطرفين، في حق من صحبوا الأشرار والأخيار، ومن الذي ينسى قصة موت أبي طالب عم النبي ﷺ على الشرك؟ لقد كان من أسبابها الواضحة: حضور أبي جهل وعبدالله بن أبي أمية بن المغيرة، وتذكيره بآلهة الآباء والأجداد، وردَّدوا عليه تلك العبارة الآثمة: أترغب عن ملة عبدالمطلب! حتى مات على الكفر – والعياذ بالله –.

ومن تتبع قصص المتورطين في عالم المخدرات؛ فإنه سيجد إجماعاً على أن من أعظم أسباب السقوط في هذا الوحل هم أصدقاء السوء، ومثل ذلك

---

(1) روضة العقلاء: (ص١٠٠).





ما يُسمع بين فينة وأخرى عن قصص مبكية من سوء الخاتمة لأناس عاشوا بين أُسَر صالحة؛ لكن أولئك تركوا تلك البيئة الطيبة واستبدلوها بسيئة، وصحبوا أهل الشر حتى ختم لهم بسوء والعياذ بالله.

وفي المقابل: انظر إلى أثر صحبة الأخيار كيف تؤثّر، فالغلام اليهودي الذي كان يخدم النبي ﷺ – وهي مجرد خدمة – أثّرت في نفسه تلك الصحبة والمعاملة الطيبة، فكانت خاتمتها: موتٌ على الإسلام، ونجاة من النار.

وقصةُ أصحاب الكهف نموذج مشرق في تقرير هذا المعنى، ومن لطائف تعليقات أهل العلم على هذه القصة: أنه لما كان الكلب مصاحباً لهؤلاء الأخيار نالته بركتهم – وهو كلب – فذكره الله في القرآن أربع مرات، قال ابن عطية – رحمه الله – في تفسيره: حدثني أبي، قال: سمعت أبا الفضل الجوهري – في جامع مصر – يقول على منبر وعظه: «إن من أحب أهل الخير نال من بركتهم، كلب أحب أهل فضل وصَحِبهم فذكره الله في محكم تنزيله»[1].

وما أعظم القرآن حين يقرر هذه الحقيقة العظيمة التي دلت عليها هذه القاعدة النبوية العظيمة: «**مثل الجليس الصالح والجليس السوء: كحامل المسك، ونافخ الكير**» حيث يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ۝٢٩﴾ [الفرقان: ٢٩] فهل من مدكر؟

---

(١) المحرر الوجيز: (٣/٥٠٤).





اللهم لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب، ووفقنا لصحبة الأخيار، وموالاة الأبرار، وقنا شر الأشرار وكيد الفجار.

خلاصة القاعدة:

- ضرب الأمثال أسلوب شرعي من أساليب التعليم.
- ليست القضية أن يكون لك صاحب، لكن من تصاحب!
- جليس الخير كله منافع، وجليس الشر كله مضار.
- مستواك واهتماماتك يؤثر فيها من يصحبك.









القاعدة الثالثة والثلاثون:
ما زاد اللهُ عبداً بعفو إلا عزاً[1]

> من شهد مشهد العفو والصفح والحلم وفضله وحلاوته وعزته؛ لم يعدل عنه إلا لعَشًى في بصيرته. (ابن القيم).

يتوقف المؤمن – وهو يقرأ أو يستمع لهذه الجملة – ليستحضر في ذهنه صوراً دامية من تاريخ العرب في الجاهلية الذين تقوم بينهم حروب من أجل أمور تافهة، ويستحضر – أيضاً – الأنفة التي جبل عليها الآدمي – والعربي خصوصاً – من العفو عمن ظلمه، فتأتي هذه القاعدة لتضبط مسار فهمه وفكره؛ ليقف على معنىٍ راقٍ، وهداية نبوية عظيمة، في باب التعامل مع أخطاء الآخرين معنا.

يستعرض الإنسان – وهو يقرأ هذه القاعدة – نماذج نبوية عملية تطبيقية لهذه القاعدة التي لا يسهل تطبيقها إلا على عظماء الرجال.

فمن الذي ينسى موقفه ﷺ في فتح مكة؟ حين صارت رقاب صناديد الكفر تحت قدميه، وهم ينتظرون ماذا يصنع بهم، فإذا حديث العفو، وإذ الرحمة النبوية تتجلى في أبهى صورها، وإذ أحب الكلمات التي يجب أن

---

(١) مسلم ح(٢٥٨٨).





يسمعها المخطئ والمُذْنِبُ تلامس آذانهم: اذهبوا فأنتم الطلقاء! فصلوات الله وسلامه على صاحب الخلق العظيم، الذي ما زال منذ نزلت عليه في مكة وفي أوائل البعثة: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ ما زال يترقى في مدارج الأخلاق، حتى لقي ربه.

«ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً» وكيف ينال العز بالعفو؟ والجواب: لأن العافي في مقام الواهب والمتصدق؛ فيعز بذلك[1].

وقال بعض العلماء: لأنه إذا عرف بالعفو ساد، وعظم في القلوب، وزاد عزه.[2]

ويوضح السعدي رحمه الله هذا العز في العفو فيقول: «وأما العفو عن جنايات المسيئين بأقوالهم وأفعالهم: فلا يتوهم منه الذل، بل هذا عين العز، فإن العز: هو الرفعة عند الله وعند خلقه، مع القدرة على قهر الخصوم والأعداء.

ومعلوم ما يحصل للعافي من الخير والثناء عند الخلق، وانقلاب العدو صديقاً، وانقلاب الناس مع العافي، ونصرتهم له بالقول والفعل على خصمه، ومعاملة الله له من جنس عمله؛ فإن من عفا عن عباد الله عفا الله عنه»[3].

وفي الترمذي بسند فيه ضعف: أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، كم أعفو عن الخادم؟ فصمت رسول الله ﷺ ثم قال: يا رسول

---

(١) كشف المشكل من حديث الصحيحين: (٣/ ٥٨٦).

(٢) مرقاة المفاتيح: (٤/ ١٣٣٤).

(٣) بهجة قلوب الأبرار: (ص٨١).







الله، كم أعفو عن الخادم؟ فقال: «**كل يوم سبعين مرة**»(١).

ولهذا ورد في الأثر: أن حملة العرش يسبحون الله، فيقول بعضهم: «سبحانك على حلمك بعد علمك»، ويقول بعضهم: «سبحانك على عفوك بعد قدرتك»(٢).

قال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿ **إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا** ﴿١٤٩﴾ ﴾ [النساء: ١٤٩]: «اعلم أن معاقد الخيرات - على كثرتها - محصورة في أمرين: صدقٌ مع الحق، وخُلقٌ مع الخَلق.

والذي يتعلق بالخَلق محصور في قسمين: إيصال نفعٍ إليهم، ودفع ضررٍ عنهم، فقوله: ﴿ **إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ** ﴾ إشارة إلى إيصال النفع إليهم، وقوله: ﴿ **أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ** ﴾ إشارة إلى دفع الضرر عنهم؛ فدخل في هاتين الكلمتين جميعُ أنواعِ الخير وأعمالِ البر»(٣).

«إذا جنى عليك أحدٌ وظلمك في مالك، أو في بدنك، أو في أهلك، أو في حقٍ من حقوقك؛ فإن النفس شحيحة تأبى إلا أن تنتقم منه، وأن تأخذ بحقك، وهذا لك، قال تعالى: ﴿ **فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ** ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وقال تعالى: ﴿ **وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ** ﴾ [النحل: ١٢٦]، ولا يلام الإنسان على ذلك، لكن إذا همّ بالعفو، وحدّث نفسه بالعفو؛ قالت له نفسه الأمارة بالسوء: إن هذا ذل وضعف، كيف تعفو عن شخص جنى عليك أو اعتدى عليك؟!

---

(١) أبو داود ح(٥١٦٤)، الترمذي ح(١٩٤٩) وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٢) ينظر: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٣/ ٥٥).

(٣) مفاتيح الغيب: (١١/ ٢٥٤).





فيقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً» والعز ضد الذل، والذي تحدثك به نفسك – أنك إذا عفوت فقد ذللت أمام من اعتدى عليك؛ فهذا – من خداع النفس الأمارة بالسوء، ونهيها عن الخير! فإن الله تعالى يثيبك على عفوك هذا، فالله لا يزيدك إلا عزاً ورفعة في الدنيا والآخرة»[1].

وحينما نطالع كتب الأخلاق والرقاق نجد سلفنا الصالح قد ضربوا أروع الأمثلة قولاً وفعلاً لهذا الخُلق الكريم.

قال علي رضي الله عنه: إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه.

وشتم رجلٌ الشعبيَ فجعل يقول: أنت كذا وأنت كذا، فقال الشعبي: إن كنت صادقاً فغفر الله لي، وإن كنت كاذباً فغفر الله لك.

وقيل للفضيل بن مروان: إن فلاناً يشتمك! فقال: لأغيظن مَن أمره، يغفر الله لنا وله، قيل له: ومَن أمَرَه؟ قال: الشيطان.

وقال الحسن: «كانوا يقولون: أفضل أخلاق المؤمنين العفو»[2].

وقال بعضهم: ليس الحليم من ظُلم فحَلُم، حتّى إذا قدر انتقم، ولكنّ الحليم من ظُلم فحَلُم، حتّى إذا قدر عفا.[3]

---

(١) شرح رياض الصالحين: (٣/ ٤٠٨).

(٢) الزهد لأحمد بن حنبل: (ص: ٢٣٣).

(٣) إحياء علوم الدين: (٣/ ١٨٤).







وقال الشافعي رحمه الله:

لما عفوت ولم أحقد على أحد أرحت نفسي من ظلم العداوات

وفي هذا المعنى يقول الحق سبحانه: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل: ١٢٦].

«ولو تأملنا حقيقة المثلية في رَدِّ الإساءة لوجدناها صعبة في تقديرها؛ فإنْ ضربَك شخصٌ ضربة، أعندك القدرة التي تردُّ بها هذه الضربة بمثلها تماماً بنفس الطريقة، وبنفس القوة، وبنفس الألم، بحيث لا تكون أنت مُعْتدياً؟ إنك لو تأملتَ هذه المثلية لفضَّلْتَ العفو بدل الدخول في متاهات أخرى»[(١)].

قال جعفر بن محمد: لأن أندم على العفو، أحب إلي من أن أندم على العقوبة.[(٢)]

ولنختم بهذين المثالين العمليين:

قال ابن القيم رحمه الله: «ومن أراد فهم هذه الدرجة كما ينبغي؛ فلينظر إلى سيرة النبي ﷺ مع الناس يجدها هذه بعينها، ولم يكن كمال هذه الدرجة لأحد سواه، ثم للورثة منها بحسب سهامهم من التركة.

وما رأيتُ أحداً قط أجمع لهذه الخصال من شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله روحه – وكان بعض أصحابه الأكابر يقول: وددت أني لأصحابي مثله لأعدائه وخصومه! وما رأيته يدعو على أحد منهم قط، وكان يدعو لهم.

---

(١) تفسير الشعراوي: (١/ ٦٣٠٦).

(٢) أدب المجالسة وحمد اللسان. ابن عبدالبر: (ص ١١٦).





وجئت يوماً مبشراً له بموت أكبر أعدائه، وأشدهم عداوة وأذى له، فنهرني وتنكر لي واسترجع! ثم قام من فوره إلى بيت أهله فعزاهم، وقال: إني لكم مكانه، ولا يكون لكم أمرٌ تحتاجون فيه إلى مساعدة إلا وساعدتكم فيه – ونحو هذا من الكلام – فسُرُّوا به، ودعوا له، وعظّموا هذه الحال منه؛ فرحمه الله ورضي عنه»[1].

<u>والمثال الآخر</u> هو للإمام أحمد رحمه الله:

يقول ابن كثير: «ولما رجع إلى منزله جاءه الجرايحي فقطع لحماً ميتاً من جسده، وجعل يداويه، والنائب في كل وقتٍ يسأل عنه، وذلك أن المعتصم ندم على ما كان منه إلى أحمد ندماً كثيراً، وجعل يسأل النائبَ عنه، والنائبُ يستعلم خبرَه، فلما عوفي فرح المعتصمُ والمسلمون بذلك، ولما شفاه الله بالعافية بقي مدة وإبهاماه يؤذيهما البرد، وجعل كل من آذاه في حل إلا أهل البدعة، وكان يتلو في ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٢٢].

ويقول: ماذا ينفعك أن يُعذَّب أخوك المسلم بسببك؟! وقد قال تعالى: ﴿ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الشورى: ٤٠] وينادي المنادي يوم القيامة: «ليقم من أجره على الله، فلا يقوم إلا من عفا»[2].

---

(١) مدارج السالكين: (٢/ ٣٢٨- ٣٢٩).

(٢) البداية والنهاية: (١٠/ ٣٦٩).





واعلم أخي أن في الصفح والعفو والحلم: من الحلاوة والطمأنينة والسكينة، وشرف النفس، وعزها، ورفعتها عن تشفيها بالانتقام: ما ليس شيء منه في المقابلة والانتقام[1].

اللهم اعف عنا واجعلنا من العافين عن الناس، وارزقنا من الأخلاق ما يقربنا إليك واجعلنا ممن هديتم لأحسن الأخلاق والأعمال والأقوال.

خلاصة القاعدة:

- ليس من لوازم العز القتل والسلب والظلم.
- من الحكمة وضع العفو في موضعه.
- العفو خلق عظيم، لا يستطيعه إلا العظماء.



(١) مدارج السالكين: (٢/ ٣٠٣).

تنبيه: قيد بعض العلماء بما إذا كان إصلاحاً؛ لقول الله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾[الشورى: ٤٠] أما إذا لم يكن إصلاحاً بل كان إفساداً؛ فإنه لا يؤمر به.





القاعدة النبوية الرابعة والثلاثون:
نعمتان مغبونٌ فيهما كثير من الناس: الصحّة والفراغ[1]

> يا ابن آدم! إن أردت أن تعلم قدر ما أنعم الله عليك؛ فغمض عينيك. (بكر المزني)

هذه قاعدة نبوية جليلة في فقه الوقت والعمر، وفي فقه الصحة والعافية، فهي دعوة نبوية إلى التصرف الأمثل، والتعامل الأحسن مع نِعم الله تعالى على العبد في الزمن والبدن.

وهي دعوة لاغتنام الطاقات، والحفاظ على الجهود فيما يعود نفعُه على الفرد والمجتمع، والرقي بالحياة إلى المستوى الأفضل والأكمل، والبعد عن استغلال الصحة والعافية في إيذاء الآخرين، أو السخرية من المعاقين، أو انتهاك ما حرمة رب العالمين.

إن في التعبير **بالغبن** – وهو النقص والغلبة على الشيء – لإشارةً إلى معنى شريف في هذه القاعدة النبوية، فإن أكثر الناس قد يقاتل على الغبن في ماله، أو وظيفته؛ لِتعلُّق ذلك بأمر معاشه، لكن قلّ منهم من يغتم ويهتمّ لضياع وقته، أو اغتنام قوة بدنه فيما يفيده وينفعه، ولهذا يقع الغبن في ذلك، كما هو مشاهد وواقع.

---

(١) البخاري ح(٦٤١٢).





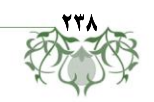
ولا يتفطن لهذا الغبن من الناس إلا القلة – في حال صحتهم وفراغهم – أما التفطن لذلك عند وجود الشغل أو المرض فهذا قدر مشترك بين الناس.

تأمل – مثلاً – في حال الطالب حين يقترب وقت اختباراته؛ كيف يحاصر الوقت ليغتنم كلّ دقيقة!

وتأمل في حال المريض حين يلجئه المرض إلى البقاء في السرير أياماً أو أشهراً وربما أكثر، ما الذي يتذكره حينها؟ إنهم غالباً لا يتذكرون إلا لحظات النشاط التي كانوا يغدون فيها ويروحون، ويتمنون القوة ليفعلوا ويعملوا، لكن بعد أن تبين الغبن!

إن من الناس من لا يشعر بالغبن في وقته – وهذا نوع من العقوبة الخفية – ولا يكتفي بهذا، بل تراه – لغفلته – ينقل غبنه ونقصه وتفريطه في وقته إلى الآخرين من خلال السطو على أوقاتهم، وإشغالهم عن أعمالهم بتافه القول، ورديء الحديث، وهؤلاء ممن عظمت منهم الشكوى من الغيورين على أوقاتهم، ولابن الجوزي في هذا آهات معروفة، منها قوله: «أعوذ بالله من صحبة البطالين! لقد رأيت خلقًا كثيرًا يجرون معي فيما قد اعتاده الناس من كثرة الزيارة، ويسمون ذلك التردد خدمة، ويطلبون الجلوس، ويجرون فيه أحاديث الناس، وما لا يعني، وما يتخلله غيبة!

وهذا شيءٌ يفعله في زماننا كثيرٌ من الناس، وربما طلبه المَزُوْرُ، وتشوق إليه! واستوحش من الوحدة، وخصوصًا في أيام التهاني والأعياد، فتراهم يمشي بعضهم إلى بعض، ولا يقتصرون على الهناء والسلام، بل يمزجون ذلك بما ذكرتُه من تضييع الزمان.





فلما رأيتُ أن الزمان أشرف شيء، والواجب انتهابه بفعل الخير؛ كرهت ذلك، وبقيت معهم بين أمرين: إن أنكرت عليهم وقعتْ وحشة؛ لموضع قطع المألوف! وإن تقبلته منهم؛ ضاع الزمان! فصرت أدافع اللقاء جهدي: فإذا غُلبت؛ قصّرت في الكلام لأتعجل الفراق»(١).

هذا ما يدركه العالمون بقيمة الوقت في هذه الدنيا، أما متى يعلم المغبونون قيمة ما فرّطوا فيه من أوقات؟ فسيعلمونها حين لا ينفع العلم، سيعلمونها إذا حضرهم أجلُهم، وسيعرفونها إذا كان يوم القيامة، تأمل هذه الآيات وتدبرها: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]، ويقول سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [المنافقون: ٩ – ١١]، أمّا في الآخرة فالحسرات التي سطرها القرآن على المفرطين، تأمل هذه الآية: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الروم: ٥٥، ٥٦]، ويقول تعالى: ﴿ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [المؤمنون: ١١٢، ١١٣].

---

(١) صيد الخاطر: (٢٤٠).





لقد جاء هذا التعبير النبوي العجيب: «**نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس**» لشحذ الهمم، وليسعى كلٌ إلى ما يجنِّبه عن ذلك الغبن، وتلك الخسارة.

والإنسان قد يكون صحيحاً ولا يكون متفرغاً للعبادة؛ لاشتغاله بأسباب المعاش، وقد يكون متفرغاً من الأشغال ولا يكون صحيحاً، فإذا اجتمعا للعبد، ثم غلب عليه الكسل عن نيل الفضائل؛ فذاك الغبن! كيف والدنيا سوق الرباح، والعمر أقصر، والعوائق أكثر![1]

يقول الطيبي – رحمه الله –: «ضرب النبي ﷺ للمكلف مثلاً بالتاجر الذي له رأس مال، فهو يبتغي الربح مع سلامة رأس المال، فطريقه في ذلك: أن يتحرى فيمن يعامله، ويلزم الصدق والحذق؛ لئلا يُغبن، فالصحة والفراغ رأس المال، وينبغي له أن يعامل الله بالإيمان، ومجاهدة النفس وعدو الدين؛ ليربح خيري الدنيا والآخرة، وقريب منه قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠﴾ [الصف: ١٠] الآيات، وعليه أن يجتنب مطاوعة النفس ومعاملة الشيطان؛ لئلا يضيع رأس ماله مع الربح، وقوله في الحديث: «مغبون فيهما كثير من الناس» كقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] فالكثير في الحديث في مقابلة القليل في الآية[2]ا.هـ.

«ونحن نستعيذ بالله من أن نُغبن بفضل نعمته علينا، ونجهل نفع إحسانه إلينا، وقد قيل في منثور الحكم: من الفراغ تكون الصبوة، وقال بعض البلغاء:

---

(١) ينظر: كشف المشكل من حديث الصحيحين: (٢/ ٤٣٧).

(٢) ينظر: فتح الباري: (١١/ ٢٣٠).





مَن أمضى يومه في غير حقٍ قضاه، أو فرضٍ أداه، أو مجدٍ أثّله أو حمدٍ حصّله، أو خيرٍ أسَّسه، أو علمٍ اقتبسه؛ فقد عقّ يومه، وظلم نفسه، وقال بعض الشعراء:

لقد أهاج الفراغُ عليك شـغلاً وأسباب البلاء من الفـراغ»[1]

وفي هذه القاعدة النبوية: «دليل على أن نعم الله تتفاوت، وأن بعضها أكثر من بعض، وأكبر نعمة ينعم الله تعالى بها على العبد: نعمة الإسلام»[2].

ومن الحكمة في الربط بين الغبن في المال والصحة: ما أشار إليه بعض أهل العلم؛ من أن الإنسان قد يستغني بالعافية كما يستغني بالمال، وكلٌ فيه فتنة، والعصمة في حال العافية نعمة ثانية، كالعصمة في الغنى نعمة النعمة، وهذا أحد الوجوه في قوله عزّ وجلّ: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ﴾ [الأحقاف: ٢٠][3].

قال الفضيل بن عياض: عليكم بمداومة الشكر على النّعم؛ فقلّ نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم[4].

وكان الحسن يَقُولُ فِي مَوْعِظَتِهِ: «المبادرة المبادرة! فإنما هي الأنفاس، لو حبست انقطعت عنكم أعمالكم التي تتقربون بها إلى الله عز وجل، رحم اللهُ امرأً نظر إلى نفسه، وبكى على عدد ذنوبه، ثم قرأ هذه الآية: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ يعني: الأنفاس، آخِرُ العدد خروج نفسك، آخر العدد فراق أهلك، آخر العدد دخولك في قبرك»[5].

---

(١) أدب الدنيا والدين للماوردي: (ص ٥٥).

(٢) شرح رياض الصالحين: (٢/ ٦٧).

(٣) ينظر: قوت القلوب: (٢/ ٣٩) باختصار.

(٤) قوت القلوب: (١/ ٣٤٩).

(٥) إحياء علوم الدين: (٤/ ٤٦٠).







«ومما يستعان به على دفع الغبن في الوقت والبدن:

أن يعلم العبد أن الله تعالى خلق الخلق من غير ضرورة إليهم، وبدأهم بالنعم الجليلة من غير استحقاق منهم لها، فمنّ عليهم بصحة الأجسام، وسلامة العقول، وتضمّن أرزاقهم، وضاعف لهم الحسنات، ولم يضاعف عليهم السيئات، وأمرهم أن يعبدوه ويعتبروا بما ابتدأهم به من النعم الظاهرة والباطنة، ويشكروه عليها بأحرفٍ يسيرة، وجعل مدة طاعتهم فى الدنيا منقضية بانقضاء أعمارهم، وجعل جزاءهم على ذلك خلوداً دائماً فى جنات لا انقضاء لها، مع ما ذخر لمن أطاعه مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر! فمن أنعم النظر في هذا كان حرياً ألا يذهب عنه وقتٌ من صحته وفراغه إلا وينفقه فى طاعة ربه، ويشكره على عظيم مواهبه، والاعتراف بالتقصير عن بلوغ كنه تأدية ذلك، فمن لم يكن هكذا، وغفل وسها عن التزام ما ذكرنا، ومرت أيامه عنه فى سهوٍ ولهوٍ وعجزٍ عن القيام بما لزمه لربه تعالى؛ فقد غبن أيامه، وسوف يندم حيث لا ينفعه الندم»[1].

وأيضاً: فإن العبد إذا تذكر لحظات مرضٍ مرّت به في سالف الدهر، نظر: ما الذي كان يجب أن يفعله في حال صحته، وليكن له بين الفينة والأخرى زيارة إلى المرضى في المستشفيات أو في دورهم؛ ليعلم قدر ما هو فيه من نعمة، وكيف حالَ المرضُ بين أهله وبين أكثر ما يريدون من العمل والإنجاز!

---

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال: (١٠/ ١٤٦-١٤٧).





اللهم اجعلنا ممن يربحون صحتهم وفراغهم أعظم الربح، وجنبنا الخسار في الدنيا والآخرة، واجعلنا على مرضاتك من العاملين، وبالفردوس الأعلى من الجنة من الفائزين.

خلاصة القاعدة:

- صحة + وقت + استغلال = إنتاج وتقدم وحضارة.
- أصحاب القبور يتمنون سجدة..فاستغل فراغك.
- كثير هم البشر الذين لا يعلمون قيمة النعم إلا بعد سلبها.









القاعدة النبوية الخامسة والثلاثون:
المسلم من سلِم المسلمون من لسانه ويده [1]

> الناس رجلان مؤمن فلا تؤذه، وجاهل فلا تجاهله. (الربيع ابن خيثم)

هذه قاعدة نبوية تجلِّي للعالَم الحقيقةَ التي يجب أن يكون عليها المسلم – ذكراً وأنثى – في باب المعاملة مع إخوانه المسلمين، فالمسلم حين يتصف بهذا الوصف العظيم؛ فهو يعلن استسلامه للذي فطر السماوات والأرض، ولأوامره ونواهيه، فهو بهذا يكون كاملَ الإسلام، وجامعاً لخصاله، ما لم يؤذ مسلماً بقولٍ ولا فعل.

والمعنى أن أفضل المسلمين من جمع إلى أداء حقوق الله تعالى أداء حقوق الناس، والكف عن أعراضهم [2]، **والأذى الذي يقع من الإنسان نوعان:**

أحدهما: ظاهر بالجوارح: كأخذ المال بنحو سرقة أو نهب.

والثاني: باطن: كالحسد والغل، والبغض والحقد، والكبر، وسوء الظن، والقسوة، ونحو ذلك، فكله مضر بالمسلم، مؤذٍ له، وقد أمر الشرع بكف النوعين من الإيذاء، وهلك بذلك خلقٌ كثير [3].

---

(١) البخاري ح(١٠)، مسلم ح(٤٠).

(٢) ينظر: شرح السنة للبغوي: (١/٢٨).

(٣) ينظر: فيض القدير: (٦/ ٢٧١).





وفي هذا الحديث أنواع من البيان النبوي الباهر، ومن ذلك:

١- تقديم ذكر اللسان قبل اليد في هذا الحديث حكمة؛ ذلك أن اللسان يمكنه القول في الماضين والموجودين والحادثين بعد، بخلاف اليد.[١]

٢- أنه عبّر باللسان ولم يقل: (من قوله)، ولعل السبب في ذلك أنه أعمُّ من جهة المعنى؛ لأن التعبير باللسان يدخل فيه: من أخرج لسانه على سبيل الاستهزاء، وفي ذِكر اليد دون غيرها من الجوارح نكتة: فيدخل فيها اليد المعنوية كالاستيلاء على حق الغير بغير حق[٢].

٣- تخصيصه ﷺ اليدَ واللسانَ – في الأمر بكف الأذى – أرفع الحِكم، وأشرف المقاصد؛ لأن أغلب ما يُؤذَى به الناس باليد أو اللسان، أو منهما معاً، أو بسببهما، أو بسبب أحدهما، واللسان – بلا شك – أدهى وأمرّ، ولعل هذا سبب تقديمه ﷺ لها على اليد هنا.

---

(١) فتح الباري: (١/ ٥٤).

(٢) فتح الباري: (١/ ٥٤).

قال ابن القيم في (التبيان في أقسام القرآن ص: ٣١١): «وجعل سبحانه اللسان عضواً لحمياً لا عظم فيه ولا عصَب؛ لتسهل حركتُه، ولهذا لا تجد في الأعضاء من لا يكترث بكثرة الحركة سواه؛ فإن أي عضوٍ من الأعضاء إذا حرّكْتَه كما تحرك اللسان لم يُطِق ذلك، ولم يلبث أن يَكِلّ ويخلد إلى السكون إلا اللسان! وأيضاً: فإنه مِن أعدل الأعضاء وألطفها، وهو في الأعضاء بمنزلة رسول الملك ونائبه، فمزاجه من أعدل أمزجة البدن، ويحتاج إلى قبض وبسط وحركة في أقاصي الفم وجوانبه، فلو كان فيه عظام لم يتهيأ منه ذلك، ولم يتهيأ منه الكلام التام، ولا الذوق التام، فكوّنه الله كما اقتضاه السبب الفاعلي والغائي والله أعلم.

وجعل سبحانه على اللسان غلقين: أحدهما الأسنان، والثاني الفم، وجعل حركته اختيارية، وجعل على العين غطاء واحداً، ولم يجعل على الأذن غطاء؛ وذلك لخطر اللسان وشرفه، وخطر حركاته، وكونه في الفم بمنزلة القلب في الصدر، وذلك من اللطائف! فإن آفة الكلام أكثر من آفة النظر، وآفة النظر أكثر من آفة السمع، فجعل للأكثر آفات طبقين، والمتوسط طبقاً، وجعل الأقل آفة بلا طبق».





فالسب والشتم، واللعن، والقذف، والغيبة، والنميمة، وقول الزور، وشهادة الزور، والكذب، والسخرية، والقول على الله بلا علم، ونقل الإشاعات الكاذبة .. وغيرها من الموبقات؛ إنما هي من اللسان، واليد بعد ذلك – في بعضها – يصدِّقها أو يكذبها؛ ككتابة تلك الشهادة المزورة، أو تلك الإشاعة الكاذبة.

ومن تأمل وقْع ما يحدثه القلم – الذي تحركه اليد – وأثرَ ذلك في العالم؛ أدرك شيئاً من مواقع هذه القاعدة العظيمة، رغم أن كثيراً من هؤلاء قد يكونوا ماتوا قبل قرون! فكم في الكتب من أسطرٍ شهدت على أصحابها بالأذى الذي تنوَّع في آثاره! فلله كم من ملحد أو منحرف الفكر سطّر بقلمه ما ضلّ بسببه الملايين! وكم من راوٍ سطر رواية خبيثة المحتوى، سيئة المضمون، غوى بسببها ملايين! ويقال مثل هذا في كُتاب المقالات الورقية والإلكترونية، وأصحاب المدونات، والمواقع، والمنتديات، ومواقع الفيديو، وغيرها من وسائل التواصل مع الخلق.

وليس هذا فحسب، بل تأمل أثر اليد فيما توقع عليه من شهادات الزور عند الأئمة والقضاة، وما يترتب على ذلك من أحكام قد تصل إلى قطع الرقاب، وإزهاق الأنفس، أو أخذ الأموال!!

وبهذه المناسبة أُذكِّر نفسي وإخواني المسلمين أن يتقوا الله فيما يقولون ويكتبون، وما عليه يوقعون؛ فإن الأمر عظيم، ومن غفل عن هذا فليذكر نفسه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور: ٢٤].

ويتأكدُ الاحتياطُ في عصرنا هذا الذي لم يَعُد الإنسان متحكماً في طريقة





النشر التي يريدها، فوسائل الاتصال المعاصر تفرض علينا مزيداً من الاحتياط والتروي والتثبت، وإذا كان ما على الورق لا يُمحى، فإن ما على الشبكة العالمية لا يمحى أيضاً، وإن حَذَفه ناشره، فالأعين والأيدي بالمرصاد، تحفظ وتخزّن المعلومات والصور، وتحفظ صورة ما كتب، وكم من صحيفة إلكترونية حاولت أن تحذف شيئاً نشر فيها فما أفلحت.

وإن من الخذلان الذي يقع لبعض المسلمين هداهم الله؛ أنهم يستغلون أمثال هذه الوسائل المعاصرة – من إنترنت وجوال وغيرها – لنشر ما وقعوا فيه من فجور وخنا، أو نشر ما حرّم الله من الصور الفاتنة، والمقاطع التي تؤجج الغرائز، أو تحميل الأغاني، يُحمّلها المسكين في دقائق على موقعه بلمسة من يده؛ ليشاهدها الملايين، ورصيد سيئاته يتضخم في اليوم والليلة!! ﴿ **أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦** ﴾ [المطففين: ٤ – ٦]؟! وهل نسي هؤلاء يوم تنشر الصحف؛ ليروا حصيلة أذيتهم لعباد الله بأيديهم وألسنتهم؟!

لقد منّ الله على بعض هؤلاء الإخوة فتاب مما كان يؤذي به عباد الله، ووضع على صفحة موقعه رجاءً بعدم النقل ولا إعادة ما تم تحميله من ذلك الموقع، إلى غير ذلك من أنواع التوسلات – وهي مما يشكر عليه ومن تمام توبته – ولكن قد كان الله أغناه عن ذلك بعدم فعلها أصلاً، ولكن تائب نادم خير من سادر في غيّه.

ومجمل القول في هذه القاعدة النبوية «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»:





«الحث على ترك أذى المسلمين بكل ما يؤذي، **وسِرّ الأمر في ذلك**: حسن التخلق مع العالَم، كما قال الحسن البصري في تفسير الأبرار: هم الذين لا يؤذون الذر، ولا يَرضون الشر»[1].

ومن أراد أن يربي نفسه على ترك أذى المسلمين بلسانه ويده؛ فليتأمل الأمرين الآتيين:

الأول: هذا الحديث القدسي الذي يرويه نبينا الكريم، عليه الصلاة والسلام عن رب العالمين: «ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»[2].

قال الخطابي في معناه: توفيقُ الله لعبده في الأعمال التي يباشرها بهذه الأعضاء، وتيسير المحبة له فيها، بأن يحفظ جوارحه عليه، ويعصمه عن مواقعة ما يكره الله: من الإصغاء إلى اللهو بسمعه، ومن النظر إلى ما نهى الله عنه ببصره، ومن البطش فيما لا يحل له بيده، ومن السعي إلى الباطل برجله.[3]

فالمحافظة على الفرائض، والإكثار من النوافل؛ طريقك أيها المسلم لأن يوفقك ربُك لضبط لسانك ويدك، وجميع جوارحك.

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري: (١/ ١٣٢).

(٢) البخاري ح(٦٥٠٢).

(٣) ينظر: مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: (٧/ ٣٩٠): «وإلى هذا نحى الداودي...ومثله قال الكلاباذي».





والثاني: أن تتذكر – أيها المسلم – لحظة وقوفك بين يدي الله تعالى، وحين تعرض عليك صحيفتك! لو كانت الصحيفة مليئة بذنوب بينك وبين الله! فإن الموقف يبعث على الحياء والخجل، وإنها لعلى رجاء رحمة أرحم الراحمين، ولكن كيف تصنع إذا كانت ذنوبك بسبب أذيتك لعباد الله بلسانك ويدك؟ ذنوب كتبتها ونسيتها:

واذكـر مناقشـة الحسـاب فإنـه	**لا بـــد يحصـــى مـــا جنيـــت**
لم ينســـه الملكـــان حـــين نســـيته	**بـــل أثبتـــاه وأنـــت لاهٍ تلعـــب**

الموقف والله حينها موقفٌ عظيم، يفر المرء فيه مِن أحب الناس إليه، الذين سيكونون أول من يطلب منه حقه إن وجد إلى ذلك سبيلاً! فكيف تصنع بأذية أناس بلغهم أذاك وأنت في قبرك بسبب ما سطرته يدك، أو أحدثه لسانك؟ إن المؤمن الذي يرجو لقاء الله ليخاف من ذنوبه وحده، فكيف سيتحمل ذنوباً تسبب فيها؟ إن هذا لهو الإفلاس الحقيقي الذي أراد نبينا ﷺ أن يغرسه في نفوس أصحابه حين سألهم: «أتدرون ما المفلس»؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع! فقال: «إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا؛ فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناتُه قبل أن يُقضى ما عليه أُخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار»![1]

---

(١) مسلم ح(٦٧٤٤).





اللهم أجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، واجعلنا ممن أسلم لك حقاً.

خلاصة القاعدة:

- الجوارح جوارح فكن منها على حذر.
- أذية المسلمين تسلبك حسنات أحوج ما تكون إليها.
- من لم يرض الأذية لنفسه، فكيف يرضاها لغيره!







القاعدة النبوية السادسة والثلاثون:
كلكم راعٍ، وكلكم مسئولٌ عن رعيته [1]

ليس مِن حِلمٍ أحب إلى الله ولا أعم نفعاً من حِلمِ إمام ورفقِه. (عمر بن الخطاب)

هذه قاعدة من القواعد النبوية المحكمة في أبواب العلاقات البشرية.

إنها قاعدة جامعة، بديعة التشبيه، بليغة الموعظة، إنها رسالة تقول: كلكم راعٍ في هذه الدنيا، وكلكم مسئول عن رعيته في الآخرة، «وهو تمثيل ليس في الباب ألطف ولا أجمع ولا أبلغ منه»[2].

والرعي هو: حفظ الشيء، وحسن التعهد له، والراعي: هو الحافظ المؤتمن، الملتزم صلاحَ ما قام عليه وما هو تحت نظره، فكلّ من كان تحت نظره شيءٌ فهو مطلوب بالعدل فيه، والقيام بمصالحه في دينه ودنياه ومتعلقاته، فإن وفّى ما عليه من الرعاية؛ حصل له الحظ الأوفر، والجزاء الأكبر، وإن كان غير ذلك طالَبه كلُّ أحدٍ من رعيته بحقّه.[3]

---

(١) البخاري ح(٨٩٣)، مسلم ح(١٨٢٩).

(٢) فتح الباري: (١٣/ ١١٣).

(٣) عمدة القاري: (٦/ ١٩٠) بتصرف يسير.







ثم فصّل عليه الصلاة والسلام فقال: الإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والخادم راعٍ في مال سيده ومسئول عن رعيته» قال ابن عمر: – وحسبت أن قد قال –: «والرجل راع في مال أبيه ومسئول عن رعيته»[١].

«هذه كلها أمانات تلزم من استُرْعِيَها أداءُ النصيحة فيها لله، ولمن استرعاه عليها، ولكل واحدٍ منهم أن يأخذ مما استُرعي أمرَه ما يحتاج إليه بالمعروف – مِن نفقة ومؤنة»[٢].

«فقد استوى هؤلاء في الاسم ولكن معانيهم مختلفة:

أما رعاية الإمام ولاية أمور الرعية: فالحياطة من ورائهم، وإقامة الحدود والأحكام فيهم.

ورعاية الرجل أهله: فالقيام عليهم بالحق في النفقة، وحسن العشرة.

ورعاية المرأة في بيت زوجها: فحسن التدبير في أمر بيته، والتعهد بخدمة أضيافه.

ورعاية الخادم: فحفظ ما في يده من مال سيده والقيام بشغله»[٣].

ولو أردنا أن نقلّب النظر في واقع كثيرٍ من المسلمين مع هذا الحديث؛

---

(١) البخاري ح(٨٩٣).

(٢) قاله المهلّب كما في شرح البخاري لابن بطال (٧/ ٧٠).

(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: (٦/ ٢٤٠٢).





لوجدنا خرقاً واضحاً لهذه الوصية النبوية وللأسف، ولن يتعب الناظر في جمع الشواهد، ومن ذلك:

١- التقصير البيّن في تربية الأبناء والبنات.

ولئن عذر الإنسان بعدم قدرته على بعض الوسائل التربوية، فبماذا يُفسّر إحضار أجهزة اللهو المحرم، وإدراج القنوات الفاسدة في طبق البيت الفضائي؟! ليخربوا بيوتهم بأيدهم، ويساهمون في هدم بقايا الفطرة الموجودة في نفوس الأبناء والبنات، فرأينا آثار ذلك في أخلاق وسلوكيات جيلٍ ظهر على هذه الأطباق، التي قتلت المروءة، وأغرت بالتشبه بالكفار، والتعلق بالتافهين.

وفي مقابل هذا، فإنني أعلم – يقيناً – أن في البيوت نساء فاضلات يحرصن على ترميم ما تفسده هذه الأطباق التي يصر بعض الآباء – هداهم الله – على جعلها في متناول البنين والبنات، دون تمييز أو تمحيص، ولكن آلة الهدم أقوى من آلة البناء، وفي النفوس ميل إلى الشهوات، فكيف يكون الحال إذا جيء بما يؤججها؟ وماذا يقال عمن يطفئ النار بالزيت؟!

هذا في باب المنهيات، وأما التقصير في باب الأوامر، فإن من الآباء من لا يأمر أولاده بالصلاة ولا يحضهم على ذلك، وهو في المقابل لو قصّر ابنه في دراسته أو شأن دنياه لدارت حماليق عينيه! سبحان الله! أليس لهؤلاء قدوة بمن أمرنا بالاقتداء بهم من أنبياء الله ورسله؟ فهذا إسماعيل عليه الصلاة والسلام يثني عليه ربه بقوله: ﴿ **وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾** ﴾ [مريم: ٥٥]، بل يقول الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ **وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا** ﴾[طه: ١٣٢] وتأمل في قوله: (واصطبر)! ففيها دلالة





واضحة على أن هذا الأمر فيه مشقة ويحتاج إلى صبر خاص؛ لأن العاقبة حميدة أو خطيرة.

وإنني أُذكّر إخواني المسلمين – الذين يتهاونون في مثل هذه الأمور – بقول الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦ ﴾ [التحريم: ٦]، وليحذر أن يكون أولاده وزوجته هم أول خصومه يوم القيامة: ﴿ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ٣٧ ﴾ [عبس: ٣٤ – ٣٧].

٢- ومن صور خرق هذه القاعدة النبوية في واقعنا:

ما يقع من تقصير بعض من أوكل إليه من قِبَل وليّ الأمر إدارة أو رئاسة أو أي وظيفة من وظائف الدولة، فربما وقع التقصير في حضور الدوام، أو إنجاز ما يجب إنجازه، أو تأخير ما لا يحل تأخيره، وتعطيل مصالح الناس بلا عذر، وأشدّ من هذا أخذ الرشوة مقابل سرعة الإنجاز، وهذا كلّه خيانة لأئمة المسلمين وعامتهم، وسيسأل الله كلّ مقصرٍ عما استرعاه الله، فإن فرّ في الدنيا من الحساب، فأين المفر يوم القيامة؟ ﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ ١١ ﴾ [القيامة: ١١].

٣- ومن صور التقصير الملاحظة في الواقع في تحقيق ما دلّت عليه هذه القاعدة النبوية «كلكم راعٍ، وكلكم مسئولٌ عن رعيته»: ما يقع في ميدان التعليم، من تقصير بعض المعلمين في النصح لتلاميذهم، ومن صور ذلك:

- عدم التحضير الجيد للمادة العلمية؛ فبعض الأساتذة – هداهم الله –





يكرر ما عنده، ويردد مقوله الذي كان يقوله قبل سنوات، خاصة وأن بعض المواد متجددة، ويقع فيها اكتشافات، ونوازل.

- التقصير في نصح المخطئ من الطلاب، ذلك أن بعض الطلاب توجد منهم سلوكيات أو مظاهر غير جيدة، فيدخل الطالب المدرسة أو الجامعة ولم يسمع من أساتذته من ينبهه على خطئه، ولربما ظن أن ما هو فيه صحيح، فإذا بهذا الطلاب ينتقل بعد سنوات إلى ميدان التعليم، فيصبح قدوة غير حسنة للطلاب، والسبب تقصير الأساتذة في تنبيهه.

٤- ومن صور التقصير المشاهدة:

تقصير بعض الأئمة والمؤذنين في أداء وظيفتهم التي أنيطوا بها.

ولعل شأن الخطيب في خطبة الجمعة أشدّ وآكد، ومن المحزن أنك تجد بعض الخطباء لا يُقدّر قيمة المنبر الذي يعتليه، فالتحضير غير جيّد، والمتابعة للمستجدات ضعيفة، وتطوير الخطيب لنفسه في الأداء والأسلوب لا يخطر له على بال، وهذا كلّه مخالف لما استرعاه الله عليه من أمانة هذا المنبر، ولو أن الخطيب استشعر أنه يقوم مقام النبي ﷺ لكان الأمر مختلفاً.

أقول هذا وأنا أعلم أن كثيراً من الخطباء – ولله الحمد – على قدر جيّد من رعاية هذه الأمانة، لكن لا ينكر وجود أعداد غير قليلة يقع منها التقصير في هذا الباب.

وما يقال في حق الخطيب يقال في حق الإمام والمؤذن؛ فالواجب على الجميع رعاية هذه القاعدة النبوية: «كلكم راعٍ، وكلكم مسئولٌ عن رعيته».

وتَعظُم الأمانة وتكبر التبعة كلما كان المتعلقون بهذه الوظيفة أكبر، ولأجل هذا الحديث وأمثاله كان الفاروق رضي الله عنه يقول: لو عثرت





بغلة في العراق في الطريق لخفت أن يسألني الله عن ذلك، لماذا لم تسوِّ لها الطريق يا عمر؟! فهذا خوفه رضي الله عنه من التقصير في حقّ بهيمة، فكيف بالإنسان! أم كيف بالمسلم!!

ومثله قول عمر بن عبدالعزيز: ضع الحَب على رؤوس الجبال؛ حتى لا يقال: جاع الطير في بلاد المسلمين.

إن هذه القاعدة النبوية العظيمة منهجٌ عظيم في العلاقات بين الخلق، وهو مما يربي في المؤمن – الذي يرجو الله واليومَ الآخر – الخوف من الله واستشعار الأمانة، وأن الله تعالى سائله عما استرعاه.

ألا وإن من أعظم الزواجر التي تزجر المؤمن عن تضييع ما استرعاه الله – دقّت مسؤوليته أم جلّت – قوله ﷺ في الحديث المتفق عليه: «**ما من عبد يسترعيه الله رعية، يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته، إلا حرم الله عليه الجنة**»[1] وفي لفظ للبخاري: «**ما من عبد استرعاه الله رعية، فلم يحطها بنصيحة؛ إلا لم يجد رائحة الجنة**»[2]، فأي مصيبة أعظم من حرمان الجنة! نعوذ بالله من هذه العقوبة.

إذا تبين هذا، فإن من واجب من ولاّه الله تعالى أمراً من الأمور أن يجتهد في تولية الأكفاء الناصحين الذين تبرأ بهم الذمة، وترتفع بهم التبعة، مع السؤال والمتابعة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

---

(١) البخاري ح(٧١٥١)، مسلم ح(١٤٢)واللفظ له.

(٢) البخاري ح(٧١٥٠).





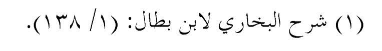
قال ابن بطّال – رحمه الله – في هذا المعنى: «فينبغي لهم تولية أهل الدين والأمانة للنظر فى أمر الأمة، فإذا قلّدوا غيرَ أهل الدين، واستعملوا مَن يعينهم على الجور والظلم؛ فقد ضيعوا الأمانة التى فرض الله عليهم»[1].

اللهم اجعلنا رعاة خيرٍ وصدق لأنفسنا ولمن وليتنا عليه، وأعنا لإعطاء كل ذي حقٍ حقه، وأجرنا من الظلم خفيه وجليه، دقيقه وجليله.

خلاصة القاعدة:

- تختلف الرعاية باختلاف المرعي.
- بناء الثقة وتحمل المسؤلية مطلب شرعي وعقلي.
- صلاح المجتمع والأمة بحسن رعاية كل فرد لمن تحت يديه.
- الرعية أمانة فيجب حسن اختيار الراعي لها.





(١) شرح البخاري لابن بطال: (١/ ١٣٨).





القاعدة النبوية السابعة والثلاثون: فاظفر بذات الدين

> إن كان العقد رغبةً في الدين فهو أوثق العقود حالاً، وأدومها ألفة، وأحمدها بدءاً وعاقبة.
> (الماوردي)

ورَدَت هذه القاعدة الشريفة ضمن حديثٍ عدّه جمعٌ مِن أهل العلم مِن جوامع كَلِمه ﷺ[1]، نذكره لنعرِّج على بعض معانيه التي نخلص منها إلى إشباع قاعدتنا هذه بما تيسر مِن البيان والتوضيح، وذلكم الحديث هو ما رواه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ قال: «**تُنكح المرأةُ لأربع: لمالها، ولحسبها، وجمالها، ولدينها؛ فاظفر بذات الدين تَرِبَتْ يداك**»[2].

فهذا الحديث الذي يتحدث عن اختيارات الناس في هذا الباب:

فمن الناس مَن يرغب في الزواج من المرأة الغنية؛ لتعينه على مطالب الحياة، أو تُوفِّر عليه بعضَ مطالبها الخاصة، أو يتمتع في مالها وينعم به.

ومنهم مَن يرغب في ذات الحسَبِ والشرف والمكانة، ليرتفع بذلك شأنه، فيعتز بهم من قلة، ويتقوى بهم من ضعف.

---

(١) ينظر: فيض القدير: (٣/ ٢٧١).

(٢) البخاري ح(٥٠٩٠)، مسلم ح(١٤٦٦).





ومنهم من يرغب في ذات الجمال ؛ ليمتع نفسه بذلك.

ومنهم من يرغب في ذات الدّين والحَصَان، يأمن بدينها أن يُثلَم شَرَفُه، أو تزِل قدمُها في مَهواة المعاصي والشرور، إن غاب حفظتْ غيبه، وإن حَضَر لم تقع عينُه منها على ما يكره.

ولا يستريب إنسان أن الشرع لا يمنع من تلمّس هذه المقاصد، بشرط عدم إهمال المعيار الأهم، الذي لا يصح أن يغيب عن ذهن الباحث عن الزوجة؛ ألا وهو معيار التدين.

فإن ذات الدين إذا وُجدتْ لا ينبغي العدول عنها؛ لأنها ضجيعة الرجل وأم أولاده، وأمينتُه على ماله وسِره وشرَفه، فدينُها يجعل الرجل مطمئناً، يفضي إليها بذات نفسه، ويُطلِعها على مكنون أمره، وتكونُ الحفيظةَ على ماله ومنزله، المربّيةَ لأولاده على التقوى والصلاح؛ فهو بها سعيد، وهي به سعيدة: ﴿ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾ [النساء : ٣٤].

أما ذاتُ المال التي لم تعتصم بالدّين: ولم تَتَحَلّ بالتقوى؛ فقلّما يدوم له صفاؤها، ويُساس قِيادُها، وقلما تَرعى حقوقَه، وتكونُ له البارة المطيعة، وإنما تعتز عليه بمالها، وتفخر بثرائها، ترى أن لها مِن غناها ما يجعلها النافذة الكلمة، المطاعة الأمر، ذات الحرية المطلقة! وتسيّره كما تُحب وتهوى! فينقلب الأمرُ، وتعظم المصيبة – كما هو مشاهد بين ظهرانينا، مما تئن منه الحياة الزوجية، ويَهدِم في كيان الأسر – وينشئ الأبناءُ على أسوأ المُثُل، وأدنى الصفات، ويُجعل المنزل مباءةَ مقتٍ وكُره، ومثابةَ شرورٍ وآلام، ونزاعٍ وخصام.





وأما ذاتُ الحسَب: فإنها تُدِل على زوجها بحَسَبها؛ وتفخر عليه بعديدها، وبخاصة إذا كان أقل منها عددا؛ فلا يشعر معها بهناءة ولا سعادة، أو يُطأطىء لها رأسَه، ويُذل نفسَه.

وأما ذاتُ الجمال العارية من التدين: فقد تكون مبعَثَ ظِنةٍ، ومجلبةَ ريبة.

ومما يُؤكَّد عليه، أن هذا الكلام لا يراد منه أن يُعرِض المرءُ عن ذات المال والحسَب والجمال، ويُقبِل على المُعدمة الوضيعة الدميمة، بل المراد: ألا يجعل الإنسانُ نُصب عينه – في اختيار الزوجة وتفضيلها – المالَ أو الحسبَ أو الجمالَ فقط، غير آبهٍ بما عساه يكونُ لها مِن صفاتٍ أخرى، ولا ينقِّب عما تتحلى به من خلالٍ قد تَفضُل ما نظر إليه منها، بل ليبدأ بذات الدّين والتقوى، فإذا ضُمّت إلى ذلك خلةٌ من الخِلال المرغوبة كان خيراً وأفضل.

ومن جميل ما يذكر من القصص في هذا المعنى الذي دلّت عليه هذه القاعدة «فاظفر بذات الدين تربت يداك»؛ ما رواه يحيى بن يحيى النيسابوري قال:

كنت عند سفيان بن عيينة إذ جاءه رجل فقال: يا أبا محمد! أشكو إليك من فلانة – يعني: امرأته – أنا أذلُّ الأشياء عندها واحقرها! فأطرق سفيان ملياً ثم رفع رأسه فقال: لعلك رغبتَ إليها لتزداد بذلك عزاً؟ فقال: نعم يا أبا محمد! فقال: **من ذهب إلى العز ابتلي بالذل، ومن ذهب إلى المال ابتلي بالفقر، ومن ذهب إلى الدين يجمع الله له العز والمال مع الدين**، ثم أنشأ يحدثه فقال: كنا إخوة أربعة: محمد وعمران وإبراهيم وأنا، فمحمد أكبرنا وعمران أصغرنا وكنت أوسطهم، فلما أراد **محمد** أن يتزوج رغب في





الحسب، فتزوج من هي أكبر منه حسباً فابتلاه الله بالذل، **وعمران** رغب في المال فتزوج من هي أكبر مالاً منه؛ فابتلاه الله بالفقر، أخذوا ما في يديه ولم يعطوه شيئاً، فنقّبتُ في أمرهما، فقدم علينا معمر بن راشد، فشاورته وقصصت عليه قصة أخَويّ، فذكّرني حديث يحيى بن جعدة، وحديث عائشة:

فأما حديث يحيى بن جعدة قال النبي ﷺ: «**تنكح المرأة على أربع: دينها وحسبها ومالها وجمالها، فعليك بذات الدين تربت يداك**»، وحديث عائشة أن النبي ﷺ قال: «**أعظم النساء بركة أيسرهن مؤنة**»، فاخترت لنفسي الدين، وتخفيف الظهر؛ اقتداء بسنة رسول الله ﷺ فجمع الله لي العز والمال مع الدين»[(١)] [(٢)].

إن المشاهد والمعروف في الواقع: أن جمال الوجه، وحسن القوام يذبل مع تقادم العهد وطول الزمن، ويفقد نضرته مع الأيام، **أما جمال الروح، وروعة التدين فلا تزيدها الأيام إلا جِدّة، وحلاوة.**

ومن المعلوم أن الإنسان أن لن يجد المرأة الكاملة التي لا نقص فيها ولا عيب! فالكمال لله، وطبع البشر هو النقص والعيب، ومتى كمُل هو أصلاً

---

(١) تهذيب الكمال (١١/١٩٤).

(٢) في أدب الدنيا والدين: (ص١٥٧)، «رُوي أن أكثم بن صيفي قال لولده: يا بني! لا يحملنَّكم جمالُ النساء عن صراحة النسب؛ فإن المناكح الكريمة مَدْرَجة للشرف.

وفيه: وقال أبو الأسود الدؤلي لبنيه: قد أحسنتُ إليكم صغاراً وكباراً، وقبل أن تولدوا! قالوا: وكيف أحسنتَ إلينا قبل أن نولد؟! قال: اخترتُ لكم مِن الأمهات من لا تُسبُّون بها.

فأول إحساني إليكم تخيُّري * لماجدَةِ الأعراق بادٍ عفافها.**





مِن كل نقصٍ حتى يطلب امرأةً كاملة؟! وإنما عليه أن يسدد ويقارب، ويتحرى الظَفَر بذات الدِّين، ويسأل ربَّه التوفيق.

وفي قوله عليه الصلاة والسلام – في هذه القاعدة –: «فاظفر» إشارة إلى سرعة المبادرة والسبق إليها، وعدم التباطؤ أو التأخر.

وأما قوله ﷺ: «تربت يداك» فإن النبي ﷺ «لم يُرد الدعاء عليه بالفقر، وإنما أراد به الاستحثاث، كما يقول الرجل: أَنِخْ ثكلتك أمُّك! إذا استعجلتَه، وأنتَ لا تريد أن تثكله أمه، وقال ابن قتيبة: وهذا من باب الدعاء الذي لا يُراد به الوقوع»[1].

وما قيل في اختيار المرأة يُقال في اختيار الرجل؛ وكما قيل للرجل: «فاظفر بذات الدين» يقال للمرأة: «فاظفري بصاحب الدِّين»، ويجب على وليِّ المرأةِ أن يختارَ لها الرجلَ الديِّن، صاحبَ الخُلُق والمروءة، وأن يظفر به، ولا يعضُلها ويمنعها من الزواج، أو يؤخرها كثيراً طمعاً في مالها! فيكون ظالماً لها، ولا يُكرِهها على الزواج ممن تَكرهه ولا تُحبه، بل يَعرض عليها مَن يرى فيه مكافئته لها مِن ذوي الدين والخُلُق ممن تقدم لخطبتها، ثم يترك الخيار لها، فقد قال النبي ﷺ: «لا تُنكح الأيّم حتى تُستَأمر، ولا تُنكح البِكر حتى تُستأذن» قالوا: يا رسول الله، وكيف إذنها؟ قال: «أن تسكت»[2]، وقد بوّب

---

(١) قاله الأصمعي، ينظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال: (٧/ ١٨٧).

(٢) البخاري ح(٥١٣٦)، مسلم ح(١٤١٩).





البخاري لهذا الحديث بقوله: «باب لا ينكِح الأبُ وغيرُه البكرَ والثيبَ إلا برضاها»، ويروى أن رجلاً خطب مِن عبدالله بن عباس – رضي الله عنهما – يتيمةً كانت عنده؛ فقال: لا أرضاها لك! قال: ولم وفي دارِك نشأتْ؟ قال: إنها تتشرّف، قال: لا أبالي! فقال: الآن لا أرضاك لها! – كأنه رأى أنه لا يبالي بأن يُهان؛ فلم يرضه لها.

وفي معنى هذا قولُ بعضِ العلماء: مَن رضي بصحبةِ مَن لا خير فيه لم يرضَ بصحبته مَن فيه خير[1].

لقد تأمل علماءُ الشريعة هذه القاعدةَ الجليلة، والحديثَ الذي وردت فيه؛ فاستلهموا بذلك التأمل شيئاً مِن المسائل الشرعية والأخلاقية، من ذلك:

١- «أن اللائق بذي الدِّين والمروءة أن يكون الدِّين مطمحَ نَظَره في كل شيء، لا سيما فيما تطولُ صحبتُه»[2] كالزوج والزوجة.

٢- وأن في هذا: «الحث على مصاحبة أهل الدين في كل شيء؛ لأنَّ صاحبَهم يستفيدُ من أخلاقهم وبركتهم، وحسنِ طرائقهم، ويأمَن المفسدةَ مِن جِهتهم»[3].

وفي صحيح مسلم يقول ﷺ: «الدنيا كلُّها متاع، وخيرُ متاعِ الدنيا

(١) أدب الدنيا والدين: (ص: ١٥٧).

(٢) فتح الباري: (٩/ ١٣٥).

(٣) شرح النووي على مسلم: (١٠/ ٥٢).





المرأةُ الصالحة»[1] أي: أن الدنيا إنما هي شيءٌ يُتمتع به، كما يَتمتع المسافرُ بزادِه ثم ينتهي، وخيرُ متاعها المرأةُ الصالحة؛ إذا وُفق الإنسان لامرأةٍ صالحة في دينها وعقلها فهذا خيرُ متاع الدنيا؛ لأنها تحفظه في سِره، وماله، وولده[2].

ومن سعد حظ المرء وجدان زوجـة   تطيب بها هـذي الحيـاة وتعـذب

اللهم وفقنا في جميع شؤوننا لما تحب وترضى، وارزق أبناءنا زوجاتٍ صالحات، وبناتنا أزواجاً صالحين، وأصلح شباب وشابات المسلمين.

خلاصة القاعدة:

- أذواق الناس تختلف وطبائعهم تتنوع، فمن كان هواه تبعاً للشرع فقد سلم وفاز.
- ذات الدين مع بقية الصفات، نور على نور.
- ذات الدين يحجزها عن المحارم دينها.



(١) مسلم ح(١٤٦٧).

(٢) شرح رياض الصالحين: (٣/ ١٣٦)بتصرف.





القاعدة النبوية الثامنة والثلاثون:
لا يأتي على الناس زمانٌ إلا والذي بعده شرٌ منه [1]

> «ما بكيتُ من زمانٍ إلا بكيتُ عليه»!
>
> (الشعبي)

هذه قاعدة نبوية تبيّن سنةً من سنن الله في الأمم والمجتمعات.

وحاشا نبيَ الله تعالى أن يدعو أمتَه إلى اليأس والقنوط! أو يسوقَهم إلى الإحباط والركود! كيف وهو سيد المتفائلين، وإمام الصابرين، عليه صلوات وسلام رب العالمين!

لكن كلامه عليه الصلاة والسلام يفسِّر بعضُه بعضاً، ويأخذ بعضه بأعناق بعض، مع بقاء العبرة والفائدة لكل حديث في زمنه الذي خرج فيه، وحاله التي تكلم به النبي ﷺ فيها.

إذن: فهل يقول المسلم – حينما يقرأ هذه القاعدة –: فلم العمل إذن؟ ما دام أن الشر يزيد، والخير ينقص، وقد قُدِّر هذا! فلم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الخير؟!

---

(١) البخاري ح(٦٦٥٧).





لن يجيب عن هذا التساؤل الخطير غير من يوحَى إليه من رب العالمين، فتأمل أخي ما رواه لنا علي رضي الله عنه حين قال: كنا مع النبي ﷺ في بقيع الغرقد في جنازة، فقال: «ما منكم من أحد إلا وقد كُتب مقعدُه من الجنة، ومقعدُه من النار» فقالوا: يا رسول الله! أفلا نتَّكل؟[1] فقال: «اعملوا؛ فكلٌ ميسَّر» ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦﴾ [الليل: ٥-٦] إلى قوله: (لِلْعُسْرَى)[الليل: ١٠][2].

وهذا الشر الذي أشار إليه النبي ﷺ ليس شراً مطلقاً عاماً، بل قد يكون شراً في بعض المواضع، ويكون خيراً في مواضع أخرى، ويكون في بقعة دون بقعة.

يقول ابن حجر – رحمه الله –: «وقد استُشكل هذا الإطلاق! مع أن بعض الأزمنة تكون في الشر دون التي قبلها، ولو لم يكن في ذلك إلا زمن عمر بن عبدالعزيز – وهو بعد زمن الحجاج بيسير – وقد اشتهر الخبرُ الذي كان في زمن عمر بن عبدالعزيز، بل لو قيل: إن الشر اضمحل في زمانه لما كان بعيداً فضلاً عن أن يكون شراً من الزمن الذي قبله»[3].

لكن هذا الإشكال حلّه العلماء بما يلي:

- حمله الحسن البصري على الأكثر الأغلب، ولما سُئل عن وجود عمر بن عبدالعزيز بعد الحجاج؟ فقال: لا بد للناس من تنفيس.

---

(١) أي نعتمد على ما قُدِّر علينا ونترك العمل.

(٢) البخاري ح(٤٩٤٥)، مسلم ح(٢٦٤٧).

(٣) فتح الباري: (١٣/ ٢١).





- وأجاب بعضهم: أن المراد بالتفضيل تفضيل مجموع العصر على مجموع العصر، فإن عصر الحجاج كان فيه كثير من الصحابة في الأحياء وفي عصر عمر بن عبدالعزيز انقرضوا، والزمان الذي فيه الصحابة خير من الزمان الذي بعده؛ لقوله ﷺ: (خير القرون قرني...).
- وقال عبدالله بن مسعود: (لا يأتي عليكم يوم إلا وهو شر من اليوم الذي كان قبله حتى تقوم الساعة، لست أعني رخاء من العيش يصيبه، ولا مالاً يُفيده، ولكن لا يأتي عليكم يوم إلا وهو أقل علماً من اليوم الذي مضى قبله، فإذا ذهب العلماء استوى الناس؛ فلا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، فعند ذلك يهلكون. قال ابن حجر: وهو أولى بالاتباع.[(١)]

ومما يؤخذ من هذه القاعدة العظيمة - «لا يأتي عليكم زمان إلا الذي بعده شر منه»:

١- أن فيها: الحث على اقتباس العلوم الدينية قبل هجوم تلك الأيام الرديئة[(٢)]، «فينبغي للإنسان أن يبادر لصالح الأعمال، وإن لحقته المتاعبُ والمشاقُ والأتعابُ، ولا يترقب الخلوّ عن ذلك، فما يأتي بعدُ أشد في ذلك مما في الزمان الذي كان فيه؛ لأن الزمان لا يزال في البعد عن مكشاة النبوّة، والقرب من البدع والفتن، فلا يمضي زمنٌ فيه نقص لشيء من السنن، أو

---

(١) هذه الثلاثة من ابن حجر، وتبعه على ذلك الشراح.

(٢) مصابيح التنوير على صحيح الجامع الصغير: (١/ ٣٢١).





ابتلاء بشيء من المحن «إلا والذي بعده أشد منه» ويستمر تواردُ الأهوال، وتعاقب الأحوال عليكم «حتى تلقوا ربكم» فلا راحة للمؤمن دون لقاء ربه»[(١)].

٢- إن هذه القاعدة النبوية العظيمة، تقودنا لأمر من أعظم الأمور؛ إنه: **تعظيم قدر السلف من الصحابة والتابعين؛ لأنهم كانوا في تلك القرون المفضلة.**

قال شيخُ الإسلام ابنُ تيمية:

(ومن المعلوم بالضرورة لمن تدبر الكتابَ والسنةَ، وما اتفق عليه أهلُ السنةِ والجماعةِ من جميعِ الطوائف؛ أنّ خيرَ قرونِ هذه الأمة في الأعمالِ والأقوالِ والاعتقادِ وغيرِها من كل فضيلةٍ أنّ خيرها القرنُ الأولُ، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، كما ثَبَتَ ذلكَ عن النبي ﷺ من غيرِ وجهٍ، وأنهم أفضلُ من الخَلَفِ في كل فضيلةٍ - من علمٍ وعملٍ وإيمانٍ وعقلٍ ودينٍ وبيانٍ وعبادةٍ - وأنهم أولى بالبيانِ لكل مُشْكلٍ، هذا لا يدفعُه إلاّ من كابرَ المعلوم بالضرورة من دين الإسلام، وأضله الله على علمٍ، كما قال عبدُالله بن مسعود - رضي الله عنه -: «مَنْ كانَ منكم مستناً فليستن بمن قد مات؛ فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئكَ أصحابُ محمد، أبرّ هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، قومٌ اختارهم اللهُ لصحبة نبيه، وإقامة دينه؛ فاعرفوا لهم حقهم، وتمسكوا بهديهم؛ فإنهم كانوا على الهدى المستقيم».

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين: (١/ ٣٦٧)بتصرف يسير.





وقال غيره: عليكم بآثارِ مَنْ سَلَفَ؛ فإنهم جاءوا بما يكفي وما يشفي، ولم يحدث بعدهم خيرٌ كامِنٌ لم يعلموه، هذا وقد قال ﷺ: «لا يأتي زمانٌ إلا والذي بعده شرٌ منه، حتى تلقوا ربكم» فكيف يحدث لنا زمانٌ في الخير في أعظم المعلومات – وهو معرفة الله تعالى –؟! هذا لا يكون أبداً!

وما أحسن ما قال الشافعي رحمه الله في رسالته: «هم فوقنا في كل علمٍ وعقلٍ ودينٍ وفضل، وكل سببٍ ينال به علم، أو يدرك به هدى، ورأيهم لنا خيرٌ من رأينا لأنفسنا»[(١)].

وقال ابن رجب: «وقد ابتلينا بجهلة من الناس! يعتقدون في بعض من توسع في القول من المتأخرين أنه أعلم ممن تقدم! فمنهم من يظن في شخص أنه أعلم من كل من تقدم من الصحابة ومن بعدهم لكثرة بيانه ومقاله! ومنهم من يقول: هو أعلم من الفقهاء المشهورين المتبوعين!... وهذا تنقص عظيم بالسلف الصالح وإساءة ظن بهم، ونسبته لهم إلى الجهل وقصور العلم، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[(٢)].

٣- **من دلالات هذه القاعدة:** أن المؤمن إذا عاش في آخر الأزمان، أو في بيئة غلب فيها الشر، أو علت فيها راية المنكر؛ فعليه أن يعقد العزم على أن يكون من المصلحين، والداعين إلى الهدى، المخففين لوطأة الشر وأهله، الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر حسب

---

(١) مجموع الفتاوى: (٤/ ١٥٨).

(٢) بيان فضل علم السلف ص(٥).





الوسع والطاقة، فإنه لا يوجد زمان يخلو من قائمٍ لله بالحجة على العباد، ولا يخلو زمان إلا ويوجد فيه دعاة للخير، وهداة للحق، يبصّرون الناس من العمى، ويهدون من ضلّ إلى الحق، فكن – ياعبدالله – وكوني – يا أمَةَ الله – من هؤلاء؛ فإنهم خيار الخلق، وأحبّهم إلى الله.

٤- لقد سمع الصحابة بهذا الحديث، بل إن سبب إيراده من أنس – رضي الله عنه – وهو ما لقيه التابعون من اضطهاد الحجاج وغيره من حكام السوء – يوضّح أنهم فقهوا معناه جيداً، وهو فهمهم لهذه السنة الإلهية التي نقلتهم إلى التعامل الأمثل معها، وهو يتلخص في أمرين:

الأول: الصبر على ما يمرّ بهم حتى يستريح بَرٌّ، ويستراح من فاجر.

الثاني: العمل لهذا الدين، ونشر تعاليمه، وعدم انتظارهم لمجدد أو مُصلح يخرج ليصلح الأحوال! كلا .. بل كانوا غايةً في الفقه والفهم للسنن.

لقدّ مرّ بالأمة زمانٌ – لا أعاده الله – تصدّر فيه متكلمون لا يفقهون السنن، ولا يعون معانيها، وكانوا يحدّثون عامة الناس بأمثال هذه الأحاديث لا ليفقهوها، بل لينفثوا سُمَّ الجبر والخنوع، والرضى بالدعة والكسل باسم القضاء والقدر! والتكسيل عن العمل بحجة الزهد والتوكل، والتجرئة على المعاصي والإغراء بمكفرات الذنوب، وشفاعة الصالحين في الآخرة، والتأييس من قوة الأمة وترقّيها، بما يزعمون من أن سعادة الأمة وعزتها لا يكونان إلا





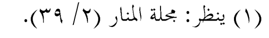
على يد المهدي المنتظر!! وأن هذا الشقاء الذي وقعت فيه لا مفر منه؛ لأنه علامة على قرب الساعة وانتهاء الزمان، ونحو ذلك من التعاليم الغامضة والفاسدة المنتشرة.[1]

اللهم ارزقنا الفقه في الدين والبصيرة فيه، واجعلنا من دعاة الحق، وهداة الخلق.

خلاصة القاعدة:

- ما تستطيعه اليوم قد لا تستطيعه غدا..فبادر بالعمل.
- طريقة السلف أسلم وأحكم.
- كن ممن يُصلح الله بهم الزمن.





(١) ينظر: مجلة المنار (٢/ ٣٩).







القاعدة التاسعة والثلاثون:

واعلم أن النصر مع الصبر[1]

قيل للشعبي في نائبة: كيف أصبحت؟ قال: بين نعمتين: خير منشور، وشر مستور. (الماوردي).

هذه القاعدة قطعة من ذلك الحديث العظيم – حديث ابن عباس – رضي الله عنه: «احفظ الله يحفظك...» الحديث وفيه: «واعلم **أن النصر مع الصبر** وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا».

لقد احتوى هذا الحديث على جملةٍ من الوصايا العالية جعلت العلامة الألوسي – رحمه الله – يقول: «ينبغي لكل مؤمن أن يجعل هذا الحديث مرآة قلبه وشعاره ودثاره وحديثه فيعمل به من جهة حركاته وسكناته حتى يسلم في الدنيا والآخرة ويجد العزة برحمة الله عز وجل»[2].

هكذا يرسخ عليه الصلاة والسلام في قلوب أتباعه هذه القاعدة

---

(١) الترمذي ح(٢٧٠٦)، أحمد ح(٢٨٠٣) واللفظ له، جامع العلوم والحكم(١/ ٤٦٠): «وقد روي هذا الحديث عن ابن عباس من طرق كثيرة...وذكر العقيلي أن أسانيد الحديث كلها لينة، وبعضها أصلح من بعض، وبكل حال، فطريق حنش التي خرجها الترمذي حسنة جيدة»، المقاصد الحسنة(ص٢٥٧): «وهو حسن، وله شاهد»، وصححه محققو المسند.

(٢) روح المعاني: (٤ / ١٠٨).





الجليلة، التي تكتسح جحافل اليأس، وتخوض بك غمار الحياة بروح وثابة وعزم متجدد، إنها قاعدة تكسو الحياة فألاً وقوة، وترسم بسمة التفاؤل على شفاه البائسين.

إن الإنسان في الدنيا معرَّض للمصائب والتحولات التي تأتي على خلاف المراد؛ كما قال الله عز وجل: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٥، ١٥٧] فالصبر هو أول باب يؤمر العبدالمصاب بطرقه، ثم بعد ذلك يبحث عن الأسباب المشروعة التي تخفف المصاب.

قال عمر – رضي الله عنه – لأشياخ من بني عبس: بم قاتلتم الناس؟ قالوا: بالصبر، لم نلق قوماً إلا صبرنا لهم كما صبروا لنا.

وقال بعض السلف: كلنا يكره الموت وألم الجراح، ولكن نتفاضل بالصبر.

وهذا في جهاد العدو الظاهر – وهو جهاد الكفار – وكذلك جهاد العدو الباطن – هو جهاد النفس والهوى – فإن جهادهما من أعظم الجهاد، كما قال النبي ﷺ: «المجاهد من جاهد نفسه في الله»[(١)].

وقال عبدالله بن عمر لمن سأله عن الجهاد: ابدأ بنفسك فجاهدها، وابدأ بنفسك فاغزُها.

---

(١) الترمذي ح(١٦٢١) وقال: حديث حسن صحيح.





وقال إبراهيم بن أبي علقمة لقوم جاءوا من الغزو: قد جئتم من الجهاد الأصغر، فما فعلتم في الجهاد الأكبر؟ قالوا: وما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد القلب.

فهذا الجهاد يحتاج أيضاً إلى صبر، فمن صبر على مجاهدة نفسه وهواه وشيطانه؛ غلبه، وحصل له النصر والظفر، وملك نفسَه؛ فصار عزيزاً ملكاً، ومن جزع ولم يصبر على مجاهدة ذلك؛ غُلب وقُهر وأُسر، وصار عبداً ذليلاً أسيراً في يدي شيطانه وهواه، كما قيل:

إذا المرء لم يغلب هواه أقامه   بمنزلة فيها العزيز ذليل

قال ابن المبارك: من صبر فما أقل ما يصبر! ومن جزع فما أقل ما يتمتع!

فقوله ﷺ: «**أن النصر مع الصبر**» يشمل النصر في الجهادين: جهاد العدو الظاهر، وجهاد العدو الباطن، فمن صبر فيهما، نُصر وظَفِر بعدوه، ومن لم يصبر فيهما وجزع؛ قُهر وصار أسيراً لعدوه أو قتيلاً له.[1]

والصبر إذا أطلق فإنه يشمل: الصبر على طاعة الله، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة؛ لأن العدو يصيب الإنسانَ من كل جهة، فقد يشعر الإنسان أنه لن يطيق عدوه؛ فيتحسر ويدع الجهاد، وقد يشرع في الجهاد ولكن إذا أصابه الأذى استحسر وتوقف، وقد يستمر ولكنه يصيبه الألم من عدوه، فهذا أيضاً يجب أن يصبر، قال الله تعالى: ﴿ **إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ**

(١) جامع العلوم والحكم: (١/ ٤٨٨-٤٨٩)بتصرف يسير.





﴿مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [النساء: ١٠٤] فإذا صبر الإنسان وصابر ورابط؛ فإن الله سبحانه ينصره.[(١)]

ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي مالك الأشعري، أن رسول الله ﷺ قال: «الصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء»[(٢)].

ونسبة الضياء إلى الصبر كنسبة الضياء إلى الشمس، فلما كان في الشمس حرارة حسية معلومة، نُسب الضياء إلى الصبر، لما فيه من حرارة معنوية، تنتج عن حبس النفس عن المعصية، أو التضجر من أقدار الله المؤلمة، أو حمل النفس على الطاعة وإن كان فيها مشقة، لكن عاقبها حلوة في الدنيا قبل الآخرة.

ومن تأمل عموم الأوامر والنواهي في الشريعة؛ وجد أنه لا يحركها شيء كالصبر، وما يرجوه الصادبر بعد ذلك من حسن العاقبة في الدنيا والآخرة: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وإلا فما الذي يحمل المجاهد على فراق بلده، وتَعرُّضِه لبارقة السيوف، وقصف الطائرات؟

وما الذي يجعل الجيوش الجرارة تسير من بلد إلى بلد، وترابط في الثغور الأيام والشهور؟!

---

(١) ينظر: شرح الأربعين النووية للعثيمين: (ص: ٢٠٣).

(٢) مسلم ح(٢٢٣).





وما الذي يجعل المؤمن في الليلة الشاتية يتوضأ بالماء البارد؟

وما الذي يجعله يتلقى مصائب النقص في المال والولد؟

وما الذي يدفعه لترك شهوة محرّمة قدر عليها، وتمكّن منها؟

إنه الصبر! وصدق عليّ – رضي الله عنه – حين قال: «فالصبر من الإيمان كالرأس من الجسد»[1]، فما ظنك برأس يفصل عن جسده!

يقول ميمون بن مهران: ما نال أحدٌ شيئاً من جميع الخير – نبي فمن فوقه – إلا بالصبر[2].

عسى الكرب الذي أمسيت فيه يكـــون وراءه فـــرجٌ قريـــب
فيــأمن خــائفٌ ويُفــك عــان ويــأتي أهلــه النــائي الغريــب

وتأمل قصة هذا الرجل: الذي كان صاحب مال وثروة وصحة وعافية وولد، ثم كيف سلبها الله منه في لحظة واحدة؛ فلعلها تُعزّي أصحابَ النكبات والأحزان، كما عزّتْ عبدالملك بن مروان:

«قال سليمان بن أبي شيخ: حدثني نابل بن نجيح قال: كان باليمامة رجلان ابنا عم، فكثر مالهما، فوقع بينهما ما يقع بين الناس، فرحل أحدُهما عن صاحبه، قال: فإني ليلةً قد ضجرت برغاء الإبل والغنم والكثرة، إذ أخذتُ بيد صبيٍ لي وعلوت في الجبل، فأنا كذلك إذ أقبل السيلُ فجعل مالي يمر بين يدي ولا أملك منه شيئاً! حتى رأيت ناقة لي قد علق خطامُها

(١) الزهد لوكيع (ص: ٤٥١).

(٢) ذم الهوى (ص: ٦٠).





بشجرة، فقلت: لو نزلتُ إلى هذه فأخذتها لعلي أنجو عليها أنا وبني هذا، فنزلت فأخذت الخطامَ، فجذبها السيل ورجع عليّ غصنُ الشجرة فذهب ماءُ إحدى عيني، وأفلت الخطام من يدي فذهبت الناقة! ورجعتُ إلى الصبي فوجدته قد أكله الذئب!

فأصبحت لا أملك شيئاً!! فقلت: لو ذهبتُ إلى بن عمي لعله يعطيني شيئاً، فمضيت إليه فقال لي: قد بلغني ما أصابك، والله ما أحببت أنه قد أخطأك!! فكان ذلك أشد مما أصابني.

فقلت: أمضي إلى الشام فأطلب!! فلما دخلت إلى دمشق؛ إذا الناس يتحدثون أن عبدالملك بن مروان أصيب بابن له؛ فاشتد حزنُه عليه، فأتيت الحاجبَ فقلت: إني أُحدّث أميرَ المؤمنين بحديث يعزيه عن مصيبته هذه، فأذكرْ ذلك له، وذكرَه؛ فقال: أدخله، فأدخلني، فحدثته بمصيبتي؛ فقال: قد عزيتني بمصيبتك عن مصيبتي! وأمر لي بمال، فعدت وتراجعتْ حالي.[1]

اللهم اجعل الصبر لنا شعاراً ودثاراً، واجعلنا من الصابرين عند البلاء، الشاكرين عند النعماء، اللهم إنا نعوذ بك من تحول عافيتك، وزوال نعمتك، وفجأة نقمتك، وجميع سخطك، اللهم ولا تجعل مصيبتنا في ديننا.

(١) الاعتبار وأعقاب السرور والأحزان، لابن أبي الدنيا: (٥٣).





خلاصة القاعدة:

- ستجد في الصبر بعض الشدة لكن عاقبته حميدة.
- الصبر دليل على كمال العقل ورجاحته.
- علم صغيرك الصبر قبل أن تدهمه نكبات الزمان فيحتار.







القاعدة النبوية الأربعون: القرآن حجة لك أو عليك[1]

إن هذا القرآن كائنٌ لكم أجراً، وكائنٌ عليكم وزراً، فاتبعوا القرآن، ولا يتبعكم القرآن.
(أبو موسى الأشعري).

وردت هذه القاعدة النبوية الجليلة ضمن حديث عدّه بعض العلماء من أصول الدين، وبهذا يتبين عظيم قدر هذه القاعدة النبوية، وذلكم الحديث هو قوله ﷺ: «الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماوات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن **حجة لك أو عليك**، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»[2].

قال النووي رحمه الله: «هذا حديث عظيم، أصلٌ من أصول الإسلام، قد اشتمل على مهماتٍ من قواعد الإسلام»[3].

---

(١) الترمذي ح(٢٧٠٦)، أحمد ح(٢٨٠٣) واللفظ له، جامع العلوم والحكم(١/ ٤٦٠): «وقد روي هذا الحديث عن ابن عباس من طرق كثيرة...وذكر العقيلي أن أسانيد الحديث كلها لينة، وبعضها أصلح من بعض، وبكل حال، فطريق حنش التي خرجها الترمذي حسنة جيدة»، المقاصد الحسنة(ص٢٥٧): «وهو حسن، وله شاهد»، وصححه محققو المسند.

(٢) مسلم ح(٥٥٦).

(٣) شرح النووي على مسلم: (٣/ ١٠٠).





وقال المناوي عليه رحمة الله: «وهذا الحديث أصلٌ من أصول الإسلام؛ لاشتماله على مهمات قواعد الدين؛ **فكن له من المتدبرين**»[(١)].

إن المقصود بالحجة في هذه القاعدة: «والقرآن **حجة** لك أو عليك»: البرهانُ الشاهد بصحة الدعوى.

قال القرطبي – رحمه الله –: «ألا وإن الحجة على مَن علِمَه فأغفله أوكدُ منها على من قصر عنه وجهله، ومن أوتي علم القرآن فلم ينتفع، وزجرته نواهيه فلم يرتدع، وارتكب من المآثم قبيحاً، ومن الجرائم فضوحاً؛ كان القرآن **حجة عليه، وخصماً لديه**، قال رسول الله ﷺ: «**القرآن حجة لك أو عليك**»، فالواجب على من خصّه الله بحفظ كتابه أن يتلوه حق تلاوته، ويتدبر حقائق عبارته، ويتفهم عجائبه، ويتبين غرائبه، قال الله تعالى: ﴿ **كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ** ﴾ [ص: ٢٩]، وقال الله تعالى: ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤** ﴾ [محمد: ٢٤]»[(٢)].

ولنضرب مثلاً عملياً يوضح لنا ما سبق من كلام الأئمة في توضيح هذه القاعدة النبوية:

استَمَعَ شخصان لقول الله تعالى: ﴿ **وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ** ﴾ [البقرة: ٤٣] فأقام أحدهما الصلاة ولم يقمها الآخر، فالقرآن حجة للأول، وحجة على الثاني، وقل مثل في الزكاة.

---

(١) فيض القدير: (١/ ٤٨٥).

(٢) تفسير القرطبي: (١/ ٢) .





مثال آخر: استمعت امرأة لقوله تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٥٩** ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، ولقوله تعالى: ﴿ **وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ** ﴾ [النور: ٣١]. فمن تحجّبت الحجاب الشرعي فالقرآن في هذه الآيات حجةٌ لها، ومن خالفت صار حجةً عليها.

لقد أسرتني عبارة الإمام الآجُرّي وهو يوضّح – بالتفصيل – كيف يصل الإنسان إلى هذه الغاية – أعني أن يكون القرآن حجة للعبد لا عليه – فنقلتها باختصار على طولها، حيث يقول:

«يتصفح القرآن؛ ليؤدب به نفسه، لا يرضى من نفسه أن يؤدي ما فرض الله بجهل، قد جعل العلمَ والفقهَ دليلَه إلى كل خير، إذا درس القرآنَ فبحضور فَهم وعَقل، همَّته إيقاعُ الفهم لما ألزمه الله: مِن اتباع ما أمر، والانتهاء عما نهى، ليس همّته متى أختم السورة! همّته: متى أستغني بالله عن غيره؟ متى أكون من المتقين؟ متى أكون من المحسنين؟ متى أكون من المتوكلين؟ متى أكون من الخاشعين؟ متى أكون من الصابرين؟ متى أكون من الصادقين؟ متى أكون من الخائفين؟ متى أكون من الراجين؟ متى أزهد في الدنيا؟ متى أرغب في الآخرة؟ متى أتوب من الذنوب؟ متى أعرف النعم المتواترة؟ متى أشكره عليها؟ متى أعقل عن الله الخطاب؟

متى أفقه ما أتلو؟ متى أغلب نفسي على ما تهوى؟ متى أجاهد في الله حق الجهاد؟ متى أحفظ لساني؟ متى أغض طرفي؟ متى أحفظ فرجي؟ متى





أستحي من الله حق الحياء؟ متى أشتغل بعيبي؟ متى أصلح ما فسد من أمري؟ متى أحاسب نفسي؟ متى أتزود ليوم معادي؟ متى أكون عن الله راضياً؟ متى أكون بالله واثقاً؟ متى أكون بزجر القرآن متعظاً؟ متى أكون بذكره عن ذكر غيره مشتغلاً؟ متى أُحب ما أَحب؟ متى أُبغض ما أَبغض؟ متى أنصح لله؟ متى أخلص له عملي؟ متى أقصر أملي؟ متى أتأهب ليوم موتي وقد غُيّب عني أجلي؟ متى أعمر قبري؟ متى أفكر في الموقف وشدته؟ متى أفكر في خلوتي مع ربي؟ متى أفكر في المنقلَب؟ متى أحذر مما حذرني منه ربي من نارٍ حرها شديد، وقعرها بعيد، وعمقها طويل، لا يموت أهلها فيستريحوا، ولا تقال عثرتهم، ولا ترحم عَبرتهم؟...

فالمؤمن العاقل إذا تلا القرآن استعرض القرآن؛ فكان كالمرآة، يرى بها ما حَسُن من فعله، وما قبح منه، فما حذرّه مولاه حذِره، وما خوّفه به من عقابه خافه، وما رغّبه فيه مولاه رغب فيه ورجاه، فمن كانت هذه صفته، أو ما قارب هذه الصفة، فقد تلاه حق تلاوته، ورعاه حق رعايته، وكان له القرآن شاهداً وشفيعاً وأنيساً وحرزاً، ومن كان هذا وصفه؛ نفع نفسَه ونفع أهلَه، وعاد على والديه وعلى ولده كل خير في الدنيا وفي الآخرة»[1] ا.هـ.

ثم انتقل الإمام الآجري في عبارة أخرى مؤثرة، وهو يحكي حال من صار القرآن حجةً عليهم – والعياذ بالله – فيقول:

«**فأما مَن قرأ القرآن للدنيا ولأبناء الدنيا؛ فإن من أخلاقه**: أن يكون

---

(١) أخلاق أهل القرآن (ص ٧٩ – ٨٠) باختصار.





حافظاً لحروف القرآن مضيعاً لحدوده، متعظماً في نفسه، متكبراً على غيره، قد اتخذ القرآن بضاعة، يتآكل به الأغنياء، ويستقضي به الحوائج، يعظّم أبناء الدنيا ويحقر الفقراء، إن علّم الغنيَّ رفق به طمعاً في دنياه، وإن علّم الفقيرَ زجره وعنّفه؛ لأنه لا دنيا له يطمع فيها، يستخدم به الفقراء، ويتيه به على الأغنياء، إن كان حسن الصوت أحب أن يقرأ للملوك! ويصلي بهم؛ طمعاً في دنياهم، وإن سأله الفقراء الصلاة بهم ثقل ذلك عليه؛ لقلة الدنيا في أيديهم، **إنما طلَبُه الدنيا؛ حيث كانت رَبَض عندها!**

يفخر على الناس بالقرآن، ويحتج على من دونه في الحفظ بفضل ما معه من القراءات، وزيادة المعرفة بالغريب من القراءات، التي لو عَقَل لعلِم أنه يجب عليه أن لا يقرأ بها! فتراه تائهاً متكبراً، كثير الكلام بغير تمييز، يعيب كلَّ مَن لم يحفظ كحفظه، ومن علم أنه يحفظ كحفظه طلب عيبَه! متكبراً في جلسته، متعاظماً في تعليمه لغيره، ليس للخشوع في قلبه موضع، لا يخشع عند استماع القرآن ولا يبكي ولا يحزن، ولا يأخذ نفسه بالفكر فيما يُتلى عليه وقد نُدب إلى ذلك! راغب في الدنيا وما قرب منها، لها يغضب ويرضى!!

لا يبالي من أين اكتسب – من حرام أو من حلال – قد عظُمت الدنيا في قلبه، إن فاته منها شيء لا يحل له أخْذُه حزنَ على فَوته، لا يتأدب بأدب القرآن، ولا يزجر نفسَه عن الوعد والوعيد، لاهٍ غافل عما يتلو أو يُتلى عليه، همّته حفظُ الحروف، إن أخطأ في حرف ساءه ذلك؛ لئلا ينقص جاهه عند المخلوقين؛ فتنقص رتبتُه عندهم، فتراه محزوناً مغموماً بذلك، وما قد ضيعه فيما بينه وبين الله مما أَمَر به القرآن أو نهى عنه؛ غير مكترث به!





أخلاقه في كثير من أموره أخلاق الجهال الذين لا يعلمون، لا يأخذ نفسه بالعمل بما أوجب عليه القرآن، قليل النظر في العلم الذي هو واجب عليه فيما بينه وبين الله عز وجل، كثير النظر في العلم الذي يتزين به عند أهل الدنيا ليكرموه بذلك، قليل المعرفة بالحلال والحرام الذي ندبه الله إليه ثم رسوله؛ ليأخذ الحلال بعلم ويترك الحرام بعلم، تلاوته للقرآن تدل على كِبرٍ في نفسه، وتزينٍ عند السامعين منه، ليس له خشوع فيظهر على جوارحه.

إذا درّس القرآن أو دَرَسَه عليه غيرُه همته متى يقطع! ليس همته متى يفهم! لا يتفكر عند التلاوة بضروب أمثال القرآن، ولا يقف عند الوعد والوعيد، يأخذ نفسه برضا المخلوقين، ولا يبالي بسخط رب العالمين، يحب أن يُعرف بكثرة الدرس، ويُظهِر ختمَه للقرآن ليحظى عندهم، قد فتنه حسنُ ثناء من جَهِله، يفرح بمدح الباطل، وأعماله أعمال أهل الجهل، يتبع هواه فيما تحب نفسه، غير متصفح لما ذكره القرآن عنه، إن كان ممن يُقرِئ غضب على من قرأ على غيره، إن ذُكر عنده رجلٌ من أهل القرآن بالصلاح كره ذلك، وإن ذُكر عنده بمكروه سرّه ذلك، يسخر بمن دونه، ويهمز بمن فوقه، يتتبع عيوب أهل القرآن؛ ليضع منهم، ويرفع من نفسه، يتمنى أن يخطئ غيرُه ويكون هو المصيب... » إلخ كلامه رحمه الله.(1)

ومن جميل ما قاله ابن مسعود في هذا المعنى: «القرآن شافعٌ مشفَّع، وماحِلٌ مصدَّق(2)، فمن جعله أمامَه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلف ظهره

(1) أخلاق أهل القرآن: (ص ٨٧ -٨٨) باختصار.

(2) غريب الحديث لابن الجوزي (٢/ ٣٤٥): أي ساع، وَقيل: خصم مجادل.





قاده إلى النار، وعنه قال: يجيء القرآن يوم القيامة فيشفع لصاحِبِه، فيكون قائداً إلى الجنة، أو يشهد عليه، فيكون سائقاً إلى النار»[١].

وللحسن البصري كلمة قيّمة، يقول فيها: «العلم عِلْمان: **عِلم** على اللسان؛ فذاك حجة الله على ابن آدم، **وعِلم** في القلب؛ فذاك العلم النافع، والعلم الذي على اللسان هو حجة الله كما في الحديث: «القرآن **حجة لك أو عليك**»[٢].

اللهم اجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء أحزاننا، وذهاب همومنا وغمومنا، واجعلنا ممن يقيم حروفه وحدوده، واجعله قائدنا إلى جنات النعيم.

خلاصة القاعدة:

- ينبغي محاسبة النفس كل حين على تقصيرها في كلام الله تعالى.
- ينبغي أن يكون حال الإنسان مع القرآن حال الخائف الراجي.
- تدبر القرآن من أعظم ما يدعوك للعمل به.
- استعن بربك دوماً: اللهم اجعل القرآن حجةلي لا علي.





(١) جامع العلوم والحكم: (٢/ ٢٦).
(٢) جامع العلوم والحكم: (٢/ ٢٩٩).





القاعدة النبوية الحادية والأربعون:
كل الناس يغدو فبائع نفسه: فمعتقها أو موبقها

مر بعض الزهاد برجل قد اجتمع عليه الناس فقال: ما هذا؟ قالوا: مسكين سرق منه رجلٌ جبة، ومر به آخر فأعطاه جبة! فقال: صدق الله ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾! (الماوردي)

لقد وردت هذه القاعدة النبوية الجليلة في حديث: «الطهور شطر الإيمان...»[1] الذي قال عنه المناوي رحمه الله: «وهذا الحديث أصلٌ من أصول الإسلام؛ لاشتماله على مهمات قواعد الدين؛ فكن له من المتدبرين»[2].

إنها قاعدة نبوية تلتقط لأهل الأرض صورةً من السماء الدنيا؛ لتُجلّي لهم حقيقة هذه الحياة التي يعيشون فيها! إنهم جميعاً يمشون لا يقف منهم أحد، فمنهم من يتقدم، ومنهم من يتأخر، إنهم يمشون جميعاً؛ لكنهم كما قال الله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾ ، فهذا معنى قوله: «كلُّ الناس يغدو».

ثم قال عليه الصلاة والسلام: «فبائعٌ نفسَه فمعتقها أو موبقها»، هذه هي حقيقة المكان الذي يمشون فيه؛ إنه سُوْق هذه الدنيا الكبير، وهذا هو حقيقة الدنيا: سوقٌ يربح فيه الرابحون، ويخسر فيه الخاسرون.

---

(١) مسلم ح(٥٥٦).

(٢) فيض القدير: (١/ ٤٨٥).





وليتجلى لك – أيها القارئ الكريم – شيءٌ من معاني هذه القاعدة النبوية المباركة، فتخيل نفسك ذاهباً إلى سوق من الأسواق العامرة، هذا يبيع، وذاك يشتري، هذا يربح وذاك يخسر! إنها حركة معتادة، وأمرٌ مألوف، فالرابح اليوم قد يخسر غداً، والعكس صحيح، لكن الغبن حقاً حينما تكون السلعة التي تباع وتشترى هي أنتَ أيها الإنسان! «**فبائع نفسَه، فمعتقها أو موبقها**»! الله أكبر! ما أجمله من تعبير!

والسؤال: ما الذي يجعل هذه النفس تعتق أو توبق؟!

تأمل معي هذه الآيات العظيمة، التي تبيّن حقيقة العتق والإباق، وحقيقة الربح والخسارة: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٢** ﴾ [الصف: ١٠ – ١٢].

وتأمل هذه الصفقة العجيبة: ﴿ **۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١** ﴾ [التوبة: ١١١].

قال ابن القيم: «فأخبر سبحانه أنه: ﴿ **ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم** ﴾ وأعاضهم عليها الجنة، وأن هذا العقد والوعد قد أودعه أفضل كتبه المنزلة من السماء، وهي التوراة والإنجيل والقرآن، ثم أكد ذلك بإعلامهم أنه لا أحد أوفى بعهده منه تبارك وتعالى، ثم أكد ذلك بأن أمرهم



بأن يستبشروا ببيعهم الذي عاقدوه عليه، ثم أعلمهم أن ذلك هو الفوز العظيم.

فليتأمل العاقد مع ربه عقد هذا التبايع، ما أعظم خطره وأجله! فإن الله عز وجل هو المشتري، والثمن جنات النعيم والفوز برضاه، والتمتع برؤيته هناك، والذي جرى على يده هذا العقد أشرف رسله وأكرمهم عليه من الملائكة والبشر، وإن سلعةً هذا شأنها لقد هيئت لأمر عظيم، وخطب جسيم:

قد هيئوك لأمر لو فطنت له   فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

مهرُ المحبة والجنة بذل النفس والمال لمالكهما الذي اشتراهما من المؤمنين، فما للجبان المعرِض المفلِس وسَومَ هذه السلعة! بالله ما هزلت فيستامها المفلسون، ولا كسدت فيبيعها بالنسيئة المعسرون، لقد أقيمت للعرض في سوق من يريد، فلم يرض ربها لها بثمن دون بذل النفوس، فتأخر البطالون، وقام المحبون ينتظرون أيهم يصلح أن يكون نفسه الثمن، فدارت السلعة بينهم ووقعت في يد ﴿ **أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ** ﴾ [المائدة: ٥٤] [(١)] ا.هـ.

وفي معنى هذه القاعدة النبوية: «كل الناس يغدو... نقرأ قوله تعالى: ﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾** ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

(١) زاد المعاد: (٣ / ٦٥).



ولقد بلّغ النبي ﷺ هذا في أوائل بعثته، فحين أنزل الله عليه ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾** ﴾ قام خطيباً فقال: «يا بني عبد مناف **اشتروا أنفسكم من الله**، يا بني عبدالمطلب **اشتروا أنفسكم من الله**، يا أم الزبير بن العوام عمة رسول الله، يا فاطمة بنت محمد **اشتريا أنفسكما من الله**؛ لا أملك لكما من الله شيئاً...»[1].

يقول ابن رجبٍ – رحمه الله –: «وقد اشترى جماعةٌ من السلف أنفسَهم من الله عز وجل بأموالهم، فمنهم من تصدق بماله كله: كحبيب أبي محمد، ومنهم من تصدق بوزنه فضة ثلاث مرات أو أربعاً: كخالد الطحاوي، ومنهم من كان يجتهد في الأعمال الصالحة ويقول: إنما أنا أسير أسعى في فكاك رقبتي: منهم عمرو بن عتبة.

قال الحسن البصري – رحمه الله –: المؤمن في الدنيا كالأسير يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئاً حتى يلقى الله عز وجل، وقال: ابن آدم! إنك تغدو وتروح في طلب الأرباح، فليكن همُّك نفسَك؛ فإنك لن تربح مثلها أبداً.

وقال أبو بكر بن عياش: قال لي رجل مرة وأنا شاب: خلِّص رقبتك ما استطعت في الدنيا من رِق الآخرة؛ فإن أسير الآخرة غير مفكوك أبداً، قال: فوالله ما نسيتها بعد!

وكان بعض السلف يبكي ويقول: ليس لي نفسان، إنما لي نفس واحدة، إذا ذهبت لم أجد أخرى! وأما محمد ابن الحنفية فيقول: إن الله عز

(١) البخاري ح(٣٣٣٦) واللفظ له، مسلم ح(٢٠٦).





وجل جعل الجنة ثمناً لأنفسكم، فلا تبيعوها بغيرها»[1].

وبهذا كلّه يتبين أن الدنيا سوق، وأن الإنسان هو السلعة فيها، والمعاملة فيه إنما هي مع الله تعالى، وإلا فثمة الإباق والخسران المبين.

إن الغُدُوّ الذي ذكره النبي ﷺ في هذه القاعدة: «كل الناس يغدو» إنما هو إشارة إلى العمر والزمان الذي يحياه الواحد منا، فهو السوق التي يغدو فيها الإنسان ويروح، ولهذا فمن أعظم الغبن الذي يقع ويلاحظ في حياة أكثر الخلق؛ هو تضييعهم للزمان بغير طائل، وإهدارهم الساعات والأيام فيما لا يعود بالنفع الآجل والعاجل؛ ولعظيم هذا الزمن كان حديث القرآن والسنة عنهما عجباً من العجب، وحسبك أن تتدبر هذه الآية التي تشير إلى عظيم الغبن الذي وقع فيه أهل النار، وكيف رُبطَ هذا بمسألة الزمن، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾[فاطر: ٣٧].

وتأمل – أيضاً – كيف ركّز القرآن على قضية ضياع الزمن – الذي هو سوق النجاة في هذه الحياة – وهو يذكر حسرات أهل النار على تضييع أوقاتهم فيما عاد عليهم بالخيبة والخسران، قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأعراف: ٥٣]، وقال سبحانه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ

(١) جامع العلوم والحكم: (٢/ ٢٩-٣٠).





﴿ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٠٠ ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]، وقال سبحانه: ﴿ قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ١١٣ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١٤ ﴾ [المؤمنون: ١١٢ – ١١٤]، وقال جل وعلا: ﴿ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا ١٠٢ يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا ١٠٣ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا ١٠٤ ﴾ [طه: ١٠٢ – ١٠٤] والآيات في هذا المعنى كثيرة، وهي تؤكد على أن معقد الربح والخسارة في اغتنام هذا الوقت، فإن الناس كما أخبرت عنهم هذه القاعدة النبوية المحكمة: «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها».

أثـامن بـالنفس النفيسـة ربَّهـا ... ولـيس لهـا في الخلـق كلِّهـم ثمـن

بها تملك الأخرى فإن أنا بعتها ... بشيءٍ من الدنيا؛ فذاك هـو الغبن

لئن ذهبت نفسي بدنيا أصبتها ... لقد ذهبت نفسي وقد ذهب الثمن

اللهم اجعلنا ممن غدا فأعتق نفسه بطاعتك، وجنبنا موارد الخيبة والخسران، واجعلنا من السعاة إليك، الفائزين برضاك.

خلاصة القاعدة:

- الاستعداد للآخرة يكون بالسعي المشكور والعمل المبرور.
- قراءة سير السلف الصالح مما يشحذ همتك لفكاك رقبتك.
- اغد في طاعة ربك..يغدُ إليك خيره وتوفيقه.







القاعدة النبوية الثانية والأربعون:

إن الدِّين يُسرٌ

> إن الله تعالى إنما أوجب وظائفَ من الطاعات في وقت دون وقت تيسيراً ورحمة.
>
> (بدر الدين العينى)

وردت هذه القاعدة في البخاري تبويباً وتخريجاً: «إن الدِّين يُسرٌ»، وتتمة هذا الحديث: «**ولن يُشادَّ الدين أحد إلا غلبه**»[1].

هذا هو دين الله تعالى! يختصره النبي عليه الصلاة والسلام في هذه القاعدة الجليلة، التي تبين حقيقة الإسلام، وأنه دين يُسْرٍ وسهولة، في كل شؤونه وتعاليمه كما يأتي بيانه.

لقد رسّخ النبي ﷺ هذا الأصل الكبير وهو: «إن الدين يسر»، وجعله حُكماً عاماً لا يستثني شيئاً، فهو سهلٌ وميسّر في عقائده وأخلاقه وأعماله، بل وفيما يُطلب تركه.

لنتأمل - أخي القارئ - مثلاً في اليسر الذي صاحب فَرْضِيّةَ الصلوات الخمس؛ فبدءاً من تخفيفها من خمسين صلاة إلى خمس صلوات، ثم

---

(١) البخاري ح(٣٩).





في توزيع أوقاتها، وفي تخفيفها حال السفر، والترخيص في الجمع عند وجود المشقة، وفي كونها تسقط عن الحائض، وفي صلاة النوافل من أنواع التيسير والتسهيل ما هو ظاهر بيّن، فيجوز للمتنفل الصلاة جالساً وإن لم يكن له عذر، وكذلك في شأن استقبال القبلة عند تعذر ذلك، وغيرها من صور التيسير.

وأما الزكاة: فمن أوجه اليسر الظاهرة أنها لا تجب إلا على من ملك نصاباً، ولا تجب إلا في العام مرةً واحدة، ولا تجب في جميع الأموال، بل في أنواع منها معروفة، وجعل النصاب قليلاً جداً: اثنين ونصف بالمائة ٢,٥٪ فقط مع كثرة ما بسط الله لهم من المال والرزق ، مع ما جعل الله فيها من آثار نافعةٍ حسيةٍ ومعنوية، فبها تُدفع الآفات عنهم وعن أموالهم، وتَطهر نفوسهم من شحها، وبها مواساةُ لمحاويجهم، وقيامٌ لمصالحهم الكلية.

وأما الصيام: فمن تأمل أول مشروعيّة الصيام، ثم ما لحقه بعد ذلك من تخفيف أدرك شيئاً من معاني اليسر في هذه الفريضة العظيمة، ومن ذلك: أن المفروض منه شهرٌ واحدٌ كل عام، والصيام لا يجب إلا في النهار فقط، بل نهت السنة عن الوصال! وأباح الله الفطر لأهل الأعذار كالمسافرين والمرضى، ووسّع في وقت القضاء فجعل أمده ما بين الرمضانين، وبخصوص هذا الركن ختمت آيات الصيام بقوله تعالى: ﴿ **يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ** ﴾ [البقرة:١٨٥].

وأما الحج: فإن الله لم يفرضه إلا على المستطيع، وفي العمر مرة واحدة فقط، ونوّع على عباده الأنساك فوسّع عليهم في ذلك، وجعل فيه من المنافع الدينية والدنيوية ما لا يمكن حصره، كما قال تعالى: ﴿ **لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ** ﴾ [الحجّ:٢٨].





وفي أبواب المعاملات: يظهر اليسر جليّاً، حيث إن الأصل هو الحل حتى يأتي دليل المنع، قال تعالى: ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

وفي أبواب الأنكحة: لم يحرم الله على العبد من النساء إلا عدداً محدوداً لمصلحةٍ عظيمة، وأباح ما سوى ذلك، وأطلق هذا الدينُ في طريقة التعامل بين الأزواج، فلم يقيدها بشيء محدد، بل ضبطها بضابط ينطبق على كل أتباع هذا الدين، في أي زمان ومكان، فقال سبحانه: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [النساء: ١٩] ما لم يكن هذا العرف مخالفاً للشرع.

والنموذج المحتذى في فهم حقيقة اليسر والتشديد هو رسول الله ﷺ وسيرته العملية!

بل إنني أقول وبكل وضوح وثقة: إنك قد تجد في سير بعض الأئمة الأعلام ما لا تستطيع الاقتداء به؛ لأن هذا الإمام أو ذاك قد يكون اختار لنفسه طريقة معيّنة في التعبد أو التزهد أو الورع الدقيق ليربّي بها نفسه، ولا يراها تشريعاً للناس، أما رسول الله ﷺ فإنك لن تجد في سيرته وحياته شيئاً يشقُّ الاقتداء به، **وهذا من أسرار كماله**، ومن أسرار قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب : ٢١]، فمن أراد أن يقتدي به سهل عليه ذلك، ورآه غيرَ شاقٍ عليه، «بل يتمكن معه من أداء الحقوق كلها: حقّ الله، وحقّ النفس، وحقّ الأهل والأصحاب، وحقّ كلّ من له حقّ على الإنسان برفق وسهولة، وأما مَن شدّد على نفسه، فلم يكتف بما اكتفى به ﷺ، ولا بما علَّمه للأمة وأرشدهم إليه – بل غلا، وأوغل في العبادات – فإن الدِّين يغلبه، وآخِرُ أمرِه





العجزُ والانقطاع، ولهذا قال: «**ولن يُشَادّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه**» أي: «لا يتعمق أحدكم في الدين – فيترك الرفق – إلا غلب الدينُ عليه، وعجز ذلك المتعمق، وانقطع عن عمله كلِّه أو بعضه»[1].

ولهذا نهى النبي ﷺ من أراد أن يشدِّد على نفسه في العبادة من أصحابه، كما في قصة الرهط الثلاثة الذين جاءوا إلى بيوت أزواج النبي ﷺ، يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أُخبروا كأنهم تقالّوها! ثم قالوا: وأين نحن من النبي ﷺ! قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبداً! وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر! وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً! فجاء رسول الله ﷺ إليهم، فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني!»[2]؛ ولهذا أمر ﷺ بالقصد، وحثّ عليه فقال: «والقصدَ القصدَ تبلغوا» أي: الزموا القصد – وهو العدل – في طاعة الله تعالى، فإن فعلتم ذلك «تبلغوا» أي: تبلغون مقصودكم، كما أن المسافر الحاذق المقتصد في سفره يصل مقصوده بغير تعب.

قال العلامة السعدي – رحمه الله –: «ويؤخذ من هذا أصلٌ نافعٌ، دلّ عليه أيضاً قوله تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن:١٦]، وقوله ﷺ: «إذا أمرتكم بأمرٍ فائتوا منه ما استطعتم»، والمسائل المبنية على هذا الأصل لا

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري: (١/ ٢٣٧).

(٢) البخاري ح(٥٠٦٣)واللفظ له، مسلم ح(١٤٠١).





تنحصر، وفي حديث آخر: «يسِّرا ولا تُعَسرا، وبَشِّرا ولا تُنفرا[1]».

فعلمتَ بهذا: أنه يؤخذ من هذا الحديث العظيم عدة قواعد منها:

القاعدة الأولى: التيسير الشامل للشريعة على وجه العموم.

القاعدة الثانية: المشقة تجلب التيسير وقت حصولها.

القاعدة الثالثة: إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم.

فصلوات الله وسلامه على من أوتي جوامع الكلم ونوافعها»[2].

واعلم أنه «ما أمرَ اللهُ بأمرٍ إلا وللشيطان فيه نزعتان: إما إلى تفريطٍ وإضاعة، وإما إلى إفراطٍ وغلو، ودينُ الله وسطٌ بين الجافي عنه والغالي فيه، كالوادي بين جبلين، والهدى بين ضلالتين، والوسط بين طرفين ذميمين، فكما أن الجافي عن الأمر مضيِّع له؛ فالغالي فيه مضيع له، هذا بتقصيره عن الحد، وهذا بتجاوزه الحد»[3].

وقبل الختام لا بد من التعريج على مسألة مهمة جداً كثر الخوض فيها في هذا العصر، وأصبح يرددها كلٌّ من أراد التملص والتخفف من الأحكام الشرعية – من مفتين أو أتباع مفتين –؛ فصار يردد هذه القاعدة، ويوردها في غير محلها ويقول: **«إن الدين يسر»**؛ ليبرر المفتي فتواه، والمقلد تقاعسه عن الانقياد، أو الأخذ بما دلّ عليه الدليل؛ بحجة أنه يوجد من قال بهذا القول أو ذاك من العلماء! **وجواباً عن هذه الشبهة بإيجاز يقال:**

---

(١) البخاري ح(٢٨٧٣)، مسلم ح(١٧٣٣).

(٢) بهجة قلوب الأبرار: (ص ٧٧-٧٩)بتصرف.

(٣) مدارج السالكين: (٢/ ٤٦٤).





ينبغي أن يعلم أن كلّ ما شرعه الله يسيرٌ، فعلى من تصدر للفتيا أو طلب جواباً أن يستحضر هذا المعنى جيداً، فدور المفتي التماس الحكم بدليله، سواء وافق ما يهواه الناس أم لا، وليس من الدين في شيء تتبُّع رخص العلماء، ولا زلاتهم، وأن يعلم الباحث عن التيسير في غير موضعه أن هذا اتباع للهوى لا للهدى! وقد قال الله عز وجل: ﴿ **فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ** ﴾[القصص: ٥٠] فلا يوجد خيار ثالث: إما الشرع أو الهوى.[١]

اللهم ألهمنا الرشد في القول والعمل، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، والباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، وأعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

خلاصة القاعدة:

- لو اتبع الناس الدين الذي شرعه الله لزالت المشقة والعنت.
- التيسير الشرعي ضابطه النقل لا العقل.
- كلما كانت الفطرة سليمة لمست يسر الشريعة.



(١) وينظر للتفصيل في هذا كتاب ابن القيم البديع: (إعلام الموقعين عن رب العالمين) وبخاصة: فصل كلام الأئمة في الفتيا (١/ ٣٥).





القاعدة النبوية الثالثة والأربعون:

من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلْيقل خيراً أو ليصمت[1]

> لو كانت الصُّحُف من عندنا لأقللنا الكلام!
> (مَالك بن دِينَار).

هذه قاعدة محكمة من قواعد السلوك، تدعو إلى ضبطُ عضوٍ من أخطر أعضاء الإنسان.

وهي قاعدة نوّه جمع من الأئمة بمنزلتها العظيمة، فهذا الإمام الجليل أبو محمد عبدالله بن أبي زيد إمام المالكية بالمغرب في زمنه يقول: جِماع آداب الخير يتفرع من أربعة أحاديث: قول النبي ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»، وقوله ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه»، وقوله ﷺ للذي اختصر له الوصية: «لا تغضب» وقوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[2].

لقد مهّد النبي عليه الصلاة والسلام لهذه القاعدة بقوله: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر» حثّاً وترغيباً في ضبط هذه الجارحة التي لا يضبطها، ويكفُّ شرها مثل مراقبة الله، وتذكر يوم القدوم عليه في الآخرة، فمن استشعر هذا الأمر «فلْيقل خيراً أو ليصمت».

(١) البخاري ح(٥٦٧٢)، مسلم ح(٤٧).

(٢) شرح النووي على مسلم: (٢/ ١٩).





قال الإمام الشافعي – رحمه الله – مبيناً معنى هذه الجملة: «إذا أراد أن يتكلم فليفكِّر؛ فإن ظهر له أنه لا ضرر عليه تكلَّم، وإن ظهر له فيه ضرر أوشَكَّ فيه أمسك»[1].

ومن هنا أطبق السلف – رضي الله عنهم ورحمهم – على هذا المعنى، وإليك شيئاً من خبرهم:

يقول الفاروق رضي الله عنه: «من كثر كلامه كثر سقطه»[2].

ويقول عليٌّ رضي الله عنه: «اللّسان قوام البدن، فإذا استقام اللّسان استقامت الجوارح، وإذا اضطرب اللّسان لم تقم له جارحة»[3].

وقال عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه–: «إِن كَانَ السمُوم فِي شَيْء فَفِي اللِّسَان، وَوَاللَّه مَا على وَجه الأَرض شيء أَحق بطول سجن من اللِّسان»[4].

ومن جميل ما يؤثر عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قوله: «دع ما لست منه في شيء، ولا تنطق فيما لا يعنيك، واخزن لسانك كما تخزن وَرِقك»[5].

وهذا عبدالله بن طاوس– رحمه الله– يحكي عن أبيه فيقول: كان

---

(١) شرح النووي على مسلم (٢/ ١٩).

(٢) الحلم. لابن أبي الدنيا (ص: ٧٧).

(٣) الصمت لابن أبي الدنيا (ص: ٦٩).

(٤) أدب المجالسة وحمد اللسان (ص: ٨٣).

(٥) الورِق: الفضة، ويقصد هنا: كما تخزن مالك.







طاوس– رحمه الله– يتعذّر من طول السّكوت ويقول: «إنّي جرّبت لساني فوجدته لئيماً»، وقال طاوس– رحمه الله–: «لساني سَبُعٌ إن أرسلته أكلني».(١)

وهذا يعلى بن عبيد– رحمه الله– يقول: «دخلنا على محمّد بن سوقة فقال: «أحدّثكم بحديث لعلّه ينفعكم فإنّه قد نفعني! قال لنا عطاء بن أبي رباح: يا بني أخي، إنّ من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام، وكانوا يعدّون فضول الكلام ما عدا كتاب الله أن تقرأه، أو تأمر بمعروف، أو تنهى عن منكر، أو تنطق بحاجتك في معيشتك الّتي لا بدّ لك منها، أتنكرون: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ ﴾ [الانفطار: ١٠– ١١] ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨ ﴾ [ق: ١٧– ١٨]، أما يستحي أحدكم أن لو نشرت عليه صحيفته الّتي أملى صدر نهاره، كان أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه؟!»(٢).

ويقول يونس بن عبيد: «ما من النّاس أحد يكون لسانه منه على بال إلّا رأيت صلاح ذلك في سائر عمله»(٣).

«ما أحق مَن علِم أن عليه حَفَظَةً موكلين به، يُحصُون عليه سقطَ كلامه، وعثراتِ لسانه؛ أن يخزنه، ويَقِل كلامُه فيما لا يعنيه، وما أحراه بالسعي في أن لا يرتفع عنه ما يطول عليه ندَمُه: مِن قول الزور، والخوض

---

(١) الصمت لابن أبي الدنيا (ص: ٨٦).

(٢) الزهد لهناد بن السري (٢/ ٥٣٦).

(٣) صفة الصفوة (٢/ ١٨٢).





فى الباطل، وأن يجاهد نفسَه في ذلك، ويستعين بالله، ويستعيذ مِن شر لسانه»[1].

ومن الأحاديث الواردة في هذا المعنى، وهي بشارة لأهله قوله ﷺ –كما في البخاري–: «من يضمن لي ما بين لحييه» يعنى: لسانه، فلم يتكلم بما يكتبه عليه صاحب الشمال، «وما بين رجليه» يعنى: فرجه، فلم يستعمله فيما لا يحل له: «أضمن له الجنة»[2].

وهذا يدلُّ على أن **أعظم البلاء على العبد في الدنيا: اللسان، والفرج**، فمن وقي شرَّهما فقد وقي أعظمَ الشر.

«قال عمار الكلبي:

وقــل الخــير وإلا فاصــمتن　　　فإنــه مــن لــزم الصــمت سـلِم

وقال آخر:

لسان الفتى حتفُ الفتى حين يجهلُ　　　وكلُّ امرئ ما بين فكَّيـه مقتـل

فمن كانت هذه حاله هو المأمور بالصمت، لا قائل الخير وذاكر الله»[3].

ومن الأحاديث التي تؤكد معنى هذه القاعدة النبوية: «فليقل خيراً أو ليصمت» قوله ﷺ في الحديث الآخر المتفق عليه: «**إن الله كره لكم ثلاثاً:**

---

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال: (١٠/ ١٨٥-١٨٧).

(٢) البخاري ح(٦١٠٩).

(٣) التمهيد:(٢١/ ٣٦).





قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال»[1]، فالله يكره منا الحديث بما لا معنى له، ولا فائدة فيه، مِن أحاديث الناس التي أكثرها غِيبة ولَغَط وكذب، ومَن أكثر مِن القيل والقال مع العامة لم يَسلَم من الخوض في الباطل، ولا مِن الاغتياب، ولا من الكذب»[2].

وفي هذه القاعدة النبوية: «دليلٌ على حُسن الصمت ومدحِه، والمراد به عن فضول الكلام، وقد وردت عدة أحاديث دالة على مدح الصمت، ومدحه العقلاء والشعراء.

واعلم أن فضول الكلام لا تنحصر، بل المهم محصورٌ في كتاب الله تعالى حيث قال: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤]، وآفاته لا تنحصر فعُدَّ منها:

الخوض في الباطل: وهو الحكاية للمعاصي؛ من مخالطة النساء ومجالس الخمر ومواقف الفساد وتنعم الأغنياء وتجبّر الملوك ومواسمهم المذمومة، وأحوالهم المكروهة؛ فإن كل ذلك مما لا يحل الخوض فيه، فهذا حرام.

ومنها: الغيبة والنميمة، وكفى بها هلاكاً في الدين، ومنها: المراء، والمجادلة، والمزاح، ومنها: الخصومة والسب، والفحش وبذاءة اللسان، والاستهزاء بالناس والسخرية، والكذب، وقد عد الغزالي في الإحياء عشرين

(١) البخاري ح(١٤٠٧)، مسلم ح(٥٩٣).

(٢) ينظر: التمهيد: (٢١/ ٢٨٩) بتصرف.



آفة، وذكر في كل آفة كلاماً بسيطاً حسناً، وذكر علاج هذه الآفات»[1].

قال الغزالي: «ففي الخوض خطر، وفي الصمت سلامة؛ فلذلك عظمت فضيلته، هذا مع ما فيه – أي الصمت – من جمع الهم، ودوام الوقار، والفراغ للفكر والذكر والعبادة، والسلامة من تبعات القول في الدنيا ومن حسابه في الآخرة؛ فقد قال الله تعالى: ﴿ **مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ** ﴾ [ق: ١٨]»[2].

ولنتذكر جيداً أن اللسان سلاح ذو حدين، فتأمل قوله ﷺ في هذه القاعدة: «فليقل خيراً أو ليصمت» أي: عن شر، وكما أن أبواب الشر الصادرة عن اللسان كثيرة؛ فكذلك **أبواب الخير الصادرة من اللسان كثيرة** ميسرة – لمن وفقه الله –، **من ذلك:**

تلاوة كتاب الله تعالى، وهو أعظم ما استُخدمت فيه اللسان، وذكر الله تعالى، والنصيحة الحسنة، وتبليغ دين الله تعالى، والذب عن عرض مسلم، والشفاعة في حق، والجدال بالتي هي أحسن؛ لإحقاق حق أو إبطال باطل، والدعاء، وإدخال السرور على مسلم، وإزاحة همٍّ عن آخر...إلى أبواب أخرى يسرح فيها اللسان رابحاً بإذن الله غير خاسر.

---

(١) سبل السلام(٢/ ٦٥٤). التمهيد(١/ ٢٨٨): «وقيل لمالك رحمه الله: أيُعبِّر الرؤيا كلُّ أحد؟ فقال: أبالنبوة يُلعَب! وقال مالك: لا يُعبِّر الرؤيا إلا من يحسنها، فإن رأى خيراً أخبر به، **وإن رأى مكروهاً فليقل خيراً أو ليصمت**، قيل: فهل يُعبِّرها على الخير وهي عنده على المكروه؛ لقول من قال: إنها على ما أُوِّلت عليه؟ فقال: لا، ثم قال: الرؤيا جزء من النبوة؛ فلا يُتلاعب بالنبوة».

(٢) إحياء علوم الدين: (٣/ ١١١).



ختاماً: لقد ألف الإمام ابن أبي الدنيا كتاباً حافلاً في هذا الباب سمّاه: (الصمت) وهو جدير بالمطالعة، والإفادة منه؛ إلا ما يخص الأحاديث المرفوعة، فالغالب عليها الضعف! وإنما أعني هنا النظر في آثار الصحابة والتابعين – رضي الله عنهم – فسيرى المطالع ما يوضح له خوف السلف من ألسنتهم، وعظيم حرصهم على تطبيق هذه القاعدة النبوية: «فليقل خيراً أو ليصمت».

اللهم وفقنا لحفظ ألسنتنا وجميع جوارحنا عن محارمك، واستعملنا ربنا في طاعتك، وحبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكرِّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين.

خلاصة القاعدة:

- إذا وُقيت شر لسانك فقد وُقيت شراً كثيراً.
- ما كل صمت محمود، ولا كل كلام مذموم؛ فدر مع الشرع حيث دار.
- الحرب أولها كلام..فلا تكثر الجدل العقيم.







القاعدة النبوية الرابعة والأربعون:

من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُكرم جارَه [1]

> إذا حمِد الرجلَ جارُه وذو قرابته ورفيقُه؛ فلا تشكُّوا في صلاحه. (عمر بن الخطاب)

إن هذه القاعدة لبنة من لبنات ذلكم القصر الكبير: قصر مكارم الأخلاق الذي بناه ديننا العظيم.

وتأمل كيف صدّر هذه القاعدة العظيمة بهذا الشرط العظيم فقال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر» أي: إيماناً كاملاً تاماً، نقياً صافياً؛ فإن إيمانه بالله تعالى، الذي يأمره بالإحسان للخلق، وإيمانه باليوم الآخر وما فيه من أهوال؛ يدعوه لحفظ حق الجار.

وقوله: «فليكرم جاره» ولم يحدد نبينا ﷺ صورةً معينة من صور الكرم؛ فيدخل في ذلك كل ما يمكن أن يُكرم به: من البِشْر، وطلاقة الوجه، وبذل الندى، وكف الأذى، وتحمّل ما فرط منه، ونحو ذلك، ولم يقل مثلاً: (فليكرمه بإعطاء الدراهم، أو الصدقة، أو اللباس)، أو ما أشبه هذا، وكل شيء يأتي مطلقاً في الشريعة فإنه يرجع فيه إلى العُرف، كما قال الناظم:

---

(١) البخاري ح(٦٠١٩)، مسلم ح(٤٧).





وكـــلُّ مـــا أتـــى ولم يحـــدد　　بالشـــرع كـــالحِرز فبـــالعُرف

فالإكرام إذاً ليس مُعيَّناً، بل ما عدّه الناسُ إكراماً، ويختلف من جار إلى آخر، فجارك الفقير ربما يكون إكرامه برغيف خبز، وجارك الغني لا يكفي هذا في إكرامه، وجارك الوضيع ربما يكتفي بأدنى شيء في إكرامه، وجارك الشريف يحتاج إلى أكثر.(١)

وقد جاء في بعض طرق هذا الحديث عند الإمام مسلم: «فليحسن إلى جاره»(٢)، ويقال في هذا اللفظ ما قيل في سابقه: إن النبي ﷺ لم يحدد صورةً معينة من صور الإحسان؛ فيدخل في ذلك كل ما يمكن أن يُحسن به إلى الجار: من بذل المعروف، وقضاء الدين، وإعانته في ضوائقه، والوقوف معه في مصائبه، وتفقد حوائجه، وغير ذلك.

وتأمل – أيها المؤمن الموفق – هذا الحديث العظيم الذي يؤكد هذا المعنى الشرعي الكبير، ففي الصحيحين من حديث عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما زال جبريلُ يوصيني بالجارِ حتى ظننت أنه سيُوَرِّثه»(٣).

ومن المعلوم أن جبريلَ عليه السلام إنما فعل ذلك بأمرٍ من الله تعالى، وقد وقع التكرار بالوصية إلى الحدّ الذي توقع النبي ﷺ أن يكونَ للجار نصيبٌ من إرث جاره!

قارن هذا بأحوال بعض الجيران اليوم؛ تجد ما يؤسَف عليه: مِن بُعد عن الحفاوة بهذه الوصية النبوية الكريمة!

---

(١) ينظر: شرح الأربعين النووية للعثيمين: (ص١٧٧).

(٢) مسلم ح(٤٧)، (٤٨).

(٣) البخاري ح(٥٦٦٩)، مسلم ح(٢٦٢٤).





إن قوله ﷺ في هذه القاعدة: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره» يدل على أن هذا من خصال الإيمان، والأعمال التي تقوي الإيمان.

وأعمال الإيمان تارة تتعلق بحقوق الله: كأداء الواجبات وترك المحرمات، ومن ذلك: قول الخير، والصمت عن غيره، **وتارة تتعلق بحقوق عباده:** كإكرام الضيف، وإكرام الجار، والكف عن أذاه.[1]

وتأمل قوله ﷺ في هذه القاعدة: **«فليُكرم جارَه»**؛ وهذا طلب شيءٍ زائد عن كفّ الأذى، وحفظ أسرار الجار، وحب الخير له! يتبين لك بذلك كلّه حرص الإسلام على حفظ حق الجوار.

يقول بعض أهل العلم: وجملة حق الجار على الجار: إن استقرضَك أقرضتَه، وإن استعانك أعنتَه، وإن مرض عدتَه، وإن احتاج أعطيتَه، وإن افتقر عدتَ عليه، وإن أصابه خير هنيّته، وإن أصابته مصيبةٌ عزَّيته، وإذا مات اتبعتَ جنازته، ولا تستطل عليه بالبناء فتَحجُب عنه الريحَ إلا بإذنه، ولا تؤذه بريح قِدرك إلا أن تغرف له، وإن اشتريتَ فاكهة فأهدِ له، وإن لم تفعل فأدخلها سراً ولا تُخرج بها ولدَك ليغيظ بها ولدَه[2]، وتهَنِّئَه في الفرحِ، وتُظهِر الشَّرِكَةَ فِي السرور معه، وتصفح عن زلاته، ولا تطلع مِنَ السَّطح إِلى عَوراَتِهِ، ولا تضايقه فِي مصب الماء في ميزابه، ولا في مطرح التراب في فنائه، ولا تضيق طرقه إلى الدَّار، ولا تُتْبِعه النَّظَرَ فِيمَا يَحْمله إِلى داره، وتسْتُر ما يَنْكَشِف له من عَوْرَاتِهِ،

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم(١/ ٣٣٣).

(٢) روي هذا في حديث عن معاذ، قال الحافظ في الفتح (١٠/ ٤٤٦): والسياق أكثره لعمرو بن شعيب، وفي حديث بهز بن حكيم: (وإن أعوز سترته) وأسانيدهم واهية، لكن اختلاف مخارجها يشعر بأن للحديث أصلاً.





وتقف معه إِذَا نابَتْه نَائِبَةٌ، وَلَا تغْفل عن تفقد حاجة أهله عند غَيْبَتِهِ.(١)

شكا بعضُهم كثرة الفأر في داره! فقيل له: لو اقتنيت هراً؟ فقال: أخشى أن يسمع الفأرُ صوتَ الهر فيهرب إلى دور الجيران؛ فأكون قد أحببتُ لهم ما لا أحب لنفسي!(٢)

وإذا كان حسن الجوار يدعو إليه ويتخلق به نفرٌ من أهل الجاهلية؛ فلأن يدعو إليه ويتخلق به المسلم بربه أحق وأولى، هذا قائل الجاهلية يقول:

نــاري ونــارُ الجــار واحــدةٌ   وإليــه قبلــي ينــزل القِــدرُ
مــا ضــر جــاري إذا أجــاوره   أن لا يكــون لبابــه ســــتر

وقال آخر:

وأغــض طــرفي إن بــدت لــي   **حتــى يــواري جــارتي مأواهــا**

ونلاحظ من نصوص الشريعة وإطلاقاتها، ومن تطبيقات النبي ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم أن هذا الحق يشمل المسلمَ والكافرَ، والعابدَ والفاسقَ، والصديقَ والعدوَ، والغريبَ والبلديَ، والنافعَ والضارَ، والقريبَ والأجنبيَ، والأقربَ داراً والأبعدَ، وله مراتبُ أعلى من بعض، فأعلاها: من اجتمعت فيه الصفات الأُوَل كلها، ثم أكثرها، وهلم جراً إلى الواحد، وعكسه: من اجتمعت فيه الصفات الأخرى، فيُعطى كلٌ حقه بحسب حاله.(٣)

فإن قلتَ: ما حدّ الجيران الذين يجب لهم هذا الحق الذي عظّمه الشرع؟

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين (٢/ ٢١٣).

(٢) إحياء علوم الدين: (٢/ ٢١٣).

(٣) ينظر: فتح الباري: (١٠/ ٤٤١).





والجواب: أن في ذلك اختلافاً بين أهل العلم، وأصح الأقوال في هذه المسألة: أن ذلك يرجع إلى العرف، فما تعارف عليه الناس أنه من الجيران فهو كذلك إن شاء الله تعالى، وهذا اختيار ابن قدامة – رحمه الله [(١)].

قالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله! إن لي جارين، فإلى أيهما أُهدي؟ قال: «إلى أقربهما منك باباً»[(٢)]، أي: أشدهما قرباً، قيل: الحكمة فيه أن الأقرب يرى ما يدخل بيتَ جاره من هدية وغيرها؛ فيتشوف لها، بخلاف الأبعد، وأن الأقرب أسرع إجابة لما يقع لجاره من المهمات، ولا سيما في أوقات الغفلة.[(٣)]

وفي مقابل ما سبق لنتأمل هذا الوعيد الذي يؤكد خطورة أذية الجيران:

يقول ﷺ – كما في البخاري من حديث أبي شريح – رضي الله عنه: «والله لا يؤمن! والله لا يؤمن! والله لا يؤمن!» قيل: ومن يا رسول الله؟! قال: «الذي لا يأمن جارُه بوائقَه»[(٤)].

ففي هذا دليل على تحريم العدوان على الجار؛ سواء كان ذلك بالقول أو بالفعل.

---

(١) ينظر: فتح الباري (١٠/٤٤٤): قال بن أبي جمرة: إذا أكّد حق الجار مع الحائل بين الشخص وبينه، وأُمر بحفظه، وإيصال الخير إليه، وكف أسباب الضرر عنه؛ فينبغي له أن يراعي حق الحافظين اللذين ليس بينه وبينهما جدار ولا حائل! فلا يؤذيهما بإيقاع المخالفات في مرور الساعات؛ فقد جاء أنهما يُسَرَّان بوقوع الحسنات، ويحزنان بوقوع السيئات؛ فينبغي مراعاة جانبهما، وحفظ خواطرهما: بالتكثير من عمل الطاعات، والمواظبة على اجتناب المعصية؛ فهما أولى برعاية الحق من كثير من الجيران!

(٢) البخاري ح(٢١٤٠).

(٣) فتح الباري: (١٠/ ٤٤٧). وجاء في شرح الزرقاني على الموطأ (٤/ ٤٧٩): قال الزواوي: هذا والله أعلم إذا كان المشي قليلاً فالأقرب باباً أولى به، فأما مع السعة وكثرة ما يُهدى فليهد إلى غير واحد الأقرب فالأقرب.

(٤) البخاري ح(٥٦٧٠)، ولفظ مسلم ح(٤٦): «لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه».





أما بالقول: فأن يسمع منه ما يزعجه ويقلقه، كالذين يفتحون الراديو أو التلفزيون أو غيرهما مما يُسمَع فيزعِج الجيران، فإن هذا لا يحل له، حتى لو فتحه على كتاب الله! وهو مما يزعج الجيران بصوته فإنه معتدٍ عليهم، ولا يحل له أن يفعل ذلك!

وأما بالفعل: فيكون بإلقاء الكناسة حول بابه، والتضييق عليه عند مداخل بابه، أو بالدق، أو ما أشبه ذلك مما يضره، ومن هذا أيضاً: إذا كان له نخلة أو شجرة حول جدار جاره فكان يسقيها حتى يؤذي جاره بهذا السقي، فإن ذلك من بوائق الجار فلا يحل له.

إذن: يحرم على الجار أن يؤذي جاره بأي شيء، فإن فعل فإنه ليس بمؤمن؛ والمعنى أنه ليس متصفاً بصفات المؤمنين في هذه المسألة التي خالف بها الحق.[1]

«قال بعض الحكماء: عجباً من المسيء الجوار! المؤذي لجاره، وهو مطلع على أخباره! وعالم بأسراره، يجعله عدواً؛ إن علم خيراً أخفاه، وإن توهم شراً أفشاه، فهو قذاةٌ في عينه لا يَطرَف عنها، وشجىً في حلقه ما يتسوغ معه، فليتَه إذ لم يكرم مثواه، كفَّ عنه أذاه، فإنما دارُ المرء دنياه! أو لم يسمع قول الشاعر:

ونُكرِمِ جارَنا حتى ترانا … كأن لجارنا فضلاً علينا؟

---

(١) شرح رياض الصالحين. للعثيمين (٣/ ١٧٨).





ختاماً .. يقول الحسن البصري – رحمه الله –: ليس حُسن الجوار كفّ الأذى عن الجار، ولكن حسن الجوار: الصبر على الأذى من الجار».[1]

اللهم اجعلنا من الحافظين لحقوق جيرانهم، المتخلقين بما أمرتهم، المنتهين عما نهيتهم.

خلاصة القاعدة:

- اختر جارك قبل دارك.
- التقصير في حقوق الجيران مؤشر خطير على تفكك المجتمع.
- أحسن لجارك وإن جار عليك.



(١) لباب الآداب. لأسامة بن منقذ: (ص٢٦٢-٢٦٣).






القاعدة النبوية الخامسة والأربعون: اعملوا فكلٌ ميسّر لما خُلق له [1]

وكل امرئ يهفو على ما يحبه	وكل امرئ يصبو إلى ما يناسبه

وهذه القاعدة جاءت ضمن حديث أخرجه الشيخان، وله قصة، حدثنا بها أبو الحسن علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – يقول: كان رسول الله ﷺ لثاني علامة في جنازة ذات يوم جالساً وفي يده عود ينكت به، فرفع رأسه فقال: «**ما منكم من نفس إلا وقد علم منزلها من الجنة والنار**» قالوا: يا رسول الله! فلم نعمل؟ أفلا نتكل؟ قال: «**لا! اعملوا، فكل ميسر لما خلق له**» ثم قرأ: ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝** ﴾ [الليل: ٦] إلى قوله: ﴿ **فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝** ﴾ [الليل: ١٠] [2].

إنها قاعدة نبوية تخاطب وجدان كل مسلم، وتقول له: لا توقُّفَ في الحياة، ليس هناك في عالم الزمن محطات وقوف؛ لأن قطار الأعمار ليس في يد أحد من البشر!

فالعملَ العملَ، والجدَّ الجدَّ؛ فالطريق الذي يوصل إلى الآخرة لا تجد فيه متوقفاً، بل لا ترى فيه إلا متقدماً سابقاً، أو متأخراً متعثراً، قال الله تعالى:

---

(١) البخاري ح(٦٠١٩)، مسلم ح(٤٧).

(٢) البخاري ح(٤٩٤٥)، مسلم ح(٢٦٤٧).





﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ٣٧﴾ [المدثر: ٣٧].

إنها قاعدة عظيمة تتضمن أصلاً كبيراً من أصول الإيمان الستة، وهو الإيمان بالقدر خيره وشره، حلوه ومُرّه، أوله وآخره، وهذا لا يتم إلا بأن يعترف العبدُ أن علم الله محيط بكل شيء، وأنه عَلِم أعمال العباد خيرها وشرها، وعلم جميع أمورهم وأحوالهم، وكتب ذلك في اللوح المحفوظ، كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧٠﴾ [الحجّ:٧]، وأن الله تعالى ينفذ هذه الأقدار في أوقاتها بحسب ما تقتضيه حكمته ومشيئته، الشاملتان لكل ما كان وما يكون، المحيطتان بالخلق والأمر، وأنه أعطى العبادَ قدرةً وإرادةً تقع بها أفعالهم بحسب اختيارهم، لم يجبرهم عليها، ويقع عليها الحساب والجزاء.

فإن قلتَ: كيف أفهم ما تقرره في قضية القدَر، وهذه القاعدةُ تقرر أن كلاً منا ميسّر لما خُلق له؟!

والجواب: أن أفعالنا وأقوالنا تقع بقدرتنا ومشيئتنا اللتين سيحاسبنا الله عليهما، وأعطانا – سبحانه – قدرات ومواهب، نقضي بها ما قُدّر لنا قضاؤه، فعلينا الكشف عن هذه القدرات والطاقات، وألا نتكلّف ما لا يناسبنا فـ:«**كلٌ ميسّر لما خُلق له**».

ومن جهة أخرى: فإن هذه القاعدة النبوية المحكمة تشير إلى معنى آخر؛ وهو أن من وَجَّه وجهه وقصده لربه حبَّب إليه الإيمان وزينه في قلبه، وكرّه إليه الكفر والفسوق والعصيان، وجعله من الراشدين؛ فتمت عليه نعمُ الله من كل وجه.

ومن وجّه وجهه لغير الله، وتولى عدوه الشيطان؛ لم ييسره لهذه الأمور،





بل وَلاَّه الله ما تولى، وخذله، ووكله إلى نفسه، وليس له على ربه حجة؛ فإن الله أعطاه جميع الأسباب التي يقدر بها على الهداية، ولكنه اختار الضلالة على الهدى فلا يلومن إلا نفسه، قال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال عز وجل: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [المائدة:١٦]، وهذا القَدَر يأتي على جميع أحوال العبد وأفعاله وصفاته، حتى العجز والكَيْس، كما في الحديث: «كل شيء بقَدَر حتى العجز والكيس»[١] وهما الوصفان المتضادان الذي ينال بالأول منهما: الخيبة والخسران، وبالثاني: الجد في طاعة الرحمن، والمراد هنا: العجز الذي يلام عليه العبد؛ وهو عدم الإرادة، والكسل، لا العجز الذي هو عدم القدرة.

أما أهل السعادة: فييسرون لعمل السعادة، وذلك بكَيْسِهم وتوفيقهم ولطف الله بهم.

ومن ثم قال العلماء: «إذا كانت الهداية مصروفة، والاستقامة على مشيئته موقوفة، والعاقبة مغيّبة، والإرادة غير معلومة ولا مغالَبَة؛ فلا تعجب بإيمانك، وصلاتك، وجميع قُرَبك؛ فإنها من محض فضل ربك وجوده، فربما سلبها عنك فوقعْتَ في هُوّة الندم حيث لا ينفع الندم»[٢].

والأصل في هذا حديث سهل بن سعد - رضي الله عنه - عند

---

(١) مسلم ح(٢٦٥٥).

(٢) الزواجر عن اقتراف الكبائر: (١/ ١٤٧).





البخاري، قال ﷺ: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة – فيما يبدو للناس – وإنه لمن أهل النار، ويعمل بعمل أهل النار – فيما يبدو للناس – وهو من أهل الجنة»(١)، فالرياء هو الخطر المهلك.

إن هذه القاعدة النبوية الجليلة: «اعملوا فكلٌ ميسّر لما خُلق له» تُلفت انتباه الآباء والمربين لأمر هو في غاية الأهمية، عليهم مراعاته لإنجاح عملية تربيتهم، هذا الأمر هو: **محاولة الكشف عن ميول المتربي، ومعرفة جوانب الإبداع عنده، فإذا عرفها المربي** سعى في تطويرها له، وصرف لها الوقت الأكبر؛ والاهتمام الأبلغ، ولا بد أن لكل إنسان خلقه الله تعالى نفعٌ في مجال من مجالات الحياة، فما خلق الله شيئاً عبثاً، والسعيد من اكتشف مجال إبداعه وتخصصه في وقت مبكر من العمر؛ ثم سعى في تنميته وإذكائه.

وهذا هو ما طبّقه النبي ﷺ عملياً مع أصحابه رضوان الله عليهم، فجعل للخطابة ثابت بن قيس، ولمنبر الشعر حسان، وللمعارك سيف الله خالد، وفي الترمذي وصححه من حديث أنس – رضي الله عنه – قال: قال ﷺ: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأقرؤهم لكتاب الله أُبي بن كعب، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، ألا وإن لكل أمة أمينا وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»(٢).

---

(١) البخاري ح(٤٢٠٧).

(٢) الترمذي ح(٣٧٩١) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وكذا صححه ابن حبان ح(٧١٣١).

وفي الحديث كلام في وصله وإرساله، ينظر: السنن الكبرى للبيهقي (٦/ ٣٤٦)، والتلخيص الحبير (٣/ ١٨٠).

وقد اقتصر الشيخان ــ البخاري ومسلم ــ على آخره: «إن لكل أمة أميناً، وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»





يقال إن «أفلاطون سأل بعضَ تلامذته عن مسألة لم تكن تليق بحاله، فقال: لستُ من أهلها؛ **فلكل تربة غرس، ولكل بناء أُس.**

وقيل: تصفح طلابَ علمِك كما تتصفح خُطّاب حُرَمِك.

وكان يونسُ بن حبيب يختلف إلى الخليل؛ يتعلم منه العَروض، فصعُب عليه تعلُّمه، فقال له الخليل يوماً: من أي بحرٍ قول الشاعر:

إذا لم تســـتطع شـــيئاً فدعـــه وجـــاوزه إلى مـــا تســـتطيع

ففطن يونسُ لما عناه الخليل! فترك العَروض.

وقيل: اخترْ كلَّ إنسانٍ للفنّ الذي يستطيبه؛ فبقدر شهوته يكون نفاذه فيه.

ويروى عن عيسى عليه الصلاة والسلام: لا تضعوا الحكمة في غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم، وكن كالطبيب الحاذق يضع دواءه حيث يعلم أنه ينتفع به»[1].

ومن النصوص القرآنية التي تلتقي في معناها مع هذه القاعدة، قوله تعالى: ﴿ **قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ** ﴾ [البقرة: ٦٠] والمعنى: أن كل واحدٍ يعمل على طريقته التي تُشاكِل أخلاقَه؛ فالكافر يعمل ما يشبه طريقتَه: من الإِعراض عند النِّعم، واليأس عند الشدة، والمؤمن يعمل ما يشبه طريقتَه:

وهذا أرجح، والله أعلم.

(١) محاضرات الأدباء: (١/ ٦٧).





مِن الشكر عند الرخاء، والصبر عند البلاء، والله يجازي الفريقين.[1]

كــلُّ امــرئٍ يشــبهه فعلــه ... مــا يفعــل المــرء فهــو أهلــه

فيا أيها الموفق! إذا قرأت قول نبيك ﷺ: «**اعملوا فكلٌّ ميسر لما خلق له**» اعمل ولا تيأس، ولا تقل: أنا مكتوب في الأشقياء فلمَ العمل! فهل جاءك مرسوم إلهي أنك في الأشقياء؟ هل اطلعت على اسمك في اللوح المحفوظ فإذا هو في زمرة الأشقياء؟ هل سمعت وأنت في بطن أمك المَلَكَ الموكّل بنفخ الروح فيك يُؤمر بأن تُكتَب شقياً؟!

إذن: كن متفائلاً بالنجاح، محسناً الظن بربك، وتقدم إليه بما تستطيع من الطاعات، وجاهد نفسك على ترك المحرمات؛ فلا مُكرِه لك عليها سوى نفسك والشيطان، فاستعن بالله عليهما وعلى كل عدوٍ ولا تعجز، فإن الله تعالى قال: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًىۗ ﴾ [مريم: ٧٦]، بل: ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ [محمد: ١٧].

اللهم آت نفوسنا تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم يسرنا لليسرى، وجنبنا العسرى، ولا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب، لا حول ولا قوة إلا بك.

---

(١) ينظر: زاد المسير: (٣/ ٥٠).





خلاصة القاعدة:

- الطريق إلى الله تعالى هكذا: (لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ)..فلا تتوقف.
- حين تُقبل على الطاعة بيسر ومحبة وشوق فأبشر.
- قنوطك من رحمة الله..من أعظم أهداف إبليس.







القاعدة النبوية السادسة والأربعون:

خيرُكم؛ خيرُكم لأهله [1]

إذا أراد الله بأهل بيت خيراً أدخل عليهم الرفق. (حديث نبوي)

هذه قاعدة نبوية عظيمة، تتفقد بيوت المسلمين ودُورَهم؛ لتضع عليها بصمات السعادة، وتنفخ فيها روح الحياة الطيبة، جاءت هذه القاعدة الجليلة يتصدرها المدح والتشويق للمجهول! «خيركم»! ومن هذا الذي لا يسعى لأن يكون من خيرِ الناس! إن كنت تسعى لتلك الخيرية فكيف أنت مع أهلك؟[2].

والمراد أن حسن العشرة مع الأهل من جملة الأشياء المطلوبة في الدين، فالمتصف به من جملة الخيار من هذه الجهة، وقد يُوفّق بسبب هذه الخصلة لسائر الصالحات حتى يصير خيراً على الإطلاق.[3]

وللعلامة الشوكاني تعليقٌ قيّم على هذا يقول فيه:

---

(١) الترمذي ح(٣٨٩٥) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن حبان ح(٤١٧٧، ٤١٨٦).

(٢) في مرقاة المفاتيح: (٥/ ٢١٢٥): والأهل يشمل الزوجات والأقارب، بل الأجانب أيضاً، فإنهم من أهل زمانه!

(٣) ينظر: حاشية السندي على سنن ابن ماجه: (١/ ٦٠٩).







«في ذلك تنبيه على أن أعلى الناس رتبة في الخير، وأحقهم بالاتصاف به: هو من كان خير الناس لأهله؛ فإن الأهل هم الأحقاء بالبِشر وحسن الخلق، والإحسان، وجلب النفع ودفع الضر، فإذا كان الرجل كذلك فهو خير الناس، وإن كان على العكس من ذلك فهو في الجانب الآخر من الشر! **وكثيراً ما يقع الناس في هذه الورطة؛** فترى الرجل إذا لقي أهلَه كان أسوأ الناس أخلاقاً، وأشجعهم نفساً، وأقلهم خيراً! وإذا لقي غير الأهل من الأجانب لانت عريكتُه، وانبسطت أخلاقُه، وجادت نفسُه، وكثر خيرُه، ولا شك أن من كان كذلك فهو محروم التوفيق! زائغٌ عن سواء الطريق! نسأل الله السلامة»[(١)].

إن أهلَ الرجلِ أحقُّ بإحسان الخُلُق؛ لأنهم هم الذين معك ليلاً ونهاراً، سراً وعلانية، إن أصابك شيءٌ أصيبوا معك، وإن سررت سروا معك، وإن حزنت حزنوا معك، فلتكن معاملتك معهم خيراً من معاملتك مع الأجانب.[(٢)]

وقد كان لقمان الحكيم يقول: العاقل في بيته ومع أهله كالصبي، فإذا كان في القوم وُجِد رجلاً.[(٣)]

وقد كان محمد بن الحنفية يقول: ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف مَن

---

(١) نيل الأوطار: (٦/ ٢٤٥-٢٤٦).

(٢) شرح رياض الصالحين: (٣/ ١٣٤).

(٣) قوت القلوب: (٢/ ٤١٨-٤١٩).





لا يجد مِن معاشرته بُدّاً، حتى يجعل الله له منه فرجًا ومخرجًا.[١]

وإن من المؤلم ما يُقرأ ويُسمع من أخبار أتباع محمد ﷺ في الزمن المتأخر؛ الذين ما رعوا هذه القاعدة حق رعايتها: **«خيركم؛ خيركم لأهله»** بل خالفوا مقصودها ومعناها، فكم سمع الناس من قصص يندى لها جبين المروءة! وتبكي لها الأخلاق الفاضلة! من أناس لا يخافون الله في نسائهم، فيضربونهن بغير حق، وإن زعموا أن ثمة حقاً أباح الضرب لم يقتصروا على الضرب المبرّح، بل إلى الضرب الذي يُشعِر بأن القصد الإهانة والإذلال والانتقام! حتى استقبلتْ بعضُ المستشفيات حالاتٍ يشك معها الإنسان أن الضارب في وعيه!

لقد حرم الله أذية المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا، فكذلك ضربهم بغير ما اكتسبوا حرام، يقول تعالى: ﴿ **وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾** ﴾ [الأحزاب: ٥٨]، وسواء كان المضروب امرأةً وضارِبُها زوجُها، أو صغيراً وضارِبه والدُه، أو وصياً لأبيه عليه؛ لأن الله أباح لهؤلاء ضربَ من سبق ذكرهم بالمعروف؛ بغية الإصلاح لا الإتلاف.[٢]

ألا يكفي هؤلاء قولُ المصطفى عليه الصلاة والسلام: «ألا واستوصوا بالنساء خيراً؛ فإنما هن عَوانٍ عندكم[٣]، ليس تملكون منهن شيئاً غيرَ ذلك،

---

(١) المصدر السابق.

(٢) ينظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال: (٧/ ٣١١).

(٣) قال الترمذي: يعني أسرى في أيديكم.





إلا أن يأتين بفاحشة مبينة؛ فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع، واضربوهن ضرباً غير مبرِّح، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً، ألا إن لكم على نسائكم حقاً، ولنسائكم عليكم حقاً، فأما حقكم على نسائكم: ألا يوطِئن فُرُشَكم من تكرهون، ولا يأذنَّ في بيوتكم لمن تكرهون، ألا وحقهن عليكم: أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن»[(١)].

ولقد قال تعالى في أمر النساء: ﴿ **وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ** ﴾ [النساء: ١٩] ثم أجمل في النساء ما فرّقه من حق الزوج في كلمة واحدة فقال: ﴿ **وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ** ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وقال في عظيم حقهن: ﴿ **وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا** ﴾ [النساء: ٢١]، وقد قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ** ﴾ [النساء: ٣٦] قيل: هي المرأة.[(٢)]

فإن كانت بذيئة اللسان، قليلة القبول، عظيمة الجهل، كثيرة الأذى؛ فطلاقها أسلم لدينهما، وأروح لقلوبهما في عاجل دنياهما وآجل آخرتهما، وأحفظ لمروءة كلٍّ منهما.

إن النبي ﷺ حينما قرر هذه القاعدة النبوية العظيمة: «خيركم؛ خيركم لأهله» أتبعها بقوله: «وأنا خيركم لأهلي»، وصدق بأبي هو وأمي ﷺ وبرّ، فتعالوا بنا نطل على **شيءٍ من أخلاقه عليه الصلاة والسلام مع أهله رضوان الله عليهم**، في هذا النقل الذي أبدع في اختصاره الإمام ابن القيم – رحمه الله – في (زاد المعاد) فقال:

---

(١) الترمذي ح(١١٩٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأصله في الصحيح.

(٢) قوت القلوب: (٢/ ٤٢٠).





«وكانت سيرته مع أزواجه: حُسْن المعاشرة، وحُسْن الخُلُق.

وكان يُسَرِّب[1] إلى عائشة بناتَ الأنصار يلعبن معها، وكان إذا هويتْ شيئاً لا محذور فيه تابعها عليه، وكانت إذا شربت من الإناء أخذه فوضع فمَه في موضع فمها وشرب، وكان إذا تعرّقت عَرْقاً - أي أكلت العَظْم الذي عليه لحم - أخذه فوضع فمه موضع فمها، وكان يتكئ في حِجرها ويقرأ القرآن ورأسه في حجرها - وربما كانت حائضاً -، وكان يأمرها وهي حائض فتتزر ثم يباشرها، وكان يقبلها وهو صائم، وكان من لطفه وحسن خلقه مع أهله: أنه يمكنها من اللعب، ويريها الحبشة وهم يلعبون في مسجده وهي متكئة على منكبيه تنظر، وسابَقها في السفر على الأقدام مرتين، وتدافعا في خروجهما من المنزل مرة.

وكان إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيَّتهن خرج سهمها خرج بها معه»[2] انتهى.

ولما سُئلت عائشة رضي الله عنها: ماذا كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: (كان في مهنة أهله) أي يساعدهم على مهمات البيت، حتى أنه ج كان يحلب الشاة لأهله، ويخصف نعله، ويرقع ثوبه، وهكذا ينبغي للإنسان مع أهله أن يكون من خير الأصحاب لهم»[3].

أيها الزوج الكريم: **كيف تكون من خير الناس مع أهلك؟**

---

(1) أيْ يَبْعَثُهن ويُرْسلُهن إليها. النهاية(٢/ ٣٥٦).

(2) زاد المعاد: (١/ ١٤٦).

(3) شرح رياض الصالحين: (٣/ ٥٦٩).







هنا أمور نسردها سرداً؛ لعل من راعاها في عشرته مع أهله أن يكون من خير الناس:

- المعاشرة بالمعروف، أي: بحسب الأعراف التي لا تخالف شرعاً.
- التغاضي والتغافل في كثير من الأحيان، وعدم تعقب الأمور صغيرها وكبيرها.
- أن تغار عليهم في دينهم وعرضهم غيرة خالية من سوء الظن، وألاعيب الشك.

– أن تُعلِّمهم ما تَعلَم من أمور دينهم، وتستفتي العلماء في أسألتهم عن حيضهم – مثلاً – وصلاتهم، وغير ذلك من أمور الدين.

– أن لا تكلفهم فوق طاقتهم، خاصة في أيام الحمل، فلا ترهقهم من أمرهم عُسراً، ولا تطلب منهم ما لا يستطيعونه، ولا تهضم جهودهم وتزد في أوامرك مستغلاً ضعفهم وعجزهم بين يديك!

– التوسيع بالنفقة عليهم، بما لا إسراف فيه ولا عبث.

– أن تتزين لزوجك وتتطيب كما تحب ذلك منها، ولقد كان رسول الله يبدأ بيته بالسواك.

ولا يغب عن بالك أيها الزوج الموفق: أن الكمال البشري عزيز ونادر، ومتى كملتَ أنت أيها الرجل من كل وجه، وخلُصت من كل عيب، وتحررت من كل نقص؛ فعند ذلك طالب زوجتك بالكمال!





إذن: فاستمتع بها على ما فيها من عِوَج، و«لا يَفرَك مؤمنٌ مؤمنةً؛ إن كره منها خُلُقاً رضي منها آخر»[1].

اللهم أصلح أحوالنا وأحوال المسلمين، واجعلنا مع أهلنا كما تحب وترضا، واهدنا لأحسن الأخلاق والأعمال، وجنبنا سيئها؛ إنك سميع الدعاء.

خلاصة القاعدة:

- أهلك هم أحق الناس بخيرك وابتسامتك ولطافتك.
- تأسيك بأخلاق نبيك عليه الصلاة والسلام مع أهله؛ تجعلك أسعد زوج.
- اعلم أن حُسن تعاملك مع أهلك عبادة وقربة لك عند ربك.



(١) مسلم ح(١٤٦٩).

يفرك بفتح الياء والراء وإسكان الفاء: يبغض، قال القاضي عياض: أي لا يقع منه بغض تام لها. انظر: شرح النووي على مسلم(١٠/ ٥٨).





القاعدة النبوية السابعة والأربعون:
لا تحقرنّ من المعروف شيئاً[1]

بلغنا أن عمر بن الْخطاب أتاه مسكين وفي يده عنقود من عنَب فناوله منه حبَّة وقال: فيه مَثاقيل ذَر كثيرة. (جعفر بن برْقان)

هذه قاعدة نبوية من قواعد بناء الخير ونشر المعروف، قاعدة تدعو لأن يبقى المسلمُ عضواً فاعلاً للخير، متحركاً إلى الإحسان، مبادراً إلى الطاعة، سباقاً إلى الفضائل، وأن لا يزهد عن خيرٍ مهما صغر في عينه، ولو كان بابتسامة في وجه أخيه، أو يلقى أخاه بوجهٍ طَلْق، فإن عجز عن هذه وتلك، فليكف شره عن الناس! فتلك صدقة، وكل معروف صدقة.

والمعروف: اسم جامع لكل ما عُرف من طاعة الله تعالى والإحسان إلى الناس، وهو من الصفات الغالبة أي: أمرٌ معروف بين الناس، إذا رأوه لم ينكروه.[2]

---

(١) مسلم ح(٢٦٢٦).

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: (٤/ ١٣٣٦).





بل قال بعضُ أهل العلم: «المعروف عند العرب ما يعرفه كل ذي عقل، ولا ينكره أهل الفضل»[1].

إن مِن كرم الله تعالى أنه يُنيل الإنسانَ الفوزَ بالجنة والنجاة من النار بالعمل اليسير، والمتأمل في السنة النبوية يجد أن النبي ﷺ قد فتح للمؤمنين آفاقاً رحبة لفعل المعروف، الذي ثمرته جنةٌ عرضها السماوات والأرض، فلنقرأ شيئاً من هذه الأعمال اليسيرة، ذات الأجور العظيمة:

١- ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «بينما رجل يمشي بطريق؛ وجد غصن شوك على الطريق فأخّره فشكر الله له فغفر له»[2].

٢- وفي الصحيح أيضاً عنه ﷺ في قصة البغي التي سقت كلباً أخبر أن الله غفر لها ذلك، وأدخلها الجنة، وفي عموم الإحسان إلى البهائم، يقول عليه الصلاة والسلام: «في كل كبد رطبة أجر»[3].

٣- ومن ذلك ما ثبت في الصحيحين أنه ﷺ قال: «اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة»[4] فيا من عجز أو تكاسل عن الصدقة بجزء من التمرة! هل تعجز عن كلمة طيبة تدخل بها السرور على أخيك، أو تدفع عنه بها حزنه، أو تأمر بمعروف، أو تنهى عن منكر؟!

٤- ومن النماذج التطبيقية لهذه القاعدة: **«لا تحقرن من المعروف**

---

(١) فيض القدير(٢/ ٥٥٧)، والمقولة للعسكري.

(٢) البخاري ح(٦٢٤)، مسلم ح(١٩١٤).

(٣) البخاري ح(٢٣٦٣)، مسلم ح(٢٢٤٤).

(٤) البخاري ح(١٣٥١)، مسلم ح(١٠١٦).







شيئاً»؛ قوله ﷺ – كما في الصحيحين –: «يا نساء المسلمات لا تحقرن جارةٌ لجارتها، ولو فِرسنَ شاة»[1] ففي هذا الحديث الحض على مهاداة الجار وصلته، وإنما أشار النبي عليه السلام بفِرسِن الشاة إلى القليل من الهدية، لا إلى إعطاء الفِرسِن! لأنه لا فائدة فيه[2]، فيكون الغرض الأسمى في هذا هو: بقاء حبل المودة والتواصل بين الجار وجاره، ولقد أحسن القائل:

افعـل الخـير مـا اسـتطعت وإن ... كـان قلـيلاً فلـن تُطيـق بكُلّـه
ومتى تفعـل القليـل مـن الخير ... إذا كنـــت تاركـــاً لأقلـــه؟!

وقد فقهتْ أُمّنا عائشةُ رضي الله عنها هذا المعنى؛ فتصدقت بحبتي عنبٍ! وقالت: كم فيها من مثقال ذرة! قال الله تعالى: ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧** ﴾ [الزلزلة: ٧].[3]

٥- ومن أبواب المعروف اليسيرة التي لا يصح احتقارها: كف الأذى عن الناس باليد واللسان، كما في «الصحيحين» عن أبي ذر «قلت: يا رسول الله! أي الأعمال أفضل؟ قال: الإيمان بالله، والجهاد في سبيله، قلت: فإن لم أفعل؟ قال: تعين صانعاً، أو تصنع لأخرق، قلت: أرأيت إن ضعفتُ عن بعض العمل؟ قال: تكف شرك عن الناس، فإنها صدقة»[4].

بل قد روي عن الحسن، وابن سيرين: أن فعل المعروف يؤجر عليه،

---

(١) البخاري ح(٢٥٦٦)، مسلم ح(١٠٣٠).

(٢) شرح صحيح البخاري لابن بطال: (٩/ ٢٢٢).

(٣) الاستذكار: (٨/ ٣٧٥).

(٤) البخاري ح(٢٣٨٢)، مسلم ح(٨٤).





وإن لم يكن له فيه نية، سئل الحسن عن الرجل يسأله آخرُ حاجة وهو يبغضه؛ فيعطيه حياء: هل له فيه أجر؟ فقال: إن ذلك لمن المعروف، وإن في المعروف لأجراً.[1]

٦- ومن أبواب المعروف: أداء حقوق المسلم على المسلم، كـ: رد السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس، وإذا استنصحك فانصح له، وإبرار القسم، ونصر المظلوم، وإفشاء السلام، وإرشاد الضال، والمشي بحقوق الآدميين الواجبة إليهم، وإنظار المعسر، وبر الوالدين، والإحسان إلى الزوجة، وحسن تربية الأولاد، وبذل النصيحة، وتعليم الجاهل، وقيادة الأعمى، وبذل الشفاعة الحسنة، والدعاء للمسلمين.

٧- ومن الأحاديث العظيمة التي تدل على سعة مدلول هذه القاعدة – **«لا تحقرن من المعروف شيئاً»** – ما جاء في الحديث الصحيح: «أربعون خصلة أعلاهن منيحة العنز[2]، ما من عامل يعمل بخصلة منها رجاء ثوابها، وتصديق موعودها؛ إلا أدخله الله بها الجنة»[3]، فتأمل – أيها المسلم المبارك – هذا الترغيب العجيب، فإذا كانت أعلى هذه الخصال الأربعين هي منيحة العنز، فما ظنك بما دونها؟! فمن حقق الشرط المذكور: «ما من عامل يعمل بخصلة منها رجاء ثوابها، وتصديق موعودها؛ إلا أدخله الله بها الجنة» فقد وُفّق لخير عظيم.

(١) جامع العلوم والحكم: (٢/ ٨٩).

(٢) أنثى العنز تُعطى ليُنتفع بلبنها ثم تُرَد.

(٣) البخاري ح(٢٦٣١).





فإن قلتَ: فلماذا لم يعينها النبي ﷺ؟

فالجواب عن ذلك، ما ذكره ابن بطال – رحمه الله – حيث يقول: «ولم يذكر الأربعين خصلة فى الحديث – ومعلوم أنه كان عالماً بها كلها لا محالة – إلا لمعنى هو أنفع لنا من ذكرها، وذلك – والله أعلم –: خشية أن يكون التعيين لها والترغيب فيها زهداً في غيرها من أبواب المعروف وسبل الخير، وقد جاء عنه عليه الصلاة والسلام مِن الحض على أبواب من أبواب الخير والبر ما لا يحصى كثرة»[1] ا.هـ، وما أجمل قول الأول:

عليك بفعل الخير، لو لم يكن له   من الفضل إلا حُسنُهُ في المسامع

وما سبق كلّه إنما هو نماذجُ للمعروف المتعدي نفعُه للآخرين مِن إنس أو حيوان، أما المعروف القاصر على فاعله؛ فأبوابه لا تحصر، ومن ذلك:

٨- أنواع الذكر: من التسبيح، والتحميد، والتهليل، والاستغفار، والصلاة على النبي ﷺ، وكذلك تلاوة القرآن، والمشي إلى المساجد، والجلوس فيها لانتظار الصلاة، أو لاستماع الذكر.

٩- ومن ذلك: التواضع في اللباس، والمشي، والهدي، واكتساب الحلال، والتحري فيه.

١٠- محاسبة النفس على ما سلف من أعمالها، والندم والتوبة من الذنوب السالفة، والحزن عليها، واحتقار النفس، والازدراء عليها، ومقتها في الله عز وجل، والبكاء من خشية الله تعالى، والتفكر في ملكوت السماوات والأرض، وفي أمور الآخرة، وما فيها من الوعد والوعيد، ونحو ذلك مما يزيد الإيمان في القلب،

---

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال: (٧/ ١٥١).





وينشأ عنه كثيرٌ من أعمال القلوب: كالخشية، والمحبة، والرجاء، والتوكل، وغير ذلك[1].

فكل هذا معروفٌ وخيرٌ وصدقةٌ عظيمة تقدمها للآخرين، وأولاً: لنفسك التي بين جنبيك؛ فالأقربون أولى بالمعروف، فيا أيها المسلم: «لا تحقرن من المعروف شيئاً».

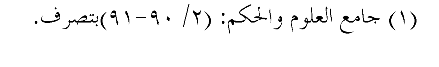
فافعــل الخــير وأمــل غبــهُ　　　فهـــو الـــذخر إذا الله حشـــر

اللهم اجعلنا من أهل المعروف في الدينا، الذين هم أهل المعروف في الآخرة، واجعلنا هداة مهتدين، مفاتيح للخير مغاليق للشر، وتقبل منا إنك أنت السميع العليم.

خلاصة القاعدة:

- عطايا الكريم سبحانه لا حدّ لها؛ فله الحمد.
- أهل المعروف في الدنيا هم أهل عطاء الله في الدنيا والآخرة.
- حتى حين تكف أذاك وشرك عن الناس؛ فهي صدقة تتصدق بها على نفسك.





(١) جامع العلوم والحكم: (٢/ ٩٠-٩١)بتصرف.





القاعدة النبوية الثامنة والأربعون:
من يستعفف يُعِفَّه الله، ومن يستغن يُغنِه الله [1]

> كان يقال: الشكر زينة الغنى، والعفاف زينة الفقر. (ابن مفلح)

هذه قاعدة نبوية جليلة القدر، عظيمة النفع، تدعو المسلم إلى أن يكون – أبداً – عزيز النفس، مرتفع القدر، قوي الثقة بربه، دائم الاتصال به سبحانه وتعالى.

ولقد اشتملت هذه القاعدة العظيمة على جملتين جامعتين للخير، نافعتين للخلق:

«إحداهما: قوله: «من يستعفف يعفه الله».

والثانية: قوله: «ومن يستغن يغنه الله».

وهاتان الجملتان متلازمتان، فإن كمال العبد في إخلاصه لله رغبة ورهبة، وتعلقاً به دون المخلوقين، فعليه أن يسعى لتحقيق هذا الكمال، ويعمل كل سبب يوصله إلى ذلك، حتى يكون عبداً لله حقاً، حُرّاً من رِق المخلوقين، وذلك بأن يجاهد نفسَه **عن أمرين:** انصرافها عن التعلق

---

(١) البخاري ح(١٣٦١)، مسلم ح(١٠٥٣).





بالمخلوقين؛ بالاستعفاف عما في أيديهم، فلا يطلبه بمقاله ولا بلسان حاله، ولهذا قال ﷺ لعمر: «ما أتاك من هذا المال وأنت غير مشرفٍ ولا سائلٍ فخذه، وما لا فلا تُتْبِعه نفسَك»[1] فقَطْعُ الإشراف في القلب والسؤال باللسان؛ تعففاً وترفعاً عن مِنن الخلق، وعن تعلق القلب بهم؛ سببٌ قويٌ لحصول العفة.

وتمام ذلك: أن يجاهد نفسَه على الأمر الثاني، وهو: الاستغناء بالله، والثقة بكفايته؛ فإنه من يتوكل على الله فهو حسبه، وهذا هو المقصود، والأول وسيلة إلى هذا؛ فإن من استعف عما في أيدي الناس، وعما يناله منهم؛ أوجب له ذلك أن يقوى تعلُّقه بالله، ورجاؤه وطمعُه في فضل الله وإحسانه، ويَحسُن ظنُّه وثقتُه بربه، والله تعالى عند حسن ظن عبده به: إن ظن خيراً فله، وإن ظن غيرَه فله، وكل واحد من الأمرين يُمِد الآخرَ فيقوِّيه، فكلما قوي تعلُّقه بالله ضعف تعلُّقه بالمخلوقين، وبالعكس.

ومِن دعاء النبي ﷺ: «اللَّهمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى، وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى»، فجمع الخيرَ كلَّه في هذا الدعاء.

فالهدى: هو العلم النافع، والتقى: العمل الصالح، وترك المحرمات كلها، وهذا صلاح الدين، وتمام ذلك: بصلاح القلب، وطمأنينته بالعفاف عن الخلق، والغنى بالله، ومن كان غنياً بالله فهو الغني حقاً، وإن قلّتْ حواصِله، فـ«**ليس الغنى عن كثرة العَرَض، إنما الغنى غنى القلب**»[2]،

(١) البخاري ح(١٤٠٤)، مسلم ح(١٠٤٥).

(٢) البخاري ح(٦٠٨١)، مسلم ح(١٠٥١).





وبالعفاف والغنى يتم للعبدالحياة الطيبة، والنعيم الدنيوي، والقناعة بما آتاه الله»[١].

واعلم أن مستعمِل العفاف داخلٌ في زمرة المعاملين لله عز وجل؛ فإن التعفف يوجب ستر الحال عن الخلق، وإظهار الغنى لهم؛ فيصير معاملاً في الباطن، ويقع له من الربح على قدر صبره وصدقه[٢].

ومعنى قوله: «يعفه الله» أي: يجعله عفيفاً (مِن الإعفاف)، وهو: إعطاء العفة، وهي الحفظ عن المناهي، يعني: من قنع بأدنى قوت، وترك السؤال؛ تُسَهّل عليه القناعة، وهي كنز لا يفنى[٣].

تأمل معي – أيها القارئ – في هذه الجملة التي صدّرها نبيك ﷺ بالقسم تنويهاً بشأنها: «**والذي نفسي بيده! لأن يأخذ أحدُكم حبله فيحتطب على ظهره، خيرٌ له من أن يأتي رجلاً فيسأله أعطاه أو منعه**»[٤] فأقْسَم بمن روحه بيده؛ على أن العمل مهما يكن نوعه فهو أفضل من سؤال الناس، وإراقة ماء الوجه لهم، وأنه مهما يكن شاقّاً عنيفاً فهو أرحم من مذلّة السؤال.

أي: لأن يذهب إلى الغابة فيقتطع الحطب من أشجاره، ويجمعه ويحمله على ظهره حتى يأتي السوق فيبيعه فيه «**خير له**» أي: أشرف وأكرم، وأرحم

---

(١) بهجة قلوب الأبرار: (ص٨٨-٨٩).

(٢) كشف المشكل من حديث الصحيحين: (٣/ ١٢٧).

(٣) ينظر: مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: (٦/ ٢٦٢).

(٤) البخاري ح(١٤٠١).





له من أن يمد يده لغيره، سواء أعطاه أو منعه، فإن منعه فقد كسر نفسه، وإن أعطاه فقد منّ عليه، وقد قال الشاعر:

لَحَمْلُ الصَخْرِ مِنْ قِمَـمِ الجِبَـالِ ... أحـبُّ إلـيَّ مِـنْ مِـنَنِ الرجـال

فدل هذا الحديث على: الترغيب في السعي والعمل وطرق الأسباب المشروعة لكسب الرزق بشرف وكرامة وعزّة نفسٍ، كما أن الحديث يشير إلى محاربة التسول والبطالة، ولذا أوجب السعيَ والعملَ، والحركة، ولو كان شاقاً «كالاحتطاب» مثلاً.

كما أن العفة لا تقتصر على التعفف في الجانب المالي! بل هي أوسع، ودلالة كلمة(العفة) في اللغة أرحب، فالعفة: الكف عما لا يحل له؛ كالزنا، والظلم، وسؤال الناس أموالهم، وغيرها من صور العفة[1].

وفي القرآن الكريم تنبيه على بعض تطبيقات هذه القاعدة العظيمة في هذا المعنى، كقوله تعالى: ﴿**وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ**﴾ [النور: ٣٣]، فالعفة هنا: عفة الفرج عما حرم الله تعالى.

وتدبر أخي قوله تعالى: «﴿**وَلْيَسْتَعْفِفِ**﴾ [النور: ٣٣] ولم يقُلْ: (وليعف)، فالمعنى: ليسلك سبيل الإعفاف لنفسه وليسْعَ إليه؛ بأن يمنع المهيِّج بالنظر، ويُهدِّئ شراسةَ الغريزة بالصوم أو بالعمل؛ فيشغل وقتَه، ويعود آخرَ النهار متعباً يريد أن ينام ليقوم في الصباح لعمله نشيطاً، وهكذا لا يجد فرصة لشيء مما يغضب الله.

(١) ينظر: عدة الصابرين: (٤٢).





ثم قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [النور: ٣٣] وهذا يدل على أن الاستعفاف وسيلة من وسائل الغنى؛ لأن الاستعفاف إنما نشأ من إرادة التقوى، وقد قال تعالى في قضية قرآنية: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢ – ٣] فمن هذا الباب يأتيه غِنَى الله«[1]، فـ«من يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله».

والإنسان الذي يُتبع نفسَه هواها – فيما يتعلق بالعفة – فإنه يَهلك والعياذ بالله؛ لأنه إذا أتبع نفسه هواها؛ صار يتتبع النساء؛ فيقع فيما حرم الله فيهلك، فالعين تزني، والأذن تزني، واليد تزني، والرجل تزني، ثم الفرج يصدّق ذلك أو يكذبه، وهو الفاحشة والعياذ بالله.

فإذا استعف الإنسان عن هذا المحرم، فصرف بصره، وأشغل نفسه وجوارحه بما يعود عليه نفعه، وملئ فراغ وقته بالخير والبر؛ أعفه الله – عز وجل– وحماه وحمى أهلَه أيضاً[2] قال تعالى: ﴿ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٩٦ ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

– **ومن القصص المشهورة** في آثار العفة وبركتها على صاحبها في الدنيا قبل الآخرة:

قصة الرجل – وهو أحد الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة في غار من الأغوار – فقال – متوسلاً إلى الله بعفته –: «اللهم إنه كانت لي ابنة عم أحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء، وطلبت إليها نفسها، فأبت حتى آتيها

---

(١) تفسير الشعراوي: (١٦/ ١٠٢٦٥)بتصرف يسير.

(٢) انظر: شرح رياض الصالحين: (١/ ١٩٦).





بمائة دينار، فتعبت حتى جمعت مائة دينار، فجئتها بها، فلما وقعت بين رجليها، قالت: يا عبدالله اتق الله، ولا تفتح الخاتم إلا بحقه، فقمت عنها، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج لنا منها فرجة، ففرج لهم»[(١)].

– **ومن قصص العفة المؤثرة** التي ذكرها ابن قدامة – رحمه الله – في كتابه التوابين: أنه كان بالكوفة فتى جميل الوجه، شديد التعبد والاجتهاد، وكان أحدَ الزهاد، فنزل في جوار قوم من النخع[(٢)]، فنظر إلى جارية منهم جميلة؛ فهويها وهام بها عقله، ونزل بها مثل الذي نزل به، فأرسل يخطبها من أبيها، فأخبره أبوها أنها مسماة لابن عم لها، واشتد عليهما ما يقاسيان من ألم الهوى! فأرسلت إليه الجارية: قد بلغني شدة محبتك لي وقد اشتد بلائي بك لذلك مع وجدي بك، فإن شئت زرتك وإن شئت سهلت لك أن تأتيني إلى منزلي، فقال للرسول: لا واحدة من هاتين الخصلتين ﴿ **قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾** ﴾ [الزمر: ١٣]! أخاف ناراً لا يخبو سعيرها، ولا يخمد لهبها! فلما انصرف الرسول إليها فأبلغها ما قال؛ قالت: وأراه مع هذا زاهداً يخاف الله تعالى، واللهِ ما أحدٌ أحق بهذا من أحد، وإن العباد فيه لمشتركون، ثم انخلعت من الدنيا وألقت علائقها خلف ظهرها، وجعلت تعبد، وهي مع ذلك تذوب وتنحل حباً للفتى وأسفاً عليه حتى ماتت شوقاً إليه، ثم لحقها بعد سبع ليال رحمهما الله»[(٣)].

---

(١) البخاري ح(٥٩٧٤)، مسلم ح(٢٧٤٣).

(٢) النخع – محركة –: قبيلة من اليمن من رهط إبراهيم النخعي، نزلت الكوفة، وهم من مذحج.انظر: تاج العروس (٢٢/ ٢٣٧)، الأنساب للسمعاني (١٣/ ٦٢).

(٣) التوابين: (١٥٩) باختصار.





قال ابن القيم رحمه الله – تعليقاً على قول بعضهم: (والله للذة العفة أعظم من لذة الذنب): «ولا ريب أن النفس إذا خالفت هواها أعقبها ذلك فرحاً وسروراً ولذة أكمل من لذة موافقة الهوى بما لا نسبة بينهما، وهاهنا يمتاز العقل من الهوى»[1].

فيا كل من أساء وأذنب واقترف؛ عجل بالتوبة، وأسرع بالإقلاع والندم؛ واستعفف يعفك الله، واستغن بما آتاك الله يغنك الله، لعله يكتب لك الخير قبل أن يفجأك الموت، وتدركك المنية.

اللهم إنا نسألك الهدى والتقى، والعفاف والغنى، اللهم أغننا بحلالك عن حرامك، وبك عمن سواك، وقنا وأهلينا والمسلمين الفتن ما ظهر منها وما بطن.

خلاصة القاعدة:

- من جاهد نفسه على خلق طيب..فهو معان من الله.
- استغن بالله يحبك الله، واستغن عن ما في أيدي الناس يحبك الناس.
- العفة والقناعة كنزان لا يُقدران بثمن.



(١) روضة المحبين ص(١٠٣).





القاعدة النبوية التاسعة والأربعون:
انظروا إلى من هو أسفل منكم

> مجالسة الفقراء أُنس من وحشة الفقر.
>
> (أبو على الثقفي)

هذه قاعدة نبوية قيمة من القواعد التي يربي المسلم عليها نفسه وهو يحث الخطى في مسالك الحياة، التي يلاقي فيها من هو أفضل منه في شأن الدنيا، كما يلاقي فيها من هو أقل.

وقد جاءت هذه القاعدة ضمن قول النبي ﷺ: «**انظروا إلى من أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم**»، ثم علّل ذلك فقال: «**فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم**»[1].

يا لها من وصية نافعة! وكلمة شافية وافية! تدعو إلى شكر المنعم المتفضل، وتدعو إلى الاعتراف بنعمه، والتحدث بها، والاستعانة بها على طاعته، وفعل جميع الأسباب المعينة على الشكر.

وقد أرشد النبي ﷺ إلى هذا الدواء العجيب، والسبب القوي لشكر

---

(١) مسلم ح(٧٦١٩).





نِعَم الله، وهو: أن يلحظ العبدُ في كل وقتٍ من هو دونه في العقل والنسب والمال، وأصناف النعم، فمتى استدام هذا النظر اضطره إلى كثرة شكر ربه والثناء عليه؛ فإنه لا يزال يرى خلقاً كثيراً دونه بدرجات في هذه الأوصاف، ويتمنى كثيرٌ منهم أن يصل إلى قريبٍ مما أوتيه من عافيةٍ ومالٍ ورزق، وخَلْق وخُلُق؛ فيحمد اللهَ على ذلك حمداً كثيراً.

ينظر إلى خلقٍ كثيرٍ ممن سُلِبوا عقولهَم، فيحمد ربه على كمال العقل، ويشاهد عالماً كثيراً ليس لهم قوت مدّخر، ولا مساكن يأوون إليها، وهو مطمئن في مسكنه، مَوسّع عليه رزقه.

ويرى خلقاً كثيراً قد ابتُلوا بأنواع الأمراض، وأصناف الأسقام، وهو مُعافى من ذلك، مُسَرْبل بالعافية، ويشاهد خلقاً كثيراً قد ابتُلوا ببلاء أفظع من ذلك: بانحراف الدين! والوقوع في قاذورات المعاصي! والله قد حفظه منها أو من كثيرٍ منها.

ويتأمل أناساً كثيرين قد استولى عليهم الهم، وملكهم الحزن والوساوس، وضيق الصدر، ثم ينظر إلى عافيته من هذا الداء، ومِنّةَ الله عليه براحة القلب، حتى ربما كان فقيراً يفوق بهذه النعمة – نعمة القناعة وراحة القلب – كثيراً من الأغنياء.

ثم مَن ابتلي بشيء من هذه الأمور يجد عالماً كثيراً أعظم منه وأشد مصيبة؛ فيحمد الله على وجود العافية، وعلى تخفيف البلاء؛ فإنه ما من مكروه إلا ويوجد مكروه أعظم منه.

فمن وُفِّق للاهتداء بهذا الهدي الذي أرشد إليه النبي ﷺ؛ لم يزل شكرُه





في قوة ونمو، ولم تزل نعمُ الله عليه تترى وتتوالى، ومن عكس القضية! فارتفع نظرُه، وصار ينظر إلى من هو فوقه في العافية والمال والرزق وتوابع ذلك؛ فإنه لا بد أن يزدري نعمة الله، ويفقد شكرَه، ومتى فقد الشكر ترحَّلت عنه النعم، وتسابقت إليه النقم، وامتُحن بالغم الملازم، والحزن الدائم، والتسخط لما هو فيه من الخير، وعدم الرضى بالله رباً ومدبراً، وذلك ضررٌ في الدين والدنيا، وخسرانٌ مبين.

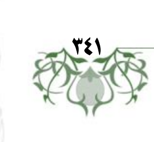
واعلم أن من تفكَّر في كثرة نعم الله، وتفطن لآلاء الله الظاهرة والباطنة، وأنه لا وسيلة إليها إلا محض فضل الله وإحسانه، وأن جنساً من نعم الله لا يقدر العبدُ على إحصائه وتعداده – فضلاً عن جميع الأجناس، فضلاً عن شكرها – **فإنه يضطر إلى الاعتراف التام بالنعم، وكثرة الثناء على الله**، ويستحي من ربه أن يستعين بشيء من نعمه على ما لا يحبه ويرضاه، وأوجب له الحياء من ربه الذي هو من أفضل شُعَب الإيمان؛ فاستحيى من ربه أن يراه حيث نهاه، أو يفقده حيث أمره، ولقد اعترف أعظمُ الشاكرين بالعجز عن شكر نعم الله؛ فقال ﷺ: «**لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**»[1]»[2].

يقول الغزالي – رحمه الله –: وعجباً للمرء كيف لا يساوي دنياه بدينه! فهو ينظر أبداً في الدين إلى من هو دونه لا لمن فوقه! أفلا يكون في الدنيا كذلك؟!

---

(١) مسلم ح(٤٨٦).

(٢) بهجة قلوب الأبرار: (ص: ٥٤-٥٦) بتصرف يسير.





وقال الحكيم: لا يزال الإنسان يترقى في درجات النظر علواً علواً، كلما نال درجة سما به حرصُه إلى النظر إلى ما فوقها، فإذا نظر إلى من دونه في درجات الدين اعتراه العُجْب فأعجب بنفسه؛ فطال بتلك الدرجة على الخلق واستطال! فرُمي به من ذلك العلو فلا يبقى منه عضوٌ إلا انكسر وتبدد![1].

قال عون بن عبدالله: كنت أجالس الأغنياء؛ فلم أزل مغموماً! كنت أرى ثوباً أحسن من ثوبي! ودابة أفره من دابتي! فجالست الفقراء فاسترحت.

وحكي أن المزني: خرج من باب جامع الفسطاط[2]، وقد أقبل ابنُ عبدالحكم في موكبه، فبهره ما رأى مِن حسن حاله وحسن هيئته! فتلا قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾ ثم قال: «بلى أصبر وأرضى» وكان فقيراً مُقِلاً، فالذي هو في بيته لا يُبتلى بمثل هذه الفتن.

ومن شاهد زينة الدنيا: فإما أن يقوى دينُه ويقينُه؛ فيصبر الى أن يتجرع مرارة الصبر – وهو أمَرّ من الصَّبِر –، أو تنبعث رغبتُه فيحتال في طلب الدنيا؛ فيهلك هلاكاً مؤبداً، أما في الدنيا: فبالطمع الذي يخيب في أكثر الأوقات؛ فليس كل من يطلب الدنيا تتيسر له، وأما في الآخرة فإيثاره متاعَ الدنيا على ذكر الله تعالى والتقرب إليه.

ولذلك قال ابن الإعرابي:

إذا كان باب الذل من جانب الغنى ... سموت إلى العلياء من جانب الفقر

---

(١) فيض القدير: (٣/ ٧٧)بتصرف.

(٢) الفسطاط موضع بناه الصحابي الجليل عمرو بن العاص ﷺ، ينظر في خبره: معجم البلدان (٤/ ٢٦٣).





أشار إلى أن الطمع يوجب في الحال ذلاً[1].

واعلم – أيها الموفق – أن مجالسة المساكين توجب رضى من يجالسهم برزق الله عز وجل، وتعظم عنده نعمة الله عز وجل عليه بنظره في الدنيا إلى من دونه، ومجالسة الأغنياء توجب السخط بالرزق، ومد العين إلى زينتهم وما هم فيه، وقد نهى الله عز وجل نبيَّه عن ذلك فقال تعالى: ﴿ **وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ١٣١** ﴾ [طه: ١٣١][2].

ولما اجتمع الزهري وأبو حازم الزاهد بالمدينة عند بعض بني أمية لما حجّ، وسمع الزهري كلام أبي حازم وحكمتَه أعجبه ذلك، وقال: هو جاري منذ كذا وكذا! وما جالسْتُه وما عرفت أن هذا عنده! فقال له أبو حازم: أجل! إني من المساكين! ولو كنتُ من الأغنياء لعرفتني! فوبخه بذلك[3].

ولقد كان من دعاء المصطفى عليه الصلاة والسلام: «اللهم إني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين...»[4].

والسؤال هنا: كيف يُحبُّ الإنسان المساكين وهو لا يعرفهم أصلاً؟ ولا ينظر إليهم، ولا يجلس معهم؟!

---

(١) ينظر: إحياء علوم الدين: (٢/ ٢٣٥).

(٢) ينظر: اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى (ص: ١٠٥).

(٣) السابق: (ص ١٠٤).

(٤) الترمذي ح(٣٢٣٥)وقال: هذا حديث حسن صحيح، سألتُ محمد بن إسماعيل عن هذا الحديث فقال: هذا حديث حسن صحيح





خذ مني هذه الحادثة التي وقفت عليها: رجلٌ زرتُه في أحد المناطق في السعودية، وقد أقعده حادث سيارة بسبب شلل رباعي، أقعده في المستشفى عشرة أشهر، وبقي في بيته نحواً من خمس سنوات أو تزيد، دخلتُ عليه، وهو لا يفتر عن ذكر الله، وحمده وشكره، ويردد: أنا أحسن من غيري، اللهم لك الحمد، وأخذ يحدثنا عن السعادة القلبية التي يجدها، وأنه يمارس الدعوة إلى الله مع الأطباء والممرضين الذين يترددون عليه!

لقد رأيت في هذا الرجل - الذي أسأل الله له شفاءً من عنده - تطبيقاً عملياً لهذه القاعدة: «انظروا إلى من هو أسفل منكم».

اللهم قنعنا بما رزقتنا، وزدنا من فضلك، وارزقنا شكر نعمك، وحسن عبادتك، اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا غاية رغبتنا، واجعل اللهم الجنة دارنا ومأوانا.

خلاصة القاعدة:

- هكذا الشرع يدلك على ما فيه راحة بالك وطمأنينة نفسك.
- لن تنزل بك مصيبة إلا وقد نزل بغيرك ما هو أفظع منها.
- لو جلست تعد نعم الله عليك..فلن تتفرغ لرؤية ما حُرمت من متاع الدنيا.







القاعدة النبويّة الخمسون:
إذا مات الإنسان انقطع عملُه إلا من ثلاث

> قال إبراهيم الحربي لرجل: هؤلاء أولادك؟ قال: نعم! قال: احذر لا يرونك حيث نهاك الله فتسقط من أعينهم!

عطايا المنان لا تنتهي، وهباته لعباده المؤمنين لا تنفد، وما في هذه القاعدة النبوية الجليلة إنما هو قطرة من فيض فضل الله الكريم جل وعلا، وهو القائل: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الرحمن: ٦٠]. فلكرم المؤمن على ربه، لم يُغْلقْ عنه أبواب الحسنات حتى وهو ميت تحت أطباق الثرى!

وتمام هذه القاعدة النبوية هي قوله عليه الصلاة والسلام: «**إذا مات الإنسان انقطع عملُه إلا من ثلاث: صدقةٌ جارية، وعلمٌ ينتفع به، وولدٌ صالح يدعو له**»[1].

الدنيا دار العمل، وقد جعلها تعالى مزرعة للآخرة، فمن زرع هنا حصد هناك.

من زرع خيراً حصد أضعافه، ومن زرع شراً فلا ينتظر أن يحصد غير ما زرع، وما ربك بظلام للعبيد.

---

(١) مسلم ح(١٦٣١).





والمؤمن حين يسمع ويقرأ هذا الحديث العظيم، وهو أصلُ كبير، وقاعدة عظيمة في باب الأعمال، فإنه ينبغي له أن يبحث عن أكبر نصيبٍ له من هذه الأسهم الثلاث: الصدقة والعلم والذرية الصالحة، التي منّ الكريم الوهّاب ببقاء أثرها بعد فراق هذه الحياة.

والملاحظ أن هذه الأسهم بتنوعها؛ تكشف عن جانب عظيم في الإسلام، وهو الشمول والتنوع:

ففي ذكر «الصدقة الجارية» دعوة لاكتساب المال من طرقه المباحة، وثناء على الباذلين، لا كما يفهم بعض الناس مسألة الزهد بطريقة منكوسة!

وفي التعبير بـ«الجارية» إشارة إلى أهمية العناية بالمال الذي يتعدى نفعه، ولعل الأوقاف من أظهر هذه الصور، سواءُ بوقف العقارات التي لها مصرفٌ وغلّة ثابتة، أو بوقف السلاح لنفع المجاهدين في سبيل الله، أو وقف الأجهزة الطبية لعلاج المرضى الذين قد لا يطيقون تكلفة العلاج، أو وقف الكتب – وأشرفها كتاب الله – التي ينتفع باستعمالها والانتفاع بها، أو بناء المساجد والمدارس، وغيرها من صور الوقف التي تعددت في عصرنا الحاضر، وقامت الحاجة إليها.

فمن وفّق لذلك، فأجرُها جارٍ على العبد ما دام ينتفع بشيء منها.

وفي ذكر «العلم» وتقييده بالنافع، حثٌ على طلب العلم الذي ينفع العباد في دينهم ودنياهم، سواءٌ كان في علم الشريعة – وهو أشرف العلوم – أم في علوم أخرى يحتاجها الناس، كالطب والهندسة ونحوها.

ومما يدخل تحت العلم النافع الذي يتركه الإنسان بعده: تخريج طلبة





العلم، الذين يهيأون ليكونوا علماء المستقبل، فإن لكل من ساهم في بنائهم العلمي أجراً، وهو مشمول بهذه الغنيمة العظيمة: «أو علم ينتفع به».

وكم عالمٍ من علماء الأمة الكبار، إذا نظرتَ في سيرته، وجدت أن من شيوخه فلاناً وفلاناً من غير المشهورين، لكنهم ساهموا في بنائه وهو صغير، فنفع الله به، فلا تحتقر – أخي طالب العلم – أي معلومة أو متنٍ توضّحه، أو دلالة لطالب علمٍ مبتدئ على عالم يتعلم منه، فإنك لا تدري ما الذي يخبئه الغيب لهذا الشاب الصغير.

ووالله إني لا أغبط أحداً في هذه الحياة، لا ملكاً لملكه، ولا تاجراً لتجارته، ولا وجيهاً لوجاهته، **كما أغبط عالماً ينتفع الناس بعلمه وهو في قبره منذ مئات السنين! فيا لله! كم جرى لهم وعلى أيديهم من الخير؟** ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وفي هذه الجملة: «**أو علم ينتفع به**» تنبيه على البعد عن الاشتغال بالعلوم التي لا تنفع لا في الدنيا ولا في الآخرة، بل هي مضيعةُ وقت، وربما عادت عليه بالضرر، وما أخبار العلماء الذين دخلوا في علم الكلام والفلسفة، ثم ندمهم في أواخر حياتهم، إلا نموذج لذلك.

وفي عصرنا الحاضر، انفتحت على الشباب نوافذ فكرية كثيرة، وتنوعت عليهم مصادر المعرفة، فصار بعضهم لا يميز، فيقرأ كلّ ما وقعت عليه يده، فأثّر هذا في إيمانهم، وتزعزع اليقين عند بعضهم في عقائدهم التي رضعوها صافية نقيةً صفاء الماء النازل من السماء، فتكررت مشاهد الحيرة التي عانى منها العلماء الذين أشرتُ إليهم آنفاً، فهل من معتبر؟!





وثالث هذه الأسهم النبوية «الولد الصالح»:

وهنا لم يعيّن، هل هو ولد الصلب؟ أم الحفيد من جهة الأبناء أو البنات، وهل هو ذكر أو أنثى؟ بل قال: (أو ولد).

وأشار الحديث إلى أعظم المنافع التي تُرجى من الولد، وهي: الدعاء.

لهذا، إذا رأيت الولد – ابناً أو بنتاً – يكثر من الدعاء لوالديه، فهذه علامةٌ على صلاحه.

لكن بم يدعو الولد لوالديه؟

والجواب: أن الحديث لم يعيّن شيئاً من ذلك، بل أطلق، فيدعو بخيري الدنيا والآخرة، فيدعو لوالديه بالتوفيق والتسديد – وهم أحياء – ويدعو لهم بالمغفرة والرحمة، ورفع الدرجات، وحصول المثوبات – بعد وفاتهم.

وفي الحديث: تنبيه على الحث على النكاح، فهو الوسيلة الشرعية لطلب الولد.

ألا وإن من أعظم الربح للعبد، أن يوفقّه الله لهذه الثلاث كلها، التي «هي مضمون قوله تعالى: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ** ﴾[يس:١٢] فـ(ما قدموا): هو ما باشروه من الأعمال الحسنة أو السيئة، و(آثارهم): ما ترتب على أعمالهم، مما عمله غيرُهم، أو انتفع به غيرُهم.

وجميع ما يصل إلى العبد من آثار عمله ثلاثة:

الأول: أمورٌ عَمِل بها الغيرُ بسببه، وبدعايته وتوجيهه.

الثاني: أمورٌ انتفع بها الغير أيَّ نفع كان، على حسب ذلك النفع باقتدائه به في الخير.

الثالث: أمورٌ عملها الغيرُ وأهداها إليه، أو صدقة تصدق بها عنه، أو دعا له، سواء أكان من أولاده الحسيين، أو من أولاده الروحيين الذين





تخرجوا بتعليمه، وهدايته وإرشاده، أو من أقاربه وأصحابه المحبين، أو من عموم المسلمين، بحسب مقاماته في الدين، وبحسب ما أوصل إلى العباد من الخير، أو تسبب به، وبحسب ما جعل اللهُ له في قلوب العباد من الود الذي لا بد أن تترتب عليه آثارُه الكثيرة، التي منها: دعاؤهم، واستغفارهم له، وكلها تدخل في هذا الحديث الشريف.

وقد يجتمع للعبد في شيء واحد عدةُ منافع: كالولد الصالح العالم، الذي سعى أبوه في تعليمه، وكالكُتُب التي يقفها، أو يهبها لمن ينتفع بها.

ويُستدل بهذا الحديث على: الترغيب في التزوج، الذي من ثمراته حصول الأولاد الصالحين، وغيرها من المصالح، كصلاح الزوجة وتعليمها ما تنتفع به، وتنفع غيرها»[1].

وههنا رسالة عظيمة! يرسلها ابن حجر الهيتمي – رحمه الله – لكل كاتب وناسخ فيقول ـ عن حديث «من سنّ سنة حسنة، أو سنّ سنة سيئة»:

«بشرى عظيمة لمن نسخ علماً نافعاً، وهي أنه يكون له أجرُه وأجرُ من قرأه أو نسخه، أو عملَ به من بعده ما بقي خطُّه والعملُ به، وإنذارٌ عظيم لمن نسخ علماً فيه إثمٌ؛ وهو أن عليه وزرُه ووزرُ من قرأه أو نسخه أو عملَ به بعدَه ما بقي خطُّه والعملُ به»[2].

ونحن الآن في عصر الجوال والإنترنت والفيسبوك وتويتر – وغيرها من مواقع التواصل الاجتماعي – فقبل أن تكتب شيئاً لتنشره في الناس تأمل: هل فيه خيرٌ وحق وصواب أو دلالة إليه؟ أم فيه شرٌ وتضليلٌ وإفسادٌ

(١) بهجة قلوب الأبرار: (ص ١١٣).

(٢) الزواجر عن اقتراف الكبائر: (١/ ٢٤٩).





أو دلالةٌ إليه؟ فإن كان الأول؛ فأصلِح النية واعلم أن لك أجرُه وأجر من قرأه أو نسخه أو عمل به، وإن كان الثاني – عياذاً بالله – فاعلم أن عليك وزره ووزر من عمل به أو نسخه أو دعا إليه، يجلي هذا المعنى حديث المصطفى عليه الصلاة والسلام: «لا تُقتل نفسٌ ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفلٌ من دمها؛ لأنه كان أول من سنَّ القتل»[1].

وما من كاتب إلا ستبقى كِتابتهُ وإن فنيت يداه
فلا تكتب بكفك غير شيء يسرك في القيامة أن تراه

اللهم اجعلنا مفاتيح للخير، مغاليق للشر، وبارك لنا في أوقاتنا وأعمارنا، واجعل أعمالنا وأقوالنا في مرضاتك، وتمدنا بعد موتنا بطيب رحماتك.

خلاصة القاعدة:

- حتى بعد موتك أيها المؤمن..وعطايا الرب لا تنساك!
- عود نفسك على الصدقة ولو بالقليل.
- بلّغ من العلم ولو آية أو حديثاً.
- إن حُرمت من العلم الشرعي فاغتنم الفرصة في ولدك.



(١) البخاري ح(٣٣٣٥)، مسلم ح(١٦٧٧).





الفهرس الألف بائي للقواعد



















فهرس الفوائد

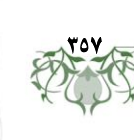








































فهرس الموضوعات













